دكتور
صلاح الدين محمد أحمد

من جمال النظم القرآني
في سورة إبراهيم
دراسة تحليلية بلاغية مقارنة

الطبعة الأولى
١٤١٠ هـ — ١٩٨٩ م

دار الطباعة المحمدية
٣٠ درب الأتراك بالأزهر — القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمه

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ المبعوث رحمة للعالمين والقدوة الحسنة للناس أجمعين والمؤيد بالمعجزة الخالدة التى أعجزت العرب الفصحاء ووقفت دونها عقول البلغاء وما أستطاعوا إلى معارضته سبيلا فظهر عجزهم وخاطبهم الله بقوله « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة . أعدت للكافرين » (١).

وبعد :

فإن القرآن الكريم هو كلام رب العالمين وضياء السماء إلى أهل الأرض وقد كان ولا يزال المائدة الحافلة التى تتداعى لها النفوس على اختلاف مشاربها ومنازعها وأهوائها .

ولذلك قد وجد فى حقل الدراسات القرآنية الكثير من النتاج العلمى المتنوع تبعا لتعدد البيئات التى اختلفت إلى هذا النص الجليل من بيئة المفسرين إلى المتكلمين إلى اللغويين إلى البلاغيين فالمكتبة القرآنية ثرية بالكتب الباحثة عن مفرداته ومجازه وإعرابه وبلاغته بداية من مجاز

---

(١) سورة البقرة ٢٣ ، ٢٤

القرآن لأبى عبيدة وعناية الخطابى والرمانى والباقلانى بالكشف عن وجوه الإعجاز واحتفال عبد القاهر والزمخشرى بالبحث عن أسرار النظم، وغير ذلك من العلماء الذين ساروا فى نفس الطريق من القدماء والمحدثين .

والفهم الصحيح لما يرمى إليه القرآن طريقه النص القرآنى نفسه بمعنى التعرف على الدلالة اللغوية للكلمة، لأنه نزل بلسان عربى مبين ، فلا بد أن ندرك أن لغة العرب هى المفتاح الذى ينبغى أن يدار لفك مغاليق الألفاظ وتلمس دلالاتها اللغوية، والتعرف عليها يعطينا حس العربية للمادة فى مختلف استعمالاتها الحقيقية والمجازية ، ثم نخلص لمعرفة المعنى القرآنى باستقراء كل ما فى القرآن من صيغ اللفظ، وتدبر سياقه الخاص فى آيته وسورته. وهذا هو الذى يهدينا سواء الصراط فى فهم أسرار التعبير وكشف الحجب عن الأقوال المتعارضة والتأويلات المتناقضة حول المراد من المعانى. فالباحث فيه عن الأحكام الفقهية والقضايا الاجتماعية والمواقف التاريخية عليه أن ينطلق من نظم النص القرآنى نفسه فهو العمدة عليه والمعول فى استخراج المعانى والسير والأحكام .

وعلى ضوء هذا ستكون رحلتنا مع سورة سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيكون النص القرآنى هو منطلقنا بإذن الله تعالى لمعرفة مقاصد السورة وما ترشد إليه من عبر وعظات ويتلخص منهج الدراسة فى تلك النقاط :

الأولى : التحليل اللغوى لمفردات الآية والتعرف من خلال هذا التحليل على المعانى التى ارتبط اللفظ بها فى وضعه الأول وما أعقبه بعد ذلك من أطوار فإن ذلك يكشف عن جمال اللفظ فى موقعه وأثره فى سياقه .

الثانية : النظر إلى التركيب بأكمله وبمكوناته الدقيقة من الحروف والكلمات والجمل والتعرف على المعانى والأحداث من خلال تناسق نظم الجمل . فمن المعلوم أن طول الجملة وقصرها وفصلها ووصلها وفواصلها والقوالب التى تصب فيها كطرق القصر مثلا وإجمالها وتفصيلها وتتابع

صفات الموصوف فيها وما يعتريها من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير وغير ذلك له أثر جمالى فى إبراز المراد منها .

الثالثة : النظر إلى الآيات التى تجمعها هذه السورة على أنها حلقات فى سلسلة واحدة أو فصوص من الماس انتظمها عقد واحد . فكون السورة تشتمل على مقاصد متعددة فإن ذلك لا يلغى وحدة عضويتها وتكامل لبناتها وتناسق أجزائها وترتيب آياتها الترتيب الذى يجعل السابق فى حكم المقدمة للاحق والاحق فى حكم النتيجة للسابق وهكذا تتوالى الآيات حتى تكون الخاتمة مهما بعدت عن أولها لها ارتباط بها جد وثيق . إذ أن لكل سورة محورها الثابت الذى تدور حوله . فليست الوحدة متحققة فى وحدة الموضوع فقط مثل موضوع الجهاد والصبر أو فى وحدة القصة مثل قصة موسى ونوح وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام وإنما تتحقق كذلك فى السورة الواحدة ولذلك قال العلماء قديما كالنيسابورى والرازى وابن العربى وغيرهم . إن السورة مهما تعددت قضاياها فهى كلام واحد يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره ويترامى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل بعضها ببعض فى القضية الواحدة وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها كما لا غنى له عن ذلك فى أجزاء القضية ... وغض النظر عن البناء الكلى الذى وضعت عليه السورة بجملتها نظر قاصر يجلب لصاحبه جور القصد وينأى به عن أروع نواحى جمال النظم ...

ولذلك كان هذا المطلب « الكثرة والوحدة » عزيز المنال لدى البلغاء لأنه ليس بالأمر الهين كما قد يظنه بعض المتفذلكين بل هو مطلب كبير يحتاج إلى مهارة وحذق ولطف حس فى اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء أيها أحق أن يجعل أصلا أو تكميلا ؟ وأيها أحق أن يبدأ به أو يختم أو يتبوأ مكانا وسطا ثم يحتاج مثل ذلك فى اختيار أحسن الطرق لمزجها بالإسناد أو بالتعليق أو بالعطف أو بغيرها . هذا كله بعد التلطف

ـفى احتيار تلك الأجزاء أنفسها والإطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى وأنها نقية من الحشو قليلة الإستطراد وأن أطرافها وأواسطها تستوى فى ترامبها إلى الغرض كما تستوى الدائر بالقياس إلى المركز ... ...

وتزداد هذه الوحدة إعجازا وجمالا . إذا علمنا أن الآيات نزلت معرفة على حسب الأسباب والوقائع ومع ذلك لم يحل انفصال الزمان واختلاف الدواعى عن بلوغها الغايه فى الإتحاد المعجز أو الإعجاز العجيب (١) .

الرابعة : التدبر فى الآيات المتشابهات وإبراز مـــا اختصت به من الصياغة وفقا لسياقها والغرض منها ودحض شبه المتوركين على أسلوب القرآن المكريم الذين ينظرون إلى صياغته نظرا سطحيا وإظهار تهافت طعونهم .

الخامسة : إظهار عجيبة لم تتوفر لغير القرآن الكريم وهى مراعاة الخط أو رسم بعض الكلمات طبقا للمعنى المقصود من الآية فى سياقها مثل كتابة لفظ — النعمة — بالتاء المفتوحة فى سورة إبراهيم وبالتاء المربوطة فى سورة النحل .

وبعد اقتفاء هـذه الخطوط فى محاولة كشف بعض جماليات النص القرآنى يبقى القرآن فوق طاقة البشر وأن محاولة الإحاطة بأسراره مثل محاولة الإحاطة بأسرار الكون فمهما جد الباحثون وأسرع المنقبون وأخلص المتأملون فى زوايا الكون سمائه وأرضه أنهاره وبحاره فلن تزال هناك زوايا مطمورة وأسرار خفية لا يحيط بها إلى العليم الخبير وكذلك القرآن الكريم . وصدق الله إذ قال «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا»(٢) .

---

(١) النبأ العظيم ١٥٩ وما بعدها بتصرف

(٢) سورة الكهف ١٠٩

وقال : « ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام البحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم »(١) .

وحسبي أنها محاولة للتعرف على بعض دقائق القرآن وأظهار بعض أسراره ، فإن أتت ثمارها فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وإن كانت الأخرى فحسبي تلك المعايشة الروحية والفكرية للقرآن الكريم ولن يحرم المخطىء من الأجر إن شاء الله تعالى .

« ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا » .

هذا وبالله التوفيق ؟

كفر جبارة . فاقوس . شرقية تحريرا فى ٢٠ ربيع الأول ١٤١٠هـ
٢٠ أكتوبر ١٩٨٩م

دكتور
صلاح محمد غراب
كلية اللغة العربية — الزقازيق

(١) سورة لقمان ٢٧

وجه ارتباط السورة بما قبلها

تقع سورة إبراهيم بعد سورة الرعد وبين السورتين أوجه ارتباط متعددة وذلك يقوى الصلة بينهما ويجعلهما لبنتين متماسكتين فى الصرح القرآنى الكبير .

فكلتا السورتين بدأتا بالحروف المقطعة فى سورة الرعد — المر — وفى سورة إبراهيم — الر — وسنعرض لمدلول هذه الحروف فيما بعد .

وفى السور الأولى ذكرت نعم الله الكونية من رفع السموات بغير عمد وتسخير الشمس والقمر ومد الأرض وجعل فيها رواسى والأنهار والثمرات وإغشاء الليل النهار واختلاف الزرع والنخيل مع اتحاد عنصر السقى وهو الماء .

وفى السورة الثانية ذكرت هذه النعم إلا أنه صرح فيها بأشياء لم يصرح بها فى سورة الرعد كما ذكر أشياء فى سورة الرعد لم تذكر فى سورة إبراهيم .

ومع اتحاد بعض المذكورات من هذه النعم فى السورتين فإن جهة ذكرها مختلفة ففى سورة الرعد ذكرت على سبيل كونها أدلة وبراهين ساطعة على وجود الحق تبارك وتعالى . ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

وفى سورة إبراهيم ذكرت على سبيل تعداد النعم على عباده المؤمنين وفى سورة الرعد ضرب الله مثلا للذين يدعون الأصنام من دون الله

بقوله تعالى : « له دعوة الحق والذين يدعون من دون الله لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » آية ١٤ .

وفى سورة إبراهيم صور الله أعمال الكافرين بقوله : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد » ١٨ .

فالآية الأولى ركزت على حال الإستجابة وهى الأثر المترتب على الفعل بينما الآية الثانية ركزت على الفعل نفسه وهو العمل وكان الماء هو العنصر الأساس فى التصوير فى الآية الأولى بينما كان الرماد هو العنصر الأساسى فى تصوير الآية الثانية .

وفى سورة الرعد صور الله الحق والباطل بقوله : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » ١٧ .

وفى سورة إبراهيم ما يناظر ذلك فى تصوير الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .

وفى سورة الرعد فصل مواصفات أولى الألباب وهم أهـــل الوفاء وعدم نقض الميثاق بقوله تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ...... » ٢٤ .

وأتبع ذلك مواصفات من تعاموا عن الحق .

وقد أجمل هذه الصفات فى سورة إبراهيم تحت شكر النعم وكفرانها وقال السيوطى « إنه ذكر فى الأولى قوله تعالى « ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

وذلك بجمل فى أربعة مواضع الرسل والمستهزئين وصفة الإستهزاء والأخذ وقد فصلت الأربعة فى قوله سبحانه « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح — الآيات (١) .

وهكذا يجمل القرآن ما فصل فى مواطن أخرى ويفصل ما أجمله فى مكان آخر وفى سورة الرعد ذكر أن القرآن نزل حكما عربيا « وكذلك أنزلناه حكما عربيا » ٣٧ — ثم بين الحكمة من ذلك فى سورة إبراهيم بقوله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ٤ .

وفى سورة الرعد ورد الإخبار من الحق تبارك وتعالى « وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » ٣٨ وفى سورة إبراهيم ورد الإخبار بذلك على ألسنة الرسل أنفسهم « وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله » ١١ .

وفى ختام سورة الرعد قال ... قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » ٤٣ فإذا كان المراد بمن عنده علم الكتاب هو الله تبارك وتعالى كان هذا الختام مناسبا جدا لمطلع سورة إبراهيم فقد ذكر فى مطلعها كونه تعالى هو الذى أنزل هذا الكتاب على رسوله ﷺ .

كما أن السورتين افتتحتا بالألف واختتمتا بالباء .

والله أعلم بأسرار كتابه .

---

(١) روح المعانى ١٣/١٨٠ .

مصطلحات قرآنية

بيان معنى لفظ « السورة » :

قبل أن ندخل فى صميم دراستنا لهذه السورة من الوجهة النظيمة . أشير إلى بيان لفظ السورة . فقد قال القتيبى : السورة تهمز ولا تهمز فمن همزها جعلها من - أسأرت - أى أفضلت من السؤر وهو ما يبقى من الشراب فى الإناء كأنها قطعة من القرآن ومن لم يهمزها جعلها من المعنى المتقدم وسهل الهمزة ومنهم من شبهها بسور البناء أى القطعة منه أى منزلة بعد منزلة وقيل من سور المدينة لإحاطتها بآياتها واجتماعها كاجتماع البيوت بالسور ومنه السوار لإحاطته بالساعد وعلى هذا فالواو أصلية .

ويحتمل أن تكون من السورة بمعنى المرتبة لأن الآيات مرتبة فى كل سورة ترتيبا مناسبا وفى ذلك حجة لمن تتبع الآيات بالمناسبات وقال ابن جنى . إنما سميت سورة لارتفاع قدرها لأنها كلام الله تعالى وفيها معرفة الحلال والحرام ومنه رجل سوار أى معربد لأنه يعلو بفعله ويشتط ويقال أصلها من السورة وهى الوثبة تقول سرت إليه وشرت إليه وجمع سورة القرآن سور بفتح الواو وجمع سورة البناء سور بسكون الواو وقيل هو بمعنى العلو ومنه قوله تعالى « إذ تسوروا المحراب » أى نزلوا عليه من علو .

وحد السورة فى الإصطلاح قرآن يشتمل على آى ذوات فاتحة وخاتمة وأقلها ثلاث آيات والحكمة فى تقطيع القرآن إلى سور هى الحكمة فى تقطيع السور إلى آيات لكل آية حد ومطلع وحتى تكون كل سورة بل كل آية فنا مستقلا وقرآنا معتبرا معوانا على الحفظ وإحداث تنشيط للإنسان

كلما انتهى من سورة فرح وأقبل على أخرى حتى يكون كالحال المرتحل كما قال ﷺ (١) .

بيان معنى « آية » فى القرآن الكريم :

قال الراغب الآية هى العلامة الظاهرة ... وقيل للبناء العالى آية نحو أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، ولكل جملة من القرآن ، آية .

وورد فى كليات أبى البقاء ، الآية فى الأصل هى العلامة الظاهرة واشتقاقها من أى لأنها تبين أيا عن أى وتستعمل فى المحسوسات والمعقولات ، يقال لكل ما تتفاوت به المعرفة بحسب التفكر والتأمل فيه وبحسب منازل الناس فى العلم آية ويقال على ما دل على حكم من أحكام الله سواء كانت آية أو سورة أوجملة منها والآية أيضا طائفة من حروف القرآن علم بالتوقيف لانقطاع معناها عن الكلام الذى بعدها فى أول القرآن وعن الكلام الذى قبلها فى آخره ... والآية تعم الأمارة والدليل القاطع .

الآية بمعنى طائفة من حروف القرآن .

كما فى قوله تعالى — منه آيات محكمات — تلك آيات الكتاب المبين .

الآية بمعنى العلامة الظاهرة .

كما فى قوله تعالى — قال رب أجعل لى آية — لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية .

الآية بمعنى المعجزة .

---

(١) ينظر البرهان فى علوم القرآن ٢٦٣/١ .

كما فى قوله تعالى — ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ، وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون .

الآية بمعنى العبرة والعظة .

وهى تتنوع إلى آيات استأثر الله بها ولا دخل للإنسان فيها وهى الآيات الكونية كما فى قوله تعالى ، وجعلنا الليل والنهار آيتين ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب وهناك آيات داخلة تحت قدرة الإنسان وهى التى جعلها الله فى يد الإنسان نفسه كما فى قوله تعالى ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، ومن آياته الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام .

الآية بمعنى الحكم من أحكام الله .

كما فى قوله تعالى : تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون .

الآيه بمعنى السلطان .

كما فى قوله تعالى : سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون .

فلفظ آية له معانى مختلفة تتنوع فى سياقاتها وفقا للقانون العام « لكل مقام مقال » وهذه المعانى كما سبقت بإيجاز .

١ — الطائفة من حروف القرآن .

٢ — العلامة الظاهرة .

٣ — المعجزة الخارقة .

٤ — العبرة والعظة .

٥ — الحكم من أحكام الله تعالى .

٦ — السلطان والبرهان (١) .

من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم :

الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد (١) الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد (٢) الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك فى ضلال بعيد (٣) .

سورة إبراهيم عليه السلام من السور المكية وقيل إلا آيتين ، الآية الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون — ٢٨ — ٢٩ — وسنبين حقيقة ذلك عند التعرض لها .

وهى السورة الرابعة عشرة فى الترتيب المصحفى ولكنها السبعين نزولا نزلت بعد نوح وقالوا ، إن عدد آياتها ثنتان وخمسون آية — ٥٢ — وعدد كلماتها ثمانى مائة وخمس وخمسون — ٨٥٥ — وعدد حروفها ، ثلاثة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون — ٣٤٣٤ — حرفا — (١) .

وتلك هى الآيات الأولى من السور المباركة وقد افتتحت بالحروف المقطعة أو بحروف التهجى وهذه الحروف على وجازتها قد أثارت كثيرا من التأويلات والتفسيرات حولها وذهب البعض إلى أنها سر من أسرار الله تعالى .

---

(١) ينظر قصص الأنبياء

(٢) ينظر تفسير النيسابورى .

وعلى الرغم من كثرة وجوه التفسير لهذه الحروف فليس فيها رأى مقطوع به وكأن ما يقوله به المفسرون والمتصوفون والماديون وأهل الفن والموسيقى دليل على أنها سرا ستأثر الله بعلمه ليظل البشر مستشرفين إلى معرفة المعانى المستورة وراءها ليتحقق بذلك عطاء القرآن لكل جيـــل .

وأشير بإيجاز إلى هذه العطاءات ، فسواء كانت هذه الحروف أسماء لله تعالى أو للسور أو للقرآن ففيها دلائل إعجازية جديرة بالتنبه إليها ، ومن هذه الدلائل أن هذه الحروف قد تكون آية أو جزءا من آية ، فهى آية فى البعض مثل — الم — فى البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة — وجزء آية مثل — الر — فى يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر .

ومعلوم أن هذا التوزيع المحكم ليس فى مقدور البشر وإنما هو يشهد بأن هذا القرآن وحى أوحاه الله إلى سيدنا محمد ﷺ وأن هذا الوحى جاء عن طريق جبريل عليه السلام وعلمه أن الألف واللام والميم تنطق فى أوائل سورها كما تنطق الحروف وفى أول سور الشرح تنطق كما تنطق الكلمة — ألم نشرح لك صدرك ، فهذا الاتحاد فى الحروف ورسمها مع الاختلاف فى نطقها لا يكون إلا بمعلم شديد القوى أقرأه باسم ربه وعلمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما .

وإذ قد علم أن الأمى يستطيع أن ينطق الكلمات وينظم الشعر ويقول النثر ولكنه لا يستطيع أن يتهجى حروف الكلمات فإن النبى صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يقرأ قبل القرآن ولم يخط بيمينه فقد نطق بمسميات هذه الحروف كما ينطقها المتعلم وذلك باب من أبواب الإعجاز والتحدى .

وهذه الحروف التى تكونت منها كلمات القرآن هى نفس الحروف

التى يستخدمها البشر فى كلامهم أى أن مادة الصناعة واحدة ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثلها لأنه كلام رب العالمين .

كما كانت هذه الحروف بمثابة الأدوات اللافتة والآلات المنبهة إلى ما سيذكر بعدها وبخاصة صفات القرآن الكريم من أنه الكتاب الكامل الذى لا ريب فيه وأنه الكتاب المحكم والمبين والمنزل من عند الله على رسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور « فهى كالمهيجة لمن سمعها من الفصحاء والموقظة للهمم الراقدة من البلغاء لطلب التساجل والأخذ فى التفاضل وهى بمنزلة زمجرة الرعد قبل الناظر فى الأعلام لتعرف الأرض فضل الغمام وتحفظ ما أفيض عليها من الإنعام وما هذا شأنه خليق بالنظر فيه والوقوف على معانيه بعد حفظ مبانيه »(١) .

وهناك أمر مهم ذكره الباقلانى فى الوجه التاسع لوجوه الإعجاز وهو أمر إلهى فى القرآن لا يدخل دخولا ظاهرا فى بلاغته وإنما يشبه إلى حد ما الإخبار بالغيب .

فقد لفت الباقلانى إلى أن هذه الحروف عدتها نصف حروف المعجم — مجموع حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفا — ومجموعها أربعة عشر حرفا ثم هى تمثل النصف فى كل قسم من أقسام حروف المعجم على حد تصنيفات علماء اللغة لها من حيث الهمس والجهر والشدة واللين والإطباق والإنفتاح فهى نصف الحروف المهموسة ونصف الحروف المجهورة ونصف الحروف الشديدة ونصف الحروف اللينة ونصف حروف الإطباق ونصف حروف الإنفتاح .

---

(١) البرهان ١٧٦/١

وهذا الضبط غريب لأن هذه الأوصاف للحروف عرفت بعد زمن النبي ﷺ .

وهذا كما قال الباقلانى « دال على أن وقوعها الموقع الذى يقع التواضع عليه بعد العهد الطويل لا يجوز أن يقع إلا من الله عز وجل لأن ذلك يجرى مجرى علم الغيب » .

ويشير الباقلانى إلى أن ما أودع فى بنية هـــذا اللسان من دقائق ليس من عمل علمائه لأن المعرفة علم فحسب أى كشف لما أودع فى اللغة من حكمة ونظام وهكذا الحال فى غير اللغة. فالعلم كله كشف لما أضمر من فطرة الأشياء واستخراج لما اختبأ فى خفاياها ثم أشار إلى أن ما قاله فى إعجاز أسماء السور من حروف المعجم ليس هو كل ما أودع فيها وإنما مجال الأسرار والدقائق الحكيمة والإشارات البارعة فيها متسع ففى قوله تعالى « الم » لفت خفى إلى أن ما أعجزكم .

إنما هو من جنس هذه الحروف التى تستخرجونها بأصواتكم والتى تبدأ من أقصى الحلق كصوت الهمزة وتنتهى بالشفتين كصوت الميم وبينهما مخارج أخرى كصوت اللام ويقول « وقد يمكن أن تعاد فاتحة كل سورة لفائدة تخصها فى هـذا النظم » ، واستخراج مناسبات هذه الحروف وأحوالها إلى مقاصد السور وأعراضها محتاج إلى مزيد من التوفر والفهم والصفاء ووراءه علم دقيق ومعرفة لطيفة شريفة ،

ويلاحظ أنه غالباً ما يذكر الكتاب العزيز وأنه تنزيل من الله عقب هذه الحروف وهذا مما يوحى بانطواء الأمر على أسرار(١) .

ومن هنا يمكن أن نستشف من الحروف الثلاثة فى هذه السورة رحلة

---

(١) الإعجاز البلاغى ٢٣٦

الإنسان فى الحياة مع كتاب الله ورسوله حيث إن هذه السورة تتحدث بداية عن إنزال الكتاب من عند الله على رسوله ليبلغه للناس كافة ثم ذكرت طرفا من قصص رسل الله مع أقوامهم والمعارك الجدلية التى نشبت بينهم وكانت هذه هى المرحلة التى أعقبت البداية أى أنها مرحلة لوسط والعيش فى الدنيا ثم تحدثت عن النهاية وأحوال الظالمين يوم القيامة حيث تبدل الأرض غير الأرض ويبرز الخلق كافة لله الواحد القهار ، فالنظم الشريف فى السورة يتبلور فى ثلاث نقاط ، مجىء الكتاب وموقف الناس منه والنهاية المحتومة التى تنتظر الجميع .

وهذه النقاط متوازية فى انسجام تام مع مخارج الحروف الثلاثة إذ أن أولها الهمزة وهى من أقصى الحلق وهو بداية الصوت ، وثانيها اللام وهى متوسطة والراء وهى متطرفه أى فى نهاية المخارج . فصوتيات هذه الحروف لها ارتباط وثيق بمقاصد وأغراض هذه السورة .

هذا وقد امتد الحديث حول هذه الحروف إلى المستشرقين فيذكر الدكتور زكى مبارك أنه تحدث مع المسيو — بلانشو — فى شأن هذه الحروف فذكر أنها كحروف — A-oi — التى تعد من علامات الترنم الموسيقى فى بعض البلاد فهى ليست إلا — Neamts — أى إشارات موسيقية يتبعها المرتلون . وذهب البعض الآخر مثل — نولدكه — إلى أنها تحمل أسماء لبعض الصحابة مثل سعد بن أبى وقاص ، وأبو هريرة وعثمان .

وسبحان من لا يحيط بأسرار كتابه إلا هو .

كتاب :

هذا هو الكتاب الذى تألف من الحروف سابقة الذكر فهو المحصلة

لضم الحروف على نسق خاص من عند الله عز وجل . وقال الراغب : الكتب ضم أديم إلى أديم بالخياطة .

يقال : كتبت السقا وكتبت البغلة . جمعت بين شفريها بالحلقة وفى التعارف ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللفظ فالأصل فى الكتابة النظم بالخط لكن يستعار كل واحد للآخر ، ولهذا سمى كلام الله وإن لم يكتب كتاباً كقوله تعالى .الم. ذلك الكتاب . والكتاب مصدر كالقيام والصيام واتفقوا على أن المراد من الكتاب هو القرآن الكريم . وقد جاء فى القرآن على وجوه :

أحدها : الفرض . كقوله : كتب عليكم القصاص . كتب عليكم الصيام .

ثانيها : الحجة والبرهان كقوله فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين .

ثالثها : الأجل . كقوله . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم .

رابعها : ابتياع العبد نفسه من سيده بما يؤديه من كسبه . كقوله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانهم .

واشتقاق الكتاب من كتبت الشيء إذا جمعته ومنه الكتيبة لاجتماعها وسمى الكتاب كتابا لأنه كالكتيبة على عساكر الشبهات : أو لأنه اجتمع فيه جميع العلوم . أو لأن الله تعالى ألزم فيه التكاليف على الخلق .

وقد يذكر الكتاب باسمه الوظيفى فى الحياة فيسمى بالقرآن لتلاوته وبالفرقان لنزوله مفرقاً ولتفرقته بين الحق والباطل ، وبالذكر لأنه

يذكرنا ربنا ولأنه شرف لمن يتمسك به — وإنه لذكر لك ولقومك — أنزلناه إليك .

هذه الجملة تشخص معنى كون الكتاب من عند الله إذ هو منزل عليه من السماء وهى فى موضع الصفة لكتاب على اعتبار أن الكتاب خبر — الر — وجوز أن يكون الكتاب خبراً ثانياً للمبتدأ الذى أخبرعنه بـ — الر وأن يكون مبتدأ والذى سوغ الإبتـــداء بالنكرة كونه موصوفا فى التقدير أى كتاب عظيم وجملة — أنزلناه — فى موضع الخبر .

وأما — الر — فيجوز أن يكون فى موضع رفع بالإبتداء أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره — هذه الر — أو فى موضع نصب على تقدير الزم أو أقرأ وتكون جملة — كتاب أنزلناه ... جملة مفسرة(١) .

ونلحظ الترقى فى الأسلوب من الحروف إلى الكلمات إلى الجمل فقد بدأت السورة بالحروف التى تمثل المواد الخام لصناعة الكلام ثم ثنت بالكتاب الذى هو جوهر هذه الصناعة ثم ثلثت بالجملة التى أبانت عن الطريق الذى وصل منه هذا الكلام الشريف إلى الناس وهو كونه منزل من عند الله رب العالمين وقد أسند هذا الإنزال إلى ضمير العظمة وفيه من التعظيم والتفخيم لهذا المنزل والمنزل عليه كذلك وهو محمد ﷺ . ثم أفصحت الآية بعد ذلك عن هدف الكتاب وغايته .

وقد ذكر هنا فاعل «أنزل» مع أنه معلوم من مادة الإنزال لأن المقام مقام امتنان على الخلق بإنزال هذا الكتاب ، وقد حذف من أول الأعراف — المص — كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين —٢— للعلم به لأن المقام مقام تصبير وطمأنة للرسول ﷺ فكان الأهم ذكر المنزل عليه مع ما فيه من الإيجاز ،

---

(١) البحر المحيط ٤٠٣/٥

لتخرج الناس من الظلمات إلى النور :

اللام متعلقة بأنزلناه أى أنزلناه لهذا الهدف المتين وقد كانت الآية صدى لتصور هـــذه الأحداث حيث انتقل الأسلوب من سمة التكلم المناسبة لعظمته سبحانه وتعالى إلى سمة الخطاب بإسناد الإخراج إليه ﷺ وفى ذلك تنويه بعظمة المصطفى وتشريف له لمشاركته فى تحصيل الهداية إذ هو الداعى والمنذر وأما السبب الحقيقى فهو الله عز وجل ، ولذلك تنوع هذا الإسناد بين الله وبين رســـوله فعندما يسند إلى الله فمراعاة للمصدر الحقيقى للإخراج ولذلك يأتى بأسلوب الغيبة لأنه تعالى غيب كما فى قوله « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور — وفى قوله — هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور .

وعندما يسند إلى الرسول المبلغ يأتى بأسلوب الخطاب لحضوره ، والحضور يناسبه الخطاب وقرىء — ليخرج الناس — بالياء فى يخرج ورفع الناس وهذا يعتبر إسناداً ثالثاً لهذا الفعل أسند فيه إلى ملابس الحدث وهم الناس : وكأن صور إسناد هذا الفعل — يخرج — ثلاث كما هو واضح .

وقد جمع الظلمات لتعدد مصادرها وأفرد النور لتوحده وقدم الظلمات للسبق فى الوجود أو باعتبار الكثرة .

ثم ذكرت الآية من يتعلق بهم الإخراج وهم — الناس — مقترنة بلام الجنس المفيدة للاستغراق الدال على العموم وذلك يفيد عموم دعوته للناس كافة فى عصره وبعد عصره .

ثم ذكرت الآية معنى الإخراج المراد هنا وكونه — من الظلمات إلى النور .

العامة لجميع الناس وهذا العموم مناسب للدعوة وكتابها ورسولها إذ هو مبعوث للناس كافة .

إلى صراط العزيز الحميد .

وسواء جعل — إلى صراط — بدلا من النور بتكرير العامل أو جعل استئنافا فإنها موضحة لمعنى النور وإذا كان المراد من لفظ — النور — هو الإيمان فإن غايه الإيمان هـــو الجواز على الصراط المستقيم إلى جنات النعيم فى الآخرة . فالإيمان جعل نورا لظهوره واستضاءة المهتدى به فى الدنيا ثم جعل جادة مسلوكة مأمونة دلالة على تمام الإرشاد فى الدنيا وأملا فى الحصول على الغاية فى الآخرة وعلى هذا فلفظ — صراط — لم يخل ببيان الاستارة فى لفظ النور كما أخل بيان المشبه به بالاستعارة فأرجعها إلى التشبيه فى قوله تعالى حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، لأن إخلال البيان والبدل بالاستعارة إنما هو فى الحقيقة لا فى المجاز،(١).

ثم كان عجز الآية مرتبطا بصدرها غاية الإرتباط فقد تضمن صفتين هما صفة العزة المتضمنة للغلبة والقدرة لانزال مثل هـذا الكتاب المعجز وصفة الحمد لانعامه بأعظم النعم وهى إخراج الناس من الظلمات إلى النور ولذلك كان قوله — العزيز — مقدما لتقدم مدلولة وهو — لتخرج الناس من الظلمات إلى النور — وهذا من ناحية الرب المتفضل بذلك وأما من ناحية المربوب فإنها تشير إلى أنة يعز سالكه ويحمد سابله.

الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض .

لفظ الجلالة — الله — ذهب الخليل وسيبويه إلى أنه علم على الذات

---

(١) روح المعانى ١٨١/١٣

والإخراج أكثر مايقال فى الأعيان كما فى قوله . فخرج منها خائفا يترقب — والمقصود به هنا التحول من حال إلى حال ولذلك كانت استعارته مقدمة طبيعية لاستعارة الظلمات إلى الضلال والنور إلى الإيمان لأن أول صفة يتصف بها المهتدى هى التحول مما كان عليه إلى منهاج ربه ودعوة رسوله . وهذا منوط بتوفيق الله وتيسيره ولذلك عقب بقوله — بإذن ربهم — وأصل الإذن هو تسهيل الحجاب لمن يقصد الدخول فاستعير لتوفيق الله وتيسيره لرفع المانع استعارة تصريحه .

ويجوز أن يكون مجازا مرسلا من إطلاق الملزوم وإرادة اللازم فإن لفظ الإذن حقيقة فى الإطلاق ورفع الحجب ويلزمه التسهيل والتيسير فإن الدخول فى حق الغير وملكه متعذر فإذا صودف الإذن يكون تسهيلا وتيسيرا فلما كان التسهيل من لوازم الإذن صح استعمال لفظ الإذن فيه مجازا(١) .

ولتتابع هذه الاستعارات المفردة ذهب العلامة الطيبى إلى اعتبارها استعارة تمثيلية بتصوير المكلف المنغمس فى ظلمة الكفر بحيث لا يتسهل له الخروج إلى نور الإيمان إلا بتفضل الله تعالى بإرسال رسوله وكتابه بمن وقع فى تيه مظلم ليس منه خلاص فبعث ملك توقيعا لبعض خواصه فى استخلاصه وتسهيل أمره(٢).

ومعلوم أن الاستعارة التمثيلية تقع بين الهيئات المركبة المتمازجة وتستعار فيها هيئة المشبه به فيها للمشبه وماهنا ليس كذلك.

وإضافة الإذن إلى الرب للإشعار بأن التربية من عطاءات الربوبية

---

(١) حاشية زاده ١٢٣/٣ وحاشية الشهاب ٢٤٩/٤

(٢) ينظر روح المعانى ١٨٠/١٣

الإلهية وليس بمشتق لأنه لو كان مشتقا لكان لفظا كليا لايمنع من وقوع الشركة فيه ولو وقعت فيه الشركة لكان منافيا للتوحيد وقد أجمع العقلاء على أن قولنا — لا إله إلا الله — يوجب التوحيد المحض فدل ذلك على أنه علم على الذات المقدسة ولذلك يذكر أولا ثم يعقب بالصفات فيقال الله العالم القادر كما يقال . محمد البليغ العظيم .

وأما ماورد فى هذه السورة من قوله «العزيز الحميد الله .

فنى لفظ الجلالة — الله — قراءتان — الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو والجر كقولنا . هذه الدار ملك للفاضل العالم زيد فليس زيد صفة الفاضل العالم بل مبين لحقيقته على معنى أنه لما قال هذه الدار ملك الفاضل العالم بقى الإشتباه فى أنه من يكون ؟ فقيل زيد فأزال الإشتباه وقد جعله الزمخشرى من باب البيان لإفادته زيادة إيضاح لمتبوعه .

وجعله غيره من باب البدل .

ويرى ابن عصفور أن الصفة لاتتقدم على موصوفها إلا حيث سمع وذلك قليل وللعرب فيما وجد من ذلك طريقان . إما أن تبقى صفة على ما هى عليه نعتا متقدما أو يجعل ما بعد الصفة بدلا وإما أن تضيف الصفة إلى الموصوف وعلى هذا يجوز أن يكون العزيز الحميد . صفتين متقدمتين ولفظ الجلالة — الله — موصوفا متأخرا .

كما يجوز فى قراءة الرفع أن يكون الاسم الجليل مبتدأ وجملة الموصول بعده خبرا ولكن كونها وصفية أمكن وأولى إذ تعتبر كالدافع للاستمساك والركون إلى جنابة طالما أن مافى السموات ومافى الأرض ملك له تعالى .

وذهب بعضهم إلى كون لفظ الجلالة — الله — مشتقا وذكروا أنه

مشتق من ألهت إلى فلان أى سكنت إليه لأن العقول لا تسكن إلا إلى ذكره والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته أو أنه مشتق من لاة إذا ارتفع لأنه سبحانه مرتفع عن مشابهة الحوادث ذاتا وصفات وأفعالا أو من أله فى الشىء إذا تحير فالعبد إذا تفكر فى ذاته تحير أو من لاه يلوه إذا احتجب إذ هو غيب محجوب عن خلقه أو من أله الفصيل إذا ولع بأمه لأن العباد مولعون بالتضرع إليه(١).

وبعد أن تضمنت الآية صفة الجلال التى تدفع الناس إلى الإعتصام بمنهجه والسير على صراطه باعتبارهم مملوكين له ينفذون أوامره ونواهيه صرحت بالوعيد الذى ينتظر من كفر بالدعوة والداعية ولم يخرج من الظلمات إلى النور فقال تعالى «وويل للكافرين من عذاب شديد» .

قال الراغب ويل قال الأصمعى ويل قبح وقد يستعمل للتحسر وويس إستصغار وويح ترحم ومن قال ويل وادى فى جهنم فانه لم يرد أن ويلا فى اللغة هو موضوع لهذا وإنما أراد من قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحق مقرا من النار وثبت له ذلك ونقيضه الوأل بمعنى النجاء(٢).

والويل بمعنى الهلاك فهو مصدر إلا أنه لا يشتق منه فعل وإنما يقال ويلا له فينصب نصب المصادر ثم يرفع رفعها لإفادة الثبوت أى أنه وعيد ثابت لهؤلاء الكافرين ثم بينت الآية مصدر هذا الويل وهو «من عذاب شديد» وقد بين الزمخشرى وجه الإتصال بين الحدث وأثره بقوله «ما وجه إتصال قوله من عذاب شديد بالويل ؟ قلت لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد ويضجون منه ويقولون ياويلاه كقوله « دعوا هنالك ثبورا»(٣) فالويل هنا عبارة عن تلفظهم بكلمة التلهف من شدة العذاب

---

(١) ينظر تفصيل ذلك فى تفسير الرازى ١٥٨/١

(٢) مفردات الراغب .

وأما فى قوله تعالى « فويل لهم مما كتبت أيديهم » فالويل هو نفس العذاب .

ثم شرعت الآية الثالثة تشخص أوصاف هؤلاء الكافرين فذكرت لهم أوصافاً ثلاثة وهى الأول : الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة .

اسم الموصول يجوز أن يكون مبتدأ وخبره أولئك فى ضلال بعيد أو خبر المبتدأ محذوف أى هم الذين أو منصوبا على الذم أو صفة للكافرين .

والإستحباب إستفعال من المحبة لأن المؤثر للشيء على غيرة كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخرة فالفعل مضمن يعنى الإيثار والإختيار ولذلك عدى بعلى وكانت هذه المحبة مذمومة لأنها محبة الغافلين عن الآخرة المعرضين عن الباقية ولذلك قرنت بالإيثار عن الآخرة وأما محبة الدنيا لتحقيق المنافع والمصالح للعباد والبلاد إبتغاء ثواب الله والفوز فى الآخرة فهو عمل مشروع ومن صفات المؤمنين .

الثانى : ويصدون عن سبيل الله .

الصدود والصد قد يكون إنصرافاً عن الشيء وامتناعاً نحو « يصدون عنك صدوداً » ، وقد يكون صرفاً ومنعاً كما فى هذه الآية .

وفى قوله تعالى : « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » والصد من الجبل ما يحول والصديد ما حال بين اللحم والجلد من القيح وضرب مثلا لمطعم أهل النار كما فى قوله « ويسقى من ماء صديد » (١) .

---

(١) مفردات الراغب مادة صد .

والسبيل الطريق الذى فيه سهولة وجمعه سبل وابن السبيل المسافر البعيد عن منزلة نسب إلى السبيل لممارسته إياه ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شىء خيراً كان أو شراً .

وهذه السمة الثانية لهؤلاء الكافرين وتتمثل فى صرف من يسلك إلى الله طريقاً والاقتصار على الحدث والفاعل لتعلق الغرض بهما لأن القصد بيان مايفعله هؤلاء وحذف المفعول ليدل على عموم من يتعلق بهم الفعل فسواء وجد المصرفون أم لم يوجدوا فإن وجود الحدث نفسه علامة بارزة على ضلال هؤلاء الكافرين وبخاصة أن المصدود عنه سبيل الله وهو أحق طريق يجب على الناس سلوكه والتعريف به والسير على سننه .

الثالث : ويبغونها عوجاً .

البغى طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى تجاوزه أو لم يتجاوزه فتارة يعتبر فى القدر الذى هو الكمية وتارة يعتبر فى الوصف الذى هو الكيفية وهو على ضربين أحدهما محمود وهو تجاوز العدل إلى الإحسان والفرض إلى التطوع والثانى مذموم وهو تجاوز الحق إلى الباطل يقال بغت المرأة إذا فجرت وذلك لتجاوزها ما ليس لها قال تعالى ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً يبغون فى الأرض بغير الحق — فالبغى فى أكثر المواضع مذموم وأما الابتغاء فخص بالاجتهاد فى الطلب فمتى كان الطلب بشىء محمود فالابتغاء فيـــه محمود نحو « إبتغاء رحمة من ربك ترجوها » .

وأما ينبغى فتأتى على وجهين أحدهما ما يكون مسخرا للفعل نحو النار ينبغى أن تحرق الثوب والثانى على معنى الاستئهال نحو فلان ينبغى أن

يعطى لغوزه وقوله تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » على معنى لا يتسخر ولا يتسهل له فلسانه ﷺ لم يكن يجرى به(١).

والعوج العطف عن حال الانتصاب وهو بالفتح يقال فيما يدرك بالبصر وبالكسر العوج . يقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة . والأصل يبغون لها لحذف الجار وأوصل بالفعل .

وبذلك استوفت جملة الصلة كل منازع الضلال والإضلال وقد ترقى الأسلوب من بيان منازع الضلال النفسى بإيثارهم الدنيا على الآخرة فقد تربع هذا الضلال فى نفوسهم حتى وصل إلى درجة المحبة والإيثار وصنع ستاراً حجبهم عن الآخرة ثم تجاوزوا هذه الدرجة إلى الإضلال بجانبيه المادى وذلك بصد الناس وصرفهم عن الإيمان . والمعنوى وذلك بإلقاء الشكوك والشبهات وتقول الأباطيل على دين الله ومحاولة إحداث ما ليس فيه .

وقد كانت الأفعال فى الجمل الثلاث مبينة عن هذا الترقى فى العناد من بدايته حتى غايته ومجاوزتهم الحد فى ذلك وكانت مرتبة ترتيباً تصاعدياً : الاستحباب أولا ثم الصد ثانياً ثم البغى ثالثاً ولا شك أنهم قد امتازوا بذلك وأصبحت هذه الأوصاف مجسدة فيهم ومميزة لشخوصهم أكمل تمييز. وقد أشارت جملة الصلة إلى نوع الحكم الذى ينتظر أمثال هؤلاء فكانت الفاصلة استئنافاً معللا لهذه المسالك المشينة والمدارج المبيرة وكأن قائلا قال ما بال الموصوفين بهذه الأوصاف ما مصيرهم ؟ فقال — أولئك فى ضلال بعيد — فوقعت الفاصلة الموقع المحكم .

ولما كان هؤلاء الكافرون قد تجاوزوا الحد فى الضلال والإضلال

---

(١) المصدر السابق .

كان الحكم عليهم فيه من المبالغة ما فيه . فبعد أن ميزوا التمييز المذموم باسم الإشارة بينت الآية أنهم منغمسون فى الضلال وهو محيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف يدل على ذلك الحرف — فى — الموضوع للظرفية الحقيقية واختيرت — فى — دون — على — مثلا للدلالة على كمال تحيرهم وعدم معرفه الطرق الهادية شأنهم شأن من يخبط فى الظلام الحالك ، المفضى إلى التصادم والإنكسار وعدم إمكان الرجوع منه .

وقد نكر لفظ — ضلال — إشارة إلى عظمه وأنه ضلال عظيم قلما ينجو من وقع فى شراكه ثم وصف بالبعد تعميقاً لهذه المبالغة فى الضلال لأن البعد فى الحقيقة إنما هو لصاحب الضلال . وبذلك تتآذر دلالات الأسلوب البلاغية من استئناف وتنكير ومجاز لغوى فى استعارة الحرف ومجاز عقلى فى إسناد ما للشخص إلى المصدر تدليلا على أنهم قد قطعوا شوطاً بعيداً عن الحق .

المعنى الإجمالى لهذه الآيات :

من منطلق رحمة الله تعالى بعبيده أنه لم يتركهم نهباً للاعتقادات الفاسدة والتصورات الباطلة التى أفسدت على الإنسان عقله فأنكر ربه وخالقه وآله ما لا يسمع ولا يبصر فعبد الشمس والقمر والأصنام والأوثان واتجه فى شدته وكربه إلى ما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً وأفسد على الإنسان عاطفة الرحمة وملأ قلبه جبروتاً وقسوة فقتل الأبنـــاء وهتك الأعراض وسلب الأموال واستذل الضعفاء وسخر الفقراء وسلب الإنسان خاصية الإنسان كما أفسد على الإنسان تصوره للحياة فظنها مادة عليها يتهالك ولها يجمع وبشهواتها يلهو . أغضب ذلك الباطل رب السماء ولم ترض الحكمة الإلهية أن يظل الإنسان يكتنفه الفساد من كل جانب فأطلقت نور الحق من السماء على يد محمد بن عبد الله ونزل عليه هذا

الكتاب يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً فكان هدى للبشرية أخرجهم من الظلمات إلى النور وفرقاناً ميزت به بين الخبيث والطيب وعرفت به كلمة الحق فى الألوهية والرسالة والبعث والجزاء وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان وقد أعجز هذا الكتاب أرباب الفصاحة فانقطعوا دونه ولم يجدوا فى معاوضته سبيلا وسيظل إعجازه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأنه المعجزة والمنهج معاً .

ولم يكن القرآن معجزاً بنظمه فحسب وإنما كان معجزاً نفسياً وعلمياً كذلك فقد جاء ليغسل النفوس مما ران عليها من إلف الإعتقاد ورتابة التقاليد وحب الجدل والخضوع المطلق لغير الله تعالى .

وعن طريق التأمل فى الأحياء والحياة واستخلاص المعارف القيمة الخارجة من الأرض أو النازلة من السماء يمكننا أن ندرك طرفاً من عظمة الخالق الأعلى وما ينبغى له من نعوت الكمال ولذلك قيل . إن درساً فى الطبيعة والكيمياء هو صلاة خاشعة وإن سياحة فى عالم الأفلاك هى تسبيح وتحميد(١) .

وبذلك تتناسق آيات الإعجاز بيانياً ونفسياً وعلمياً للدلالة على توحيد الله وألوهيته والخضوع لأمره واتباع رسله ولا عجب فى ذلك فهو رب العالمين الذى شأنه أن يرى خلقه ليرجعوا عليه وأن يعطيهم قبل أن يسألوه بل ويغضب عليهم إذا لم يسألوه .

وقد تجاورت فى الآيات صفات الجمال والجلال لتدفع الناس عن طريق الترغيب والترهيب إلى الخروج من الظلمات إلى النور ومن أهواء

---

(١) نظرات فى القرآن ١٢٣ وما بعدها .

النفوس إلى نور الحق المبين الذى لا يتعدد — وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله وكأن فى هذا تعريضاً بالعواقب الوخيمة التى تنتظر المعرضين الذين لم يجد فيهم هذا التلوين الأسلوبى ثم جاء التصريح بعد التلويح فذكرت الآيات الكثيرة الذين ستروا نعم الله عليهم وأولها نعمة العقل ونعمة الإسلام وتوعدتهم بالعذاب الشديد وشخصت ما كان يعتمل فى نفوسهم من حب عارم للدنيا وإعراض غافل عن الآخرة ووقوف شائن لصرف من ينقادون للفطرة السليمة عن دين الله .

وإذا كان الإسلام قد حارب بنصوصه الكثيرة فكرة التبتل والانقطاع عن الدنيا بالحث على العمل والسعى فى الأرض لعمارتها . فقد حارب كذلك فكرة التكالب على الدنيا وضرب الأمثلة الكثيرة لهؤلاء المتكالبين الذين قطعوا صلتهم بالآخرة فكانت عاقبتهم وخيمة ونهايتهم أليمة وذلك مثل صاحب الجنة الذى قال لصاحبه . أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً فدارت عليه الدائرة ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً .

ومثله قارون الذى ركن إلى دنياه الواسعة وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى كان هو ودنياه طى صحف القضاء العادل .

وأما منهج الإسلام فى سياسة الدنيا فهو يجمع بين حظى الجسم والروح أو بين المادية المهذبة والروحية المهذبة بحيث لا تطغى إحداهما على الأخرى فلا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا ولا سعادته فى الآخرة .

ثم انتهت الآيات ببيان عوامل إضلال من يلبون نداء الفطرة السليمة بمنعهم من الدخول فى دين الله والحيلولة بينهم وبين هذا المنهج الفذ الذى هو عنوان النجاح فى الدنيا والفلاح فى الآخرة .

وهذا هو ديدن الكفرة فى كل زمان ومكان ، تصاب عيونهم بالقذى ويعضون أناملهم من الغيظ إذا رأوا المقبلين على منهج الإسلام على منهج الإسلام فى حب وإكبار — إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وهم يحاولون بكل الطرق أن يصرفوا الفئة المسلمة عن دينها :

وقد يلجأون إلى وسائل خفية أكثر جرما وأقوى خطراً وهى بث سموم الإلحاد واختراع الشبهات والمذاهب الهدامة حول دين الله والمتمسكين به كالعلمانية والبهائية والشيوعية ،

وغير ذلك مما لا يكون له أثر سوى المعارك الكلامية والسفسطة الجدلية وإشغال الشباب المسلم بهذه الفلسفات العقيمة التى تقضى على صرح الجماعة المسلمة وتذهب بكيانها ووحدتها وتبعدها عن الاعتصام بحبل الله المتين .

ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

قال تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » [٤]

تدل مادة الإرسال والرسول — رسل — على الانبعاث على التؤدة ويقال ناقة رسلة أى سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة انبعاثا سهلا ومنه الرسول المنبعث .

وتدل على الرفق فيقال على رسلك إذا أمرته بالرفق والرسول يقال تارة للقول المتحمل كقول الشاعر :

ألا أبلغ أبا حفص رسولا

وتارة لمتحمل القول والرسالة .

والرسول يقال للواحد والجمع . لقد جاءكم رسول من أنفسكم قال إنا رسول رب العالمين وقال الشاعر :

ألكنى وخير الرسول أعلمهم بنواحى الخبر

وجمع الرسول رسل ورسل الله تارة يراد بهم الملائكة وتارة الأنبياء فمن الأول : إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى

ومن الثانى : وما محمد إلا رسول . وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . وقد يكون الإرسال بالتخيير كارسال الريح والمطر ، وقد يكون ببعث من له اختيار كارسال الرسل وقد يكون ذلك بالتخلية وترك المنع كما فى قوله — ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا .

وعلى ذلك فالإرسال المقصود من الآية هو إرسال من له اختيار وهم الرسل وقد ناسب أن يعقبه لفظ — رسول — لأنه من يوحى إليه بشرع ويؤمر بتبليغه .

والآية مرتبطة بما قبلها تمام الارتباط ، فقد ذكرت الآيات الأول نزول الكتاب على الرسول وقد قابله المنكرون باعتراضات كثيرة منها ما كان سبباً فى نزول هذه الآية وهو أن قريشاً قالت ما بال الكتب كلها أعجمية وهذا عربى ؟ فنزلت الآية تتحدث عن لغات كتب الرسل وفى ضمنهم محمد ﷺ كما يدل على ذلك الحرف — من — الدال على الاستغراق وتنكير لفظ — رسول لمناسبة عموم الآية .

واللسان المراد به اللغة مجاز مرسل من باب التعبير عن الحدث بآلته أو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال .

وقوم كل رسول ، الذين هو منهم وبعث إليهم . فقد كانت لغة كل رسالة هى لغة القوم المبعوث إليهم الرسول . ويتلقون عنه بيسر وسرعة ولاتكون لهم حجة على الله . وأما رسولنا فمبعوث إلى الناس كافة كما قال تعالى « قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا »

بل إلى الثقلين ومع ذلك فقد نزل بلسان عربى مبين لأن أولى الألسنة لسان قومه الذين بعث بين ظهرانيهم ولغتهم أفضل وأعم اللغات فى ذلك الوقت فإذا فهموا عنه قامت التراجم ببيانه لغيرهم كما ترى الحال من قيام التراجم فى كل أمة من أمم العجم مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأمم المختلفة والأجيال المتعاقبة على كتاب واحد واجتهادهم فى تعلم لفظه ومعانيه وما يتشعب عن ذلك من جلائل الفوائد ومايتكاثر فى أتعاب النفوس وكد القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ولأنه أبعد عن التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف ولو نزل بألسنة الثقلين مع اختلافها وكثرتها وكان مستقلا بصفة الإعجاز فى كل واحد منها وكلم الرسول كل أمة بلسانها لكان ذلك أمراً قريباً من القسر المنافى للتكليف(١)

وإذا وضح ذلك فلا اعتبار لما زعمته العيسوية — طائفة من اليهود — من اختصاص دعوته بالعرب دون غيرهم وذلك من منطلق أن كل رسول أرسل إلى قومه بلغتهم ومحمد أرسل بلسان العرب فهو خاص بالعرب وحدهم .

وما من شك فى أن هذا الوهم زائل أمام ماوضحناه من قيام الترجمة لغير العرب كما أن النصوص القرآنية الكثيرة تثبت عموم دعوته للناس كافة فى أول السورة — لتخرج الناس — ومثله « وماأرسلناك إلا كافة

---

(١) ينظر الكشاف ٢ / ٣٦٦

للناس بشيراً ونذيراً ، فهذه الزعامات الباطلة تزول إذا علمنا أننا نحن المسلمين مكلفون بتبليغه إلى كل أمة بلسانها عن طريق الترجمة وبذلك نحمل شرف تبليغ الدعوة بعده ﷺ .

وقد برزت الآية فى قالب القصر المعروف — النفى والاستثناء — وهو من أقوى طرق القصر فى توكيد المعانى والرد على المنكرين أو المنزلين منزلتهم .

ومن واقع ملابسات النزول نجد أن المخاطبين كانوا يودون أن يكون القرآن أعجمياً كغيره من الكتب وكأنهم يرفضون عربيته فقلب عليهم أسلوب القصر هذا الذى زعموه واثبت أن إرسال كل رسول لا يكون إلا بلغة قومه وقد نزل بالعربية لأن قومه كذلك وهم وأن كانوا أخص من أهل دعوته ألا أن فى الترجمة غناء ، وهو من قصر الموصوف على على الصفة قصراً إضافيا — قصر قلب —

ثم ذكرت الآية العلة فى إرسال كل رسول بلغة قومه وهى البيان والكشف — لتبين لهم — لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل

وقد سمى الكلام بيانا لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره نحو — هذا بيان للناس كما سمى مايشرح به المجمل والمبهم من الكلام بيانا نحو — ثم إن علينا بيانه —

وبعد أن بين الجزء الأول من الآية قضية اللغة عرض الجزء الأخير منها قضية الضلال والهداية لاتصالها بهؤلاء الضالين المضلين — فيضل من يشاء ويهدى من يشاء — وذلك طبقاً لمشيئته تعالى .

وقد تغير الأسلوب فلم يعطف على سابقه وإنما بدىء بداية استئنافية والفاء فى قوله — فيضل — قيـــل إنهـا فاء الفصيحه مثلها فى قوله

تعالى — فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت — كأنه قيل فبينوه لهم فأضل الله من شاء إضلاله وهدى الله من شاء هدايته حسبما اقتضته حكمته تعالى البالغة ، والحذف للإيذان بأن مسارعة كل رسول إلى ماأمر به وجريان كل من الفعلين على سننه أمر محقق غنى عن الذكر والبيان .

وفى الكشف وجه التعقيب عن السابق كقوله تعالى « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً » على معنى أرسلنا الكتاب للتبيين فمنهم من نفعناه بذلك البيان ومنهم من جعلناه حجة عليه والفاء على هذا تفصيلية .

والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو الدلالة على التجدد والاستمرار .

وتقديم الضلال على الهداية إما لأنه إبقاء ما كان على ما كان والهدايه إنشاء مالم يكن أو لأنه — الضلال — أسرع فى دخول النفس من الاهتداء وإما لمناسبته للمخاطبين لكونهن كذلك»

كما أن هذا الترتيب موافق لقوله السابق من الظلمات إلى النور

وعلى الرغم من أن جملة — فيضل — مستأنفة إلا أنها متصلة بما قبلها اتصالا وثيقاً إذ هى كالفرع المتصل بأصلة والمعنى أن كل رسول أرسل بلسان قومه لحكمة التبيين وقد يحصل أثر التبيين بمعونة الاهتداء وقد لايحصل أثره بسبب الضلال(١)

والضلال هو العدول عن الطريق المستقيم وضده الهداية ، وإذ كان ترك الطراق المستقيم عمداً أو سهوا قليلا أو كثيراً صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منه خطأ ما ولذلك نسب الضلال إلى الأنبياء وإلى

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٨٨

الكفار وإن كان بين الضلالين بون بعيد فقد قال فى حق النبى ووجدك ضالا فهدى — أى غير مهتد لما سبق إليك من النبوة وقال فى يعقوب — إنك لفى ضلالك القديم — أى فى شغفه بيوسف وشوقه إليه وقال فى حق موسى — وأنا من الضالين — تنبيه على أن ذلك منه سهو ويأتى الضلال بمعنى النسيان — أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

والضلال البعيد هو الكفر — أولئك فى ضلال بعيد .

وإضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين :

أحدهما : أن يكون سببه الضلال وهو أن يضل الإنسان فيحكم الله عليه بذلك فى الدنيا ويعدل به عن طريق الجنة إلى النار فى الآخرة .

والثانى : هو أن الله تعالى وضع جبلة الإنسان على هيئة إذا راعى طريقا محمودا كان أو مذموما ألفه واستطابه ولزمه وتعذر صرفه ويصير ذلك كالصبغ الذى يأبى على الناقل ولذلك قيل العادة طبع ثان وهذه القوة فى الإنسان فعل إلهى وإذا كان كذلك وقد ذكر فى غير هذا الموضع أن كل شىء يكون سببا فى وقوع فعل صح نسبة ذلك الفعل إليه فصح أن ينسب ضلال العبد إلى الله من هذا الوجه فيقال أضله الله لا على الوجه الذى يتصوره الجهال .

والهداية الدلالة بلطف وهو ادى الوحش متقدماتها وفى قوله ، فاهدوهم إلى صراط الجحيم — استعملت الهداية بلطف مكان الدلالة بعنف على طريق الإستعارة التهكمية مبالغة فى التقريع والتوبيخ .

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه :

الأول : الهداية التى عم بجنسها كل مكلف من العقل والفطنة والمعارف الضرورية كما قال ، ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

الثانى : الهداية التى جعلها للناس بدعائه إياهم على ألسنة الأنبياء وإنزال القرآن ونحو ذلك وهو المقصود بقوله تعالى — وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا ، أى الدلالة على طرق الخير بوساطة الوحى .

الثالث : الهداية أى التوفيق الذى يختص به من اهتدى وهو المعنى بقوله ومن يؤمن بالله يهد قلبه .

الرابع : الهداية فى الآخرة إلى الجنة كما قوله — سيهديهم ويصلح بالهم

والإنسان لايستطيع أن يهدى أحداً إلا بالدعاء وتعريف الطرق الهادية والدلالة عليها دون سائر أنواع الهدايات ، فحيث اسندت الهداية إلى الرسول فالمراد منها الدلالة على طرق الخير كما فى قوله — وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم — ولكل قوم هاد — وحيث أسندت إلى الله فالمراد منها التوفيق ، كما فى قوله — إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء — وحيث انتفت عن الرسول فالمراد منها أيضا التوفيق .

وكل هداية ذكر الله أنه منعها الظالمين والكافرين فهى هداية التوفيق

والهدى حصه الله بما أعطاه كما قال — هدى للمتقين — أولئك على هدى من ربهم — والاهتداء يختص بما تحـــراه الإنسان على طريق الاختيار إما فى الأمور الدنيوية أو الأخروية — كما قال — وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها — فإن آمنوا بمثل آمنتم به فقد اهتدوا .

ومنه الهدى الذى يختص بالبيت الحرام والهدية التى تختص الإنسان.

والعزيز من عز والعزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرض عزاز أى صلبة — ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين — وتعزز اللحم أى اشتد وعز كأنه حصل فى عزاز يصعب الوصول إليه والعزيز الذى يقهر ولايقهر ، وإذا أضيفت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين فهى صفة مدح

وإذا أضفيت إلى الكفار فهى صفة ذم لأنها تعنى الذل لزوالهما وعدم بقائها قال تعالى : بل الذين كفروا فى عزة وشقاق — وقال ﷺ كل عز ليس بالله فهو ذل .

وقد تستعار العزة للحمية والأنفة المذمومة كما فى قوله — أخذته العزة بالإثم — ويقال — عز على أى صعب كما فى قوله — عزيز عليه ما عنتم — وقيل . من عزيز أى من غلب ساد كما فى قوله — وعزنى فى الخطاب .

والحكيم من حكم وأصله المنع للإصلاح ومنه سمى اللجام حكمة الدابة ، والحكم بالشىء أن تقضى بأنه كذا أو ليس بكذا سواء ألزمت ذلك غيرك أو لم تلزمه والحكمة إصابة الحق بالعلم والعقل ، فالحكمة من الله تعالى معرفة الأشياء وإيجادها على غاية الإحكام ومن الإنسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات كالذى وصف لقمان — ولقد آتينا لقمان الحكمة .

فالكلمتان — العزيز والحكيم — متوافقتان على معنى المنع إلا أن الأولى فى منع الغلبة والقهر والثانية المنع للإصلاح والحكمة ولعل هذا التقارب فى الدلالة هو الذى سوغ اجتماعها فى كثير من الفواصل القرآنية .

وهذه الفاصلة مطابقة لما ذكر قبلها فى الآية الكريمة إذ أن إرسال كل رسول إلى قومه بلغتهم التى يتحقق بها الفهم والبيان لا يكون إلا من عزيز قاهر غالب وإضلال من يشاء وهداية من يشاء لا يكون إلا من حكيم يضع الشىء فى موضعه .

المعنى الإجمالى لهذه الآية :

هذه الآية من متممات نعمة الرسول والرسالة وقد اقتضت حكمة الله أن لا يكلف الإنسان إلا بما فى وسعه لأنه لا معنى لرسالة تأتى بلغة

لايفهمها المخاطبون وإلا ما قامت عليهم الحجة ولا لزمهم العمل بمقتضاها ولا بمتابعة الرسول الذي جاء بها لأن ذلك لا يتـــأتى إلا بالفهم وهو لا يكون إلا بالبيان والكشف ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه أرسل كل رسول بلغة قومه حتى يتلقوا ذلك بالقبول والمتابعة والعمل ، فيهتدى من اهتدى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة .

وعندما أراد الله لشمس الإسلام أن تشرق كان مشرقها فى بلاد العرب على يد محمد بن عبد الله وكان من الطبيعي أن تنزل الرسالة الخاتمة بلغة قومه الذين بعث منهم وبين ظهرا فيهم لأنهم أول المتلقين عنـــه والمستمعين إليه ولذلك نزل بلسان عربى مبين فهى أصلح اللغات جمع معان وإيجاز عبارة وسهولة جرى على الألسن وسرعة حفظ وجمال وقع فى الأسماع وزادها تشريفاً نزول القرآن الكريم بها وقد ورد عن الرسول أحب العربية لثلاث لأنى عربى والقرآن عربى وكلام أهل الجنة فى الجنة عربى وهذا بالطبع يقتضى منا نحن المسلمين أن نضاعف من إهتمامنا باللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم والحديث وهما مرتبطان أشد الإرتباط بعقيدة المسلم وعبادته وتشريعه واقتصاده وفلسفته وحروبه وجهاده وتفاصيل حياته اليومية وخطرات نفسه ولمحات تفكيره وآداب معاشرته لصديقه وزوجه وولده وأهله وعشيرته(١) .

إن اللغة هى الرباط الوثيق بين المسلم ودينه ومجتمعه والذى يمنع البلاد من التفكك هو صهرها فى لسان واحد لسان القرآن والحديث فتتوحد ديناً ولغة وفكراً وتتقارب وجداناً ومشاعر وعواطف .

وما من شك فى أن الاستعمار بكل صوره يضع العراقيل ويثبط الهمم فى سبيل الوصول إلى لغة عربية عالمية كتلك اللغة الإنجليزية التى لم يكن

---

(١) أباطيل وأسمار ٢٣٨

أحد يتصور فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر أنها ستصبح لغة عالمية وإنما كانت كذلك بالسيطرة على التعليم ودور الثقافة والصحف والمجلات والاعلام والهبوط بالفصحى إلى اللغة العامية حتى أصبحت العربية يجد أبناؤها صعوبة فى تعلمها وصارت غريبة فى بلادها والهدف هو الحيلولة بين المسلمين وقرآنهم وهذا ما تقر به أعين الطغاة وتنشرح له صدور المفسدين ولكن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

وفى ظلال هذه الآية يدور حوار بين علماء اللغة فى نشأة اللغة هل هى توقيفية أم إصطلاحية ؟

ذهب كل فريق ينصر ما يراه بالأدلة والبراهين ولست بحاجة إلى بسط هذا الموضوع ولكنى أشير إلى الرأى الأمثل فى هذا وهو أن اللغة ليست توقيفية خالصة ولا إصطلاحية خالصة وإنما بدأت توقيفية كما قال تعالى — وعلم آدم الأسماء كلها — ولما كانت اللغة هى أداة التفكير والبيان والإنسان لم يستقر على وضع ثابت فى الحياة وإنما تطور من زمن إلى زمن ومن جيل إلى جيل وكل جيل له بيئته وثقافته وحضارته فقد اقتضى ذلك أن يفجر الإنسان ما فى كيانه من نعمة البيان واللغة وفاء بضرورة الحياة وما يستجد فى عصورها من معانى حضارية وأدوات صناعية ووسائل تكنولوجية ومصطلحات علمية فيضع لكل من هذه المستحدثات الألفاظ الخاصة بها ومن هنا يمكن القول بأن اللغة بدأت توقيفية وانتهت إصطلاحية .

وبالنسبة لقضية الهداية والضلال يقول الشيخ الغزالى « الواقع أن مشيئة الله حتم ولا يمكن أن يتم إيمان ولا كفر ولا هدى ولا ضلال ولا طاعة ولا معصية إلا بمشيئة الله هذا حق ولكن ما العلاقة بين مشيئة الله ومشيئتك التى قال الله فيها — فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر — العلاقة كشفتها آيات كثيرة مثل قوله تعالى — فلما أزاغوا أزاغ الله قلوبهم —

فأنت تتجه إلى حيث تريد والقدر يكمل لك ماتريد فإذا قال الله يضل من يشاء فليس معنى قوله يضل من يشاء أنه يجىء إلى طالع تائب يريد وجه ربه نشيط فى طاعته فيضله لاهذا جهل لأنه يقول — وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه — ويقول — ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء — فمن تصور أن الله يحدث فى الكون فوضى تسوى بين الصالح والطالح والفاسد والتقى وأن الأمر لاضابط له فهو رجل كذوب على الإسلام وكيف يكون هذا عدلا وهو يقول — إن الله لا يظلم مثقال ذرة .

إن معنى إرادة الله مايحكم هذا العالم من قوانين وما يسرى فى مادته من خصائص بمعنى أن الله عزوجل خلق الهواء وفيه مادة الأكسجين التى تساعد على الاحتراق فلو أشعل رجل النار فى بيت هل يقبل منه اعتذاره بأنه غير مذنب لأن الهواء هو الذى أعان على الحريق ... كلا فالإنسان مكلف بشىء فى يده ومشيئة الله تتمم بيقين ما يبدأ هو به فالإنسان الذى ينوى الصلاة هذه النيه هى حريته وإرادته لكن من الذى يستبقه حيا حتى يذهب إلى المصلى ؟ من الذى يجعل قلبه يدق حتى يصلى ؟ من الذى يستبقى الأرض تحت قدميه حتى لاتنخسف ؟ إنه الله أى إرادته ومشيئته بعد إرادة الإنسان ومشيئته وكذلك الفلاح فى الحقل يضع البذور ويروى الأرض ثم تبدأ القدرة العليا تتمم له ماوضع ولو أن العصاه أحسوا بأنهم دفعوا إلى المعصية دفعا وأنهم غلبوا على إرادتهم رغم أنوفهم ما تمنوا يوم القيامة أن يعودوا إلى الدنيا لتكون لهم حياة أرشد ومنهج أسلم وتقوى أظهر ولقالوا لله إنك أنت السبب ولكنهم لم يجرؤا على هذا لأنهم يعلمون أنهم وقعوا فى المعاصى بإرادتهم واختيارهم فكان حقا على الله أن يضلهم كما قال تعالى — ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء(١) .

---

(١) ينظر خطب الشيخ الغزالى .

قال تعالى :

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . »

قد ذكرت الآيات السابقة أن الكتاب نزله من عند الله على رسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وقد قوبل بالعناد والوقوف فى سبيله والاعتراض على لغته . فجاءت هذه الآية ومابعدها تقدم النموذج والمثال بسيدنا موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل فقد أرسله الله بالآيات الدالة على صدقه وكان الهدف هو إخراجهم من الظلمات إلى النور وبهذا الأسلوب القصصى يستل حقد النفوس ويثبت الأقدام على الطريق المستقيم ويعرفهم بأن محمداً ﷺ لم يكن بدعا من الرسل إذا نزل عليه الوحى وأعلن لقومه أنه جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور فهو لبنة فى صرح النبوة الشامل منذ آدم عليه السلام .

وقد بدئت الآية بلام القسم وحرف التحقيق تأكيداً للأخبار بإرسال موسى عليه السلام وإن كان الخطاب مع منكرى رسالة محمد إلا أنهم نزلوا منزلة من ينكر رسالة موسى عليه السلام لأن حالهم فى التكذيب برسالة محمد يقتضى ذلك التنزيل لأن ما جاز على المثل يجوز على المماثل بل منهم من قال — ما أنزل الله على بشر من شىء(١) .

ولفظ الإرسال يدل على كون موسى رسولا من عند الله وقد أجرى الله على يديه معجزات تدل على صدقه وقد أطلقت لتتناول كل المعجزات التى توجه بها إلى فرعون وقومه من الآيات التسع وآيات

---

(١) التحرير والتنوير ١٨٨

التوراة والباء فى — بآياتنا — للمصاحبة أى إرسالا مصاحبا للآيات الدالة على صدقه فى رسالته كما أرسل محمد مصاحباً لآية القرآن الدالة على أنه من عند الله فقد تم التنظير وانتهض الدليل على المنكرين .

و — أن — فى قوله — أن أخرج — يحتمل أن تكون تفسيرية بمعنى أى لأن فى الإرسال معنى القول دون حروفه أومصدريه أى بأن أخرج حذف قبلها حرف الجر لأن — أرسل — يتعدى بالباء والجار يطرد حذفه قبل — أن — وضعف قول من قال بزيادتها .

وذكرت الآية هدف الإرسال وهو الإخراج من الظلمات إلى النور إلا أن الإخراج هنا ليس فيه العموم مثلما كان فى دعوته ﷺ .

وإنما هو هنا متعلق بقوم موسى عليه السلام — قومك — والظاهر أن قومه هم بنو إسرائيل وقيل القبط فإن كانوا القبط فالظلمات هنا الكفر والنور الإيمان وإن كانوا بنى إسرائيل وقلنا إنهم كلهم كانوا مؤمنين فالظلمات ذل العبودية والنور العزة بالدين وظهور أمر الله وإن كانوا أشياعا متفرقين فى الدين . قوم مع القبط فى عبادة فرعون وقوم على غير شىء فالظلمات الكفر والنور الإيمان(١) .

« وذكرهم بأيام الله »

الذكر ضد النسيان وهو حزبان ذكر بالقلب وذكر باللسان ... والآية تترقى من العام إلى الخاص إلى الأخص فقد تدرجت من الإرسال الذى فسرته بالإخراج من الظلمات إلى النور ثم ذكرت طريقة الإخراج وهو التذكير والإنذار . ولما ضمن التذكير معنى الإنذار والوعظ عدى

---

(١) البحر المحيط ٥/٤٠٦

بالبناء أى ذكرهم تذكير عظة بأيام الله . وهكذا تسلم كل لبنة إلى التى تليها والتالية تشرح وتحدد معنى سابقتها وتلتق معها على أمر قـد قدر وذلك لا يوجد مثله فى لغة البشر ثم ترقت الآية لحددت مواد هـذا التذكير وهى — أيام الله — أى ما وقع فيها من النعم والنقم . فأما نعماؤه فتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وفلق البحر وأما بلاؤه فإهلاك القرون والمراد عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد وإضافة الأيام إلى لفظ الجلالة للإيذان بفخامة شأنها والإشعار — على ما قيل — بعدم إختصاص ما فيها من المعاملة بالمخاطب وقومه وهى تشير من جهة أخرى إلى أن تقلب الأيام بين السرور والحزن والغنى والفقر هى أبلغ إنزار وأكبر واعظ للإنسان .

وختمت الآيه بالاستئناف البيانى المعلل لما سبق — إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور .

وتنكير الآيات للدلالة على كثرتها وعظمها ومعلوم من سياق الآية أن لفظ الآيات فى صدر الآية يعنى المعجزات وفى عجزها يعنى العبر والعظات .

وهـذا التنويع بين دلالة اللفظ وترتيب معناه على الوضع السابق منسجم مع سير الدعوة إلى دين الله حيث تبدأ الدعوة بالمعجزات ثم يستبين منها أهل الإيمان العبر والعظات .

وقـد أعتبر التذكير ظرفا لهذه العظات باعتباره المبين لها والمظهر لأنواعها وذلك بدلالة الحرف — فى ذلك .

وقد يدنت من ينتفع بهـذا التذكير عن طريق اللام الداخلة على

لفظ العموم — لكل — ثم خصصت صفتين تحديد المسار هذا العموم فى الإطار الذى جعلته موردا للتذكير وهو النعم والنقم . وهاتان الصفتان هما — صبار شكور — ومتعلق الصبر هو البلاء ومتعلق الشكر هو النعم وهذه المتعلقات مضمنه فى — أيام الله .

والصبر حبس النفس على ما تكره إبتغاء مرضاة الله . والشكر هو تصور النعمة وإظهارها . وتدور مادته حول الإمتلاء يقال عين شكرى أى ممتلئة وناقة شكرى - ممتلئة الضرع باللبن .

والشكر ثلاثة أضرب .

شكر القلب وهو تصور النعمة وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه(١) .

وقد وضعت الصفتان على صيغة المبالغة — فعال — إشارة إلى أن الذى ينتفع بالآيات هو من علا كعبه فى هاتين الصفتين . فكان كثير الصبر وكثير الشكر . وقيل المراد لكل مؤمن على طريق الكناية وتخصيصه بهاتين الصفتين للإشعار بأن الصبر والشكر عنوان المؤمن الدال على ما فى باطنه .

وعلى القول بأن الصفتين عبارة عن معنيين يكون تقديم الصبر على الشكر لاتساع دائرة البلاء وتقدمه على النعمة ولأن توفية الصبر أيسر من توفية الشكر ولذلك قيل ابتلينا بالضراء فصبرنا وإبتلينا بالنعماء فلم نشكر ولم يثن على أحد بالشكر مثل إبراهيم قال فى حقه — شاكرا لأنعمه — وقال فى نوح — إنه كان عبداً شكورا .

---

(١) مفردات الراغب

وبذلك ترسم كلمات الآية صورة هذه الأحداث التى تبدأ بالإرسال وتمر بالإخراج من الظلمات إلى النور عن طريق التذكير بنعم الله ونقمه ثم تنتهى عند أكمل درجات الإيمان بالصبر والشكر .

المعنى الإجمالى لهذه الآية :

قد بينت هذه الآية طريق بعث الأنبياء إلى الناس وأنه بعث من قبل الله عز وجل رحمة بعبيدة وإصلاحا لفسادهم ومداواة لعللهم ومنجاة لهم من السوق إلى جهنم ، فهو عز وجل الذى بعث محمدا وأنزل عليه الكتاب وهو الذى بعث موسى عليه السلام وأنزل عليه التوراة . فليست الرسالات مختلقة من عند الرسل كما يزعم المنكرون ويتقول المعترضون ويرجف المرجفون ولكنها وحى من عند الله يوحيه إلى أهل الإصطفاء والعبقريه .

ولئن كانت العبقرية إمتداداً فى موهبة واحدة أو فى جملة مواهب . فإن النبوة إمتداد فى المواهب كلها واكتمال عقلى وعاطفى وبدنى وعصمة من الدنيا ورسوخ فى الفضائل وعراقة فى النبل والفضل .

هم الرجال المصابيح الذين هم
كأنهم من نجوم حية صنعوا
أخلاقهم نورهم من أى ناحية
أقبلت تنظر فى أخلاقهم سطعوا

وقد لفتت هذه الآية إلى دقائق تستشف من واقع النظم . فتصديرها بالمؤكدات الدالة على أن الرسل كحبات اللؤلؤ أو اللبنات المكونة لصرح مشيد يخدش إحداها أو إنكارها إنكار للجميع وذلك يدل

على وحدة الوحى الدال على وحدة العبودية أمام الواحد المعبود الذى تعنو له الوجوه وتؤمن به القلوب وتسلم له الجوارح وكان الهدف واحدا وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور وأما التعديل والإضافة فى الرسالات فلحاجة الزمن ومتطلبات الجيل المرسل إليهم لكن اللب والجوهر واحد وكما قال الله — إن الدين عنـــد الله الإسلام — وكلمة الإسلام بمعناها القرآنى لا تدع مجالا للتساؤل عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية.

فالإسلام فى لغة القرآن ليس إسما لدين خاص وإنما هو اسم للدين المشترك الذى هتف به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء.

فنوح عليه السلام قال — وأمرت أن أكون من المسلمين — ١٠/٧٢ ويعقوب يوصى بنيه — فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون — ٢/١٣٢ — وأبناء يعقوب — قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إله واحدا ونحن له مسلمون.

وموسى قال — ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين — ١٠/٨٤ — والحواريون يقولون لعيسى عليه السلام — قالوا آمنا بالله وأشهد بأنا مسلمون — ٣/٥٢

بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن — قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين — ٢٨/٥٣

وهكذا نرى الأسلام شعارا عاما يدور فى القرآن ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية حتى عصر النبوة المحمدية ثم نرى القرآن يجمع كل هذه القضايا كلها فى قضية واحد يوجهها إلى قوم محمد ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينــا جديدا وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه الإية ٤٢ (١)

ولكن كلمة الإسلام أصبح لها فى عرف الناس مدلول معين هو مجموع الشرائع والتعاليم التى جاء بها محمد وكذلك كلمة اليهودية تختص بشرائع موسى وكلمة النصرانية تختص بشريعة عيسى عليه السلام .

ومعلوم أن الكتب السماوية يصدق ويؤيد بعضها بعضا . فالأنجيل مصدق ومؤيد للتوراة والقرآن مصدق ومؤيد لهما بل ومهيمن على ما بين يديه من الكتب . ومع هذا التصادق لم يقتصر اللاحق على تجديد السابق وإنما حدث تعديل فى بعض الأحكام . فعيسى أحل لبنى إسرائيل بعض الذى حرم عليهم ومحمد جاء ليحل للناس كل الطيبات ويحرم عليهم كل الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

ولكن يجب أن يعلم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقصا للمتقدم ولا إنكار لحكمة أحكامة فى إبانها ذلك أن التشريعات على نوعين .

الأول : تشريعات خالدة لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع .

الثانى : تشريعات موقوته بآجال طويله أو قصيرة وهذه تنتهى بأنتهاء وقتها وتجىء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئه .

ومن واقع هذين النوعين تستمد البشرية لسعادتها .

١ — عنصر الأستمرار الذى يربط حاضر البشرية بماضيها .

---

(١) النبأ العظيم بتصرف

٢ — عنصر الإنشاء والتجديد الذى يعد الحاضر للتطور والرقى اتجاها إلى مستقبل أفضل وأكمل (١) .

ولعل تخصيص موسى عليه السلام بالذكر لأنه نبى مجرب بوقفاته الطويلة والمتعددة إزاء عناد بنى إسرائيل ولأن أمته أكثر الأمم بعد الأمة المحمدية ومع ضعف القلة المؤمنة وكثرة الفئة الكافرة كانت العاقبة للمتقين — وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون — وفى ذلك تسلية لمحمد أيما تسلية .

وقد أيده الله بمعجزات كثيرة عبرت عنها كلمة — الآيات — السابقة وهى :

١ — الجدب
٢ — نقص الثمرات .
٣ — الطوفان .
٤ — الجراد .
٥ — القمل .
٦ — الضفادع .
٧ — الدم .
٨ — الطمس على الأموال ومحقها .
٩ — اليد يضعها فى جيبه ويخرجها بيضاء من غير سوء .
١٠ — قلب العصا حية تسعى .

ويجب أن يفرق بين الرسالتين الموسوية والمحمدية من ناحيتين .

الأولى : أن معجزات موسى عليه السلام غير منهجه وذلك بخلاف القرآن الكريم فهو المعجزة والمنهج معا .

---

(١) ينظر التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام ٧٥

الثانية : أن رسالة موسى لقومه وأما رسالة محمد فهى للناس كافة

وذلك يدل على كونه أشرف المرسلين إذن أن الرسول فى قبيلة محدودة أفضل منه الرسول لمدينة فيها مائة ألف أو يزيدون . وأفضل منه الرسول لشعب بأسره وصاحب الكتاب المستقل أفضل ممن يحكم بشريعة سابقة ولا نزال نرقى فى مراتب الكمال والعظمة ولا نزال نحلق صعدا نحو القمة ولا نزال نقطع أشواطا بعد أشواط فى مداوج الكمال البشرى حتى نصل إلى مستوى تنحسر دونه أبصار العباقرة مهما طمحت وتتطامن عنده أقدار الأنبياء مهما عظمت لنجد صاحب الرسالة العظمى إلى خلق الله قاطبة ملتقى الفضائل المشرقة ومظهر المثل العليا التى صورتها الخيالات ثم صاغها الله إنسانا يمشى على الأرض مطمئنا . ذلكم هو محمد بن عبد الله.

كيف ترقى رقيك الأنبياء ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساوك فى علاك وقد حال سنا منك دونهم وسناء(١)

والذى يريد أن يحظى بهذا التشريف والتعظيم لابد له من الصبر على البلاء وأن يلهج لسانه بشكر الله عند الرخاء.

قال الله تعالى :

« وإذ قال موسى لقومه أذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم «٦» .

« إذ » منصوبة على الظرفية أو المفعولية بفعل مضمر خوطب به النبى ﷺ أى أذكر لهم وقت قوله عليه السلام لقومه — أذكروا نعمة الله...

---

(١) ينظر عقيدة المسلم ٢١٨

وتعليق الذكر بالوقت لأنه محله . والظرف متعلق بنفس النعمة إن جعلت مصدرا بمعنى الإنعام أو بمحذوف وقع حالا منها إن جعلت أسما أى أذكروا إنعامه عليكم أو نعمته كائنة عليكم .

و « إذ » فى قوله — إذ أنجاكم ... يجوز أن يتعلق بالنعمة أيضا على تقدير جعلها مصدرا أى أذكروا أنعامه عليكم وقت إنجائكم ، ويجوز أن يتعلق بكلمة — عليكم — إذا كانت حالا . أى أذكروا نعمة الله تعالى مستقرة عليكم وقت إنجائكم .

قد أخبر الحق تبارك وتعالى فى الآية السابقة بإرسال موسى إلى قومه وأمره أن يذكرهم بأيام الله » وهذه الآية من باب التفصيل لما أجمل فى قوله — أيام الله — فقد عددت هذه الآية النعم والنقم التى تقلب بنو إسرائيل فيها جذبا لهم إلى دائرة الإيمان وتوضيحا إلى أخذ العبرة والعظمة من تداول الأيام .

وقد بدأت الآية بذكر النعم لأن النفوس إليها أرغب والقلوب إليها أميل ولأنها أدعى إلى الشكر المذكور فى نهـــاية الآية السابقة وبذلك تتواصل الآيات ويزداد ترابطها .

ولا شك أن نعم الله على بنى إسرائيل كثيرة مثل تظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وفلق البحر وغير ذلك ولكن الآية أتجهت إلى تخصيص نعمة الإنجاء من آل فرعون لأنهـــا من أكبر النعم وأعظمها لتعلقها بالشرف والنفس والجسد والذرية وتلك أمور يبذل الإنسان فى سبيلها النفس والنفيس من أجل أستبقائها والحرص عليها ما أستطاع ذلك سبيلا .

وبعد ذكر نعمة الإنجاء جاءت الجملة التالية تبين مما كان الإنجاء؟ فقال يسومونكم سوء العذاب — وهى تحتمل الإستئناف البيانى رداً على ما يقوم فى الذهن من الجملة الأولى أى ماذا كانوا يصنعون فيهم؟ فيقل — يسومونكم . . .

وتحتمل الحالية من — آل فرعون —

وقد تتابعت الجمل معطوفة بالواو — ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء ربكم عظيم — لأنها لمطلق الجمع.

وقال ابن مالك :

فاعطف بواو سـابقاً أو لاحقاً
فى الحكم أو مصاحباً موافقـاً

ولما كان الغرض تصوير النقم التى أنزلها فرعون بهم جاء التعبير عنها بالأفعال المضارعة — يسومون — يذبحون — يستحيون — لاستحضار صورها الفظيعة وأخطارها الشنيعة وكأنها ماثلة أمام العيون يشاهدونها فترتعد فرائصهم من معانيها، فيكون ذلك أدعى إلى الشكر، وزاد الأمر تفصيلا لهذه النقم دخول الواو على جملة — ويذبحون — إعلاماً بأن التذبيح لشدته وصعوبته نوع خاص من سوء العذاب،

ويسومونكم . . أى يبغونكم من سامه خسفاً إذا أولاه ظلما وأصل السوم كما قال الراغب الذهاب فى ابتغاء الشىء فهو لفظ مفرد لمعنى مركب من الذهاب والإبتغاء وأجرى مجرى الذهاب فى قولهم، سامت الإبل فهى سائمة ومجرى الإبتغاء فى قولهم سمت كذا.

والسوء مصدر ساء وهو كل ما يغم الإنسان من الأمور الدنيوية

والأخروية ومن الأحوال النفسية والبدنية والخارجة من فوات مال وجاه وفقد حميم .

فالمراد هنا جنس العذاب السيء كاستعبادهم واستعمالهم فى الأعمال الشاقة والقذرة وغير ذلك .

وكلمة — الأبناء — إما يراد بها الأطفال وهو المشهور وإما يراد بها الرجال وذلك من باب المجاز باعتبار ما كانوا عليه ، وتشديد بنية الفعل — يذبحون — دلالة على التكثير فزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى وإيقاع التذبيح على الأبناء فيه امتهان لهم وأنهم كالحيوانات التى تذبح .

واستحياء النساء أى استبقاؤهن أحياء وهذا وإن كان نعمة فى نفسه إلا أنه بالمقارنة بتذبيح الأبناء عد من جملة النقم ولذلك قيل .

ومن أعظم الرزء فيما أرى
بقاء البنات وموت البنينا

لأنهن حينئذ يعشن حياة ذليلة قوامها الإهانة والإستعباد وقد يكرهن على البغاء ، وكلمة — النساء — إما يراد بها البنات وإما يراد بها البالغات وإما يراد بها المرأة، فهى على الوجه الأول مجاز باعتبار ما يصرن إليه وعلى الثانى من باب التغليب وعلى الثالث من باب الحقيقة .

وهاتان الجملتان — يذبحون — يستحيون — جمعت ألوان العذاب بشقيه العدمى والإيجابى عن طريق هذه المقابلة بين هذين الفعلين وبين معموليهما — الأبناء والنساء — وقد تعلق التعذيب بالعنصرين اللذين عليهما قوام الحياة.

العنصر الأول : الذى يتمتع بالقوة والجلد ويقف فى وجه الطغاة وهم الذكور وكان نصيبه من التعذيب أن تزهق أرواحهم .

والعنصر الثانى : الذى لا حول له ولا قوة على مواجهة أنصار الباطل وهم النسوة وكان نصيبهن من العذاب أن يستبقين أحياء بالمهانة والإستبعاد فالنقمة حاصلة بكل أبعادها بتصنيف العذاب على كلا النوعين الذكور والإناث فى ناحيتى الموت والحياة .

وزاد أسم الإشارة — وذلكم — ما تقدم من ذكر النعم والنقم تشخيصا واستحضار وكان ذلك مناسبا لختام الآية حيث كان التركيز فى كون ما تقدم « بلاء » أى ابتلاء منه تعالى لأن البلاء هو عين تلك الأفعال إذ الإبتلاء كما يكون بالنعمة يكون بالنقمة كما قال تعالى : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » .

وقال زهير :

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم
فأبلاهما خـــير البلاء الذى يبلو

وقد أعقبه بكون هذا البلاء « من ربكم » إشارة إلى أنه ابتلاء مقصود به التربية والنفع لأنه ممن يتولى تربيتكم على أكمل وجوه التربية ، فيقبلكم بين حلو الحياة ومرها ويسلط عليكم فرعون ويبعث موسى عليه السلام ليخلصكم من بطشه حتى تلتفتوا إلى شكر ربكم الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير ،

وتنكير كلمة « بلاء » إشارة إلى تنوعه وكثرته ووصفه بكلمة عظيم للدلالة على أن كل نوع فى نفسه عظيم وهذا العظم وتلك الفخامة إنما هى بالنظر إلى المخاطب والسامع لا بالنسبة لله تعالى لأن العظيم لا يستعظم شيئاً »(١) .

---

(١) روح المعانى ١/٢٥٤

وبذلك تتلقى أطراف الآية إلتقاء محكماً إذ تستفتح بالعام ثم تأتى التفصيلات ثم تختم بألفاظ تدل على العموم لتدل على خطر المتقدم وشفاعة أمره .

وبالتأمل فى الآيات المتشابهات نجد أن « الواو » طرحت من آية البقرة فى قوله تعالى : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ٤٩ ،

وكذلك من آية الأعراف « وإذا أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم » ولكنها أى — الواو — ثبتت هنا لأن السياق هو الذى أدى إلى هذا التنويع حيث كان السياق فى معرض الإمتنان العام الوارد من الله عز وجل طرحت الواو واتصلت الجمل اتصالا معنوياً عن طريق كمال الإتصال الجارى على سبيل البدل . فمن شيمة الكريم أنه إذا أمتن عمم فى كلامه ويدل على أن الكلام وارد من الله مباشرة صدر الآيتين — وإذ نجيناكم وإذ أنجيناكم — ولكن فى سورة إبراهيم نجد أن الكلام وارد على لسان موسى فى معرض التذكير وتعداد النعم وذلك يقتضى التفصيل ، فجاءت الواو فى قوله — ويذبحون — لتدل على أن التذبيح لون آخر من العذاب السىء وليس تفسيراً وشرحاً له كما فى آيتى طرح الواو .

فطرح الواو فى معرض الإمتنان العام الوارد من الله تعالى وإثبات الواو فى معرض الإمتنان التفصيلى الوارد من سيدنا موسى عليه السلام .

وأما عطف جملة — ويستحيون نساءكم — فى الآيات الثلاث فلأن مضمونها باستقلاله لا يصلح لبيان سوء العذاب(١).

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/١٩٢

المعنى الإجمالى لهذه الآيه :

جاءت هذه الآية مفصحة عن سمة التذكير الذى أمر به موسى فى الآية السابقة فارتبطت بها غاية الإرتباط فأخذت تعدد النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل والنقم التى وقعوا صرعى رحاها من فرعون وآله ليتعلم الناس أن الحياة يومان يوم لك ويوم عليك — وتلك الأيام نداولها بين الناس — والمؤمن هو الذى يأخذ العبرة والعظه من تقلبات الأيام ويعلم أن كل شىء عنده الله بمقدار فهو الذى يحيى ويميت ويغنى ويقنى ويضحك ويبكى وما على الإنسان السارب فى الحياة إلا أن يصبر على البلاء ويشكر على الرخاء ليحظى بالثواب فى الدارين ويفوز بالحسنيين .

كما تقرر الآية أن أهل الطغيان إذا لاحت النذر بزوال ملكهم وتدمير عروشهم فإنهم يسلكون كل السبل فى سبيل استبقاء حياتهم حتى ولو كان تذبيح الأبرياء واستعباد النساء هو المنفذ إلى غايتهم وذلك ما حدث من فرعون عندما خاف على ملكه من موسى عليه السلام.

وهذا شأن الطغاة فى كل الأزمان والأصقاع إذا لاحت بوارق الأمل تهب نسماتها على الأمم الضعيفة تثور ثورتهم ويقضون على الأخضر واليابس لأنهم أحرص الناس على حياة .

وما أشبه الليلة بالبارحه إنهم كانوا يذبحون الأبناء واليوم يقتلونهم بالسموم البيضاء وتتضافر جهود جبارة لاغداق الهروين والكوكايين وغير ذلك من الحبوب المفترة والمسكرة على شباب الأمة الإسلامية لصرفهم عن الطرق الجاده التى رسمتها لهم عقيدتهم ثقافيا واجتماعياً واقتصادياً وسياسياً فيعيشون حياة العجز والكسل والجبن والبخل وغلبة

الدين وقهر الرجال فلا تسمح لهم كلمة ولا ترفع لهم رأس ولا يقوى لهم سلطان ولا تقوم لهم وحدة بل ويرسبون فى امتحانات الحياة المستمرة وتلفظهم سفينة الحياة إذ لا مكان فيها لضعيف وذلك هو البلاء العظيم فإذا أرادت الأمه الإسلامية أن تكون من العالم بمنزلة الرأس من الجسد فعليها أن تعبىء القوى وتجند الجنود لإفساد تلك الخطط الإستعمارية وأن تضرب أعناق المدمنين ومن ييسر لهم طـــرق الإدمان حتى يسلم شباب الأمة ويصح نفسياً وجسدياً فتستقيم به الحياة وينهض بأمته فى كافة المجلات التى ترفع شأنها وتعز مكانتها .

قال الله تعالى « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد » ٧—٨

هذه الآية يجوز عطفها على نعمة الله أى اذكروا نعمة الله عليكم واذكروا حين تأذن ربكم ويجوز عطفها على — إذ أنجاكم — أى اذكروا نعمته تعالى فى هذين الوقتين فإن هذا التأذن أيضاً نعمة من الله عليهم لما فيه من الترغيب والترهيب الباعثين إلى ما ينالون به خيرى الدنيا والآخرة .

واللام فى — لئن موطئة للقسم وداخلة على شرط وإذا اجتمع الشرط غير الإمتناعى والقسم حذف جواب المتأخر منهما إستغناء بجواب المتقدم كما قال ابن مالك :

واحذف لدى اجتماع شرط وقسم
جواب ما أخـــرت فهو ملتزم

ولذلك ذكر جواب القسم — لأزيدنكم — مؤكداً باللام . وكل موضع استغنى فيه عن جواب الشرط لا يكون فعل الشرط فيه إلا ماضى

اللفظ أو مضارعاً مجزوماً بلم نحو — ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله — ونحو — لئن لم تنته لأرجمنك (١) .

وقد استغنى عن جواب الشرط بجواب القسم فى قوله ـ لئن شكرتم ـ وأما فى — لئن كفرتم — فقد سدت جملة — إن عذابى لشديد — مسد الجواب لأنها أعم وأوجز من لأعذبنكم عذاباً شديداً ولإفادة الوعيد بضرب من التعريض إذ من شأن الكريم أن يصرح بالوعد ويعرض بالوعيد .

والإذن والآذان لما يسمع ويعبر بذلك عن العلم إذ هو مبدأ كثير من العلم فينا والمؤذن كل من يعلم بشىء نداء — فأذن مؤذن بينهم — وأذن فى الناس بالحج — والإذن فى الشىء إعلام بإجازته والرخصة فيه(٢) .

وتأذن — تفعل من الإذن وهو بمعنى آذن أى أعلم والتأذن مبالغة فى الآذان ... كما يقال توعد وأوعد وتفضل وأفضل ففى صيغة تفعل زيادة معنى على صيغة أفعل ولما كان هذا الفعل مفيداً للتأكيد أجرى مجرى القسم والشكر هو تصور النعمة وإظهارها ويضاده الكفر وهو نسيان النعمة وسترها وقيل أصله من عين شكرى أى ممتلئة . فالشكر على هذا هو الإمتلاء من ذكر المنعم عليه ، والشكر ثلاثة أضرب . شكر القلب وهو تصور النعمة وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم وشكر سائر الجوارح وهو مكافأة النعمة بقدر ما تستحق قال تعالى — اعملوا آل داود شكراً — ولم يقل — اشكروا لينبه على الإلتزام بالأنواع الثلاثة .

---

(١) حاشية الصبان ٤/٣٠
(٢) مفردات الراغب — أذن .

والكفر فى اللغة ستر الشيء ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص والزارع لستره البذر فى الأرض فيقال للفلاح كافر . وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك آداء شكرها وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة . والكفران فى جحود النعمة أكثر إستعمالا والكفر فى الدين أكثر والكفور فيهما جميعاً .

والغنى على ضروب . أحدها . عدم الحاجات وليس ذلك إلا لله تعالى وهو المراد من آيات كثيرة — فإن الله لغنى حميد .

الثانى — قلة الحاجة وهو المشار إليه بقوله — ووجدك عائلا فأغنى .

الثالث — كثرة القنيات بحسب ضروب الحاجات كقوله — ومن كان غنياً فليستعفف والغانية المستغنية بزوجها عن الزينة أو بحسنها عن التزين — وتغنى بمعنى استغنى وعليه حمل قوله عليه الصلاة والسلام — من لم يتغن بالقرآن فليس منا .

والحمد لله تعالى الثناء عليه بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه ولا تشكره على صفاته ومنه الحديث — الحمد رأس الشكر ما شكر الله عبد لا يحمده وإنما كان رأس الشكر لأن فيه إظهار النعمة والإشادة بها ولأنه أعم منه فهو شكر وزيادة .

وأما كون الحمد أخص من المدح فلهذه الأمور .

١ — أن الحمد يختص بالثناء على الفعل الإختيارى لذوى العلم والمدح يكون فى الإختيارى وغيره . فقد يمدح الإنسان بطول قامته وصباحة وجهه كما يمدح ببذل ما له وسخائه وعلمه ولذوى العلم وغيرهم كما يقال مدحت اللؤلؤة على صفاتها .

٢ — أن الحمد يشترط صدوره عن علم لا ظن وأن تكون الصفات المحمودة صفات كمال والمدح قد يكون عن ظن وبصفة مستحسنة وإن كان فيها نقص ما .

٣ — أن فى الحمد من التعظيم والفخامة ما ليس فى المدح وهو أخص بالعقلاء والعظماء وأكثر إطلاقاً على الله تعالى .

٤ — أن الحمد مأمور به شرعاً والمدح قد يكون منهياً عنه كما فى قوله عليه الصلاة والسلام . احثوا التراب فى وجوه المداحين .

فكل حمد مدح وليس كل مدح حمداً ويقال فلان محمود إذا حمد ومحمد إذا كثرت خصاله المحمودة ومحمد إذا وجد محموداً وقوله عز وجل — إنه حميد مجيد — يصح أن يكون فى معنى المحمود وأن يكون فى معنى الحامد .

نظرات فى نظم الآيتين :

والآيتان من تمام ما ذكر به موسى قومه . فقد ذكرهم بالنعم التى انتشلتهم من وسط النقم فى الآية السابقة . ولما كانت النعم تستدعى الشكر والشكر يستدعى الزيادة وأن الإغفال عن ذلك كفر والكفر مصيره العذاب الشديد وأن ثواب الطاعة وعقاب الكفر لا يعود منه شىء على الله تعالى وإنما منفعته وضرره يعود على العابد . فقد جاءت الآيتان ناظمة هذه المعانى فى قوالبها اللفظية على أبلغ ما يكون الأداء تصدرت بالفعل — تأذن — الدال على الإعلام التام الذى تنتفى معه الشكوك وتنزاح الشبه كما دل بصيغته على زيادة المعنى المفضية إلى التأكيد وزاد من تأكيده إسناده إلى — ربكم — الذى من شأنه إذا قال فقد صدق وإذا حكم فقد عدل فلا ريب فى إعلامه ولا شبهة تحوم حول كلامه

وبعد هذا التصدير الدال على الإعلام جاء المعلن عنه فى صورة جملتين شرطيتين الأولى — عن الشكر وزيادة النعم وبيان أن زيادة النعم مشروطة بتوالى الشكر للمنعم.

والفعل المضارع — لأزيدنكم — يدل بوضعه على الحال والإستقبال وذلك يدل على أن هذه الزيادة يحتمل أن تكون فى الدنيا والآخرة.

وقد تناسق نظم الآية مع الآية قبلها حيث ذكرت الأولى النعم ثم النقم وطابت إليهم أن يذكروا هذه الأيام وما فيها من النعم والنقم وهذه الآية ترسم طريق استمرار هذه النعم وهو الشكر كما تبين أن الكفران هو قاطع استمرار هذا العطاء وقد قدم الشكر على الكفران لتقدم سببه وهو النعم. ليحصل التماثل والتناسق بين الآيات.

ومن منطلق أن رحمة الله سبقت غضبه نجد أنه تعالى صرح بالوعد فى باب الشكر — لأزيدنكم — وعرض بالوعيد فى باب الكفران فلم يقل — لأعذبنكم عذابا شديداً — وإنما جاءت كلمتان تلوحان بالوعيد للمخاطبين وقد حشدتا بالمؤكدات — إن واسمية الجملة واللام ووصف العذاب بالشدة وقد بلغ أقصى درجات الشدة بإضافته إلى ياء المتكلم — إن عذابى لشديد — فهو عذاب من لا تأخذه رأفة ولا رحمة بالمذنبين —.

ثم بينت الآية التالية أن أثر الشكر والكفر يعود على العابد ولا يعود على المعبود منه شيء ألبته وذلك لقطع الخواطر الشيطانية التى ربما تدور فى أذهان الكفرة عندما يحسبون أنهم بإيمانهم يحسنون إلى الله وأنهم بكفرهم يضرونه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — بل إن الآية وسعت دائرة ذلك المعنى حتى شمل المخاطبين ومن فى الأرض جميعا وعللت لهذا الحكم — فإن الله لغنى حميد — بهذه الجملة المؤكدة بإن واسمية الجملة واللام أى أنه تعالى لا يتضرر بذلك وإنما الضرر يقع على من كفر لأنه تعالى

مستوجب للحمد بذاته لكثرة ما يوجبه من أياديه وإن لم يحمده أحد بل كل ذرة من ذرات العالم ناطقة بحمده . ومن أجل الإهتمام بهذا المعنى مستقلا جيء به فى حيز القول معطوفا مع أنه من كلام موسى عليه السلام وللإشعار بأنه ليس مما تأذن به الرب جل وعلا فى الآية السابقة .

وقد كانت فاصلة الآية تكثيفا محكما لما سبق تقريره فى الآية من ذكر الشكر وضده والنعم وضدها . فهو غنى عن شكر الخلق وحميد . مستوجب للحمد بذاته وإن لم يحمده أحد . لكثرة نعمه .

وتخصيص — إن — الشرطيه فى قوله — إن تكفروا — دون — إذا — مع أن الكفر واقع ومقطوع به للدلالة على أن هذا الكفر لا ينبغى أن يكون إلا على سبيل الشك والتردد وأما الأصل فهو الإيمان الذى ينسجم مع الفطرة السوية فكأن هذه الجملة التى تصف الواقع وتشخص أحوال المعاندين هى فى حقيقة الأمر دعوة إلى نبذ هذا الكفر الذى يحجب العقل عن الإيمان ويستر شكر الإنسان عن الواحد الديان فلفظ الكفر موحى بالإيمان لأنه يستر نداء الفطرة وهتاف الضمير للواحد الأحد .

يقول الشيخ محمد الشعراوى « واعلموا أن لفظ الكفر مؤمن . الكفر نفسه مؤمن لأنه فى لفظه أنه ستر شيئا وما دامت كلمة الكفر أنه لا إله تبقى سترت إله ... يبقى إذن اللفظ التوحيدى يدل على الإيمان واللفظ المقابل أيضا يدل على الإيمان ... »(١) .

---

(١) هذا هو الإسلام ٦١

المعنى الإجمالي :

قد بينت الآيتان قانون زيادة النعم والخيرات وهو شكر الله عز وجل على هذه النعم ومن أولى هذه النعم نعمة الهداية للإيمان واتباع الرسل وعدم التفرقة بينهم . إذ أن الإسلام هو النعمة الكبرى التي تجلى الله بها على عباده ليخرجهم من الظلمات إلى النور ومن التردد إلى اليقين ومن عبادة الخلق إلى عبادة الخالق . ومن واجب الإنسان في كل زمان ومكان أن يلهج لسانه بالثناء على الله عز وجل على كل نعمة تحل في نفسه أو ولده أو أهله .

وقد بين الرسول ﷺ أن متاع الحياة الدنيا إنما يقاس بالكيف وليس بالكم فقال « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

وكلما توالى شكر المخلوق توالت زيادة النعم ومضاعفاتها من الخالق وبذلك يصبح الشكر هو إكسير الحياة ومددها ونماؤها ورخاؤها وأمنها وأما التنكر لفضل الله والكفر بهـــا وسترها فإن ذلك يمحق البركة وتستحيل نعمه إلى نقم تنزل بساحات الناس فيطول ليلهم وتضطرب أحوالهم وتسود آمالهم وتكبر آلامهم وتذهب ريحهم .

وما شاعت الرشوة ولا انتشرت السموم البيضاء ولا عاش الشباب حياة القلق والإلحاد إلا بالبعد عن سبل الشكر لله تعالى والاعتراف بنعمه الكثيرة في الصحة والمال والعلم .

وقد ظن بعض الناس أن هذه الصروح الحضارية في مختلف مجالات الحياة وليدة العقل البشري دون توفيق الله ومشيئته وتمنطقوا بمنطق قارون — إنما أوتيته على علم عندي — ولذلك رأينا صاحب المال الذي

لايخرج زكاته وصاحب القوة الذى يتسلط على الضعفاء وصاحب اللسان الذى يتزلف ويمتع بالحظوة فاختلت الأمور واعتلت وكان الجفاف وغلو الأسعار وضعف الوازع الدينى وغياب الضمير الإسلامى . وبات الإنسان فى القيد الحديدى الذى صنعه لنفسه — إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم — ومار بك بظلام للعبيد — مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما »

قال الله تعالى :

« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلاالله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب»(٩)

الإتيان . مجيء بسهولة ومنه قيل للسيل المار على وجهه أتى والاتيان يقال للمجيء بالذات وبالأمر وبالتدبير ويقال فى الخير والشر وفى الأعيان والأعراض كقوله تعالى :

—أتى أمر الله —

النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة ، وحق الخبر الذى يتصف بذلك أن يتعرى عن الكذب كالتواتر وخبر الله تعالى وخبر النبى عليه الصلاة والسلام .

قال تعالى — عم يتساءلون عن النبأ العظيم — قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون —

ومنه النبوة وهى سفارة بين الله وبين ذوى العقول من عباده لإزاحة علتهم فى أمر معادهم ومعاشهم — والنبى يصح أن يكون فعيلا بمعنى فاعل

(٥ — سورة إبراهيم)

لقوله تعالى — نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم — وأن يكون بمعنى المفعول — نبأنى العليم الخبير .

وتنبأ فلان ادعى النبوة وكان من حق لفظه فى وضع اللغة أن يصح استعماله فى النبى إذ هو مطاوع تبأ كقوله — زينه فتزين وجمله فتجمل لكن لما تعورف فيمن يدعى النبوة كذباً جنب استعماله فى المحق ولم يستعمل إلا فى المتقول فى دعواه كقولك تنبأ مسيلمة — والنبأة الصوت الخفى .

والنبى من النبأ ولذلك فأصله أن يهمز وقال بعض العلماء إنه من النبوة أى الرفعة لرفعة محله عن سائر الناس كما قال تعالى — ورفعناه مكانا عليا ولكنه بغير الهمزة أبلغ من النبىء بالهمز لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل وأيضاً المهموز يستعمل بمعنى الطريد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال — يا نبىء الله — لست نبىء الله ولكن نبى الله .

والقوم الجماعة من الرجال والنساء جميعا وقيل هو للرجال خاصة دون النساء ويقوى ذلك قوله تعالى ولا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، وقال زهير :

وما أدرى وسوف إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

وسمى الرجال بذلك لأنهم قوامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها — الرجال قوامون على النساء — .

وقال الراغب وفى عامة القرآن يراد بلفظ القوم الرجال والنساء جميعا والبينات جمع بينة وهى الدلالة الواضحة عقلية كانت أو حسية والبيان الكشف عن الشيء وهو أعم من النطق مختص الإنسان ويسمى ما بين به بيانا وقال بعضهم — البيان يكون على ضربين — :

أحدهما : بالتنجيز وهو الأشياء التى تدل على حال من الأحوال من آثار صنعته .

والثانى : بالإختيار وذلك إما أن يكون نطقا أو كتابة أو إشارة فما هو بيان بالحال — فأتونا بسلطان مبين — أى بين فى الحال .

وما هو بيان بالإختيار — فأسلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون بالبينات والزبر، ويسمى ما يشرح به المجمل والمبهم من الكلام — بيانا — ثم إن علينا بيانه .

والرد : صرف الشيء بذاته أو بحالة من أحواله يقال رددته فارتد فمن الرد بالذات — ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه — ومن الرد إلى حالة كان عليها وإن يردك بخير فلا راد لفضله — .

وإلا رتددك والردة — الرجوع فى الطريق الذى جاء منه لكن الردة تختص بالكفر والإرتداد يستعمل فيه وفى غيره .

نظم الآية :

جاءت هذه الآية مصدرة بالإستفهام التقريرى الذى يجعل المخاطب يتنبه إلى حاله ويفكر فى أمر الإجابة التى ينتزعها من داخله فيثير حواسه للنظر والإعتبار بأحوال السابقين وهذا منزع تربوى يقصد إليه القرآن فى كثير من المواطن الحاسمة التى تتطلب الإقناع والحجة ولا شك أن الإقناع الداخلى أقوى من الإلزام الخارجى الذى يمليه الآخرون وقد تمثل الشعراء هذا الأسلوب فقال جرير .

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ولما كان المقام مقام تذكير بالأمم السابقة فقد ترق النظم من ضرب المثل بإرسال موسى عليه السلام إلى هذه الأمم التى انتشرت أخبارها بينهم مثل نوح عليه السلام فقد ذاع أمره وشاع بحادث الطوفان وأما عاد وثمود فكانوا يمرون على ديارهم فى رحلتى الشتاء والصيف . ففى جنوب الجزيرة كانت توجد ديار الأحقاف وفيها عاد وفى الشمال كانت ديار ثمود ، وقد ذكر القرآن فى أكثر من موضع قصصهم مع أنبيائهم

ومواقفهم من دعوة التوحيد وكيف حل بهم الخراب والدمار لما كفروا برسلهم كما أن آثارهم شاهدة عليهم . فليست هناك صعوبه فى التعرف على أحوالهم لأخذ العبرة والعظة ولذلك كان اختيار الفعل — يأتكم — دقيقا فى موضعه إذ هو يعنى المجىء بسهولة وفيها من المنافع العظيمة والفوائد الجليلة حيث تجعل الإنسان يتعرف على مواطن الخير ومزالق الشر فيلوذ بالأولى وينأى عن الثانية ولذلك عبر عن هـــذه الأخبار بالنبأ لعظمتها وهدايتها إلى معرفة الله عز وجل .

وقد فصلت الآية بجمل — الذين من قبلكم — بقولها — قوم نوح وعاد وثمـود — متبعة الترتيب الزمنى فى الوجـود فبدأت بنوح عليه السـلام فهو أول أنبيـاء الله إلى الأرض كما أن دعوته فيها شبه العموم لهلاك الظالمين وإنجاء المؤمنين وثنت بعاد وثمـود مع ملاحظة التوزيع الجغرافى فعاد فى الجنوب وثمود فى الشمال .

وقد نصت الآية على هؤلاء الأقوام مع قرب غيرهم إليهم للإشارة إلى أن إهلاكه تعالى الظـالمين ونصرة المؤمنين قانون الله الذى لا يتخلف فى خلقه فمن آمن فله الجزاء الأوفى ومن كفر فعليه السخط فى الدنيا والآخرة (١) .

ثم أجملت الآية أبناء الجم الغفير من الأمم السابقة بقولها — والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله — وسواء كان الموصول معطوفا على السابق وجملة — لا يعلمهم إلا الله — اعتراضية أو كان الموصول مبتدأ وهـذه الجملة خبر والجملة من المبتدأ والخبر اعتراض فإنها تدل على كثرة البالغة التى لا يمكن أن يحيط بها حصر وإنما مرد علم ذلك إلى الله عز وجـل كما تفصح جملة القصر أى قصر صفة العلم على الله تعالى قصر حقيقيا تحقيقا ولعل مجىء هـذا المعنى فى قالب النفى والاستثناء لأن الخطاب مع

---

(١) ينظر روح المعانى ١٣/١٩٢ .

المنكرين وقد فهم بعض الصحابة من هذا الأسلوب كذب من يدعى علم الأنساب لأن الله نفى علمها عن العباد .

ولما كان المعنى من هذه الأخبار هو بيان موقفهم من دعوات الرسل دون باقى أحوالهم المعيشية — جاءت الجملة التالية شارحة كيفية هذا التلاقى بينهم وبين الرسل على طريق الإستئناف البيانى — جاءتهم رسلهم بالبينات — ومجىء الرسل إليهم بالحجج والبراهين القاطعة كان هو المرحلة الأولى لبيان هذه المواقف ثم كانت المرحلة الثانية وهى ذكر مواقفهم من هذا المجىء — فردوا أيديهم فى أفواههم — وعطف هذه الجملة بالفاء إشارة إلى مسارعتهم إلى هذا الرد وهو يوحى بحماقتهم وقلة تعقلهم وتفكرهم وتذكرهم فيما جاء به الرسل وتصديرها بالفعل — رد — يدل على تكرار هذا الموقف منهم ولذلك قال الراغب واستعمال الرد فى ذلك تنبيها أنهم فعلوا ذلك مرة بعد أخرى ...(١) .

ومعلوم أن تكرار هذا لا يكون إلا بتكرار دعوة الرسل لهم فكأن هذا الفعل — رد — يدل على كثرة الدعوة من جانب الرسل وعلى كثرة العناد من جانب هؤلاء الأقوام .

وقد اختلفت صور العناد من قوم إلى قوم ولذلك جاء التعبير عنه بهذه الجملة — فردوا أيديهم فى أفواههم — وهى ذات ثراء دلالى شامل لمواقف الرسل والمعاندين جميعا ولذلك اعتبرها البعض من مبتكرات الأسلوب القرآنى(٢) .

فبالنسبة لمواقف الكافرين نجدها قد كشفت عن نفسياتهم وأبانت عن دواخلهم لأن معنى — ردوا أيديهم فى أفواههم — ليس مقصودا به المعنى الأول وهو أفعال الجوارح وإنما ليتوصل من خلال ذلك إلى

---

(١) مفردات الراغب — رد —

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٩٦ .

المعنى الثانى وهو المقصود من هذه الحركات الظاهرة التى تفضى بدورها إلى المعنى الثانى . وأول ما يلقانا من هذه المعانى الثوانى . هو :

الغيظ والضجر من شدة نفرتهم من الرسل كما قال تعالى — وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ —

والثانى — هو الضحك والسخرية من كلام الرسل كما يفعل من غلبه الضحك فرضع يده على فيه .

والثالث — أنهم فعلوا ذلك مشيرين إلى الرسل أن كفوا عن هذا الكلام واسكتوا عن ذكر هذا الحديث .

والرابع — أنهم أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم معلنين عن قولهم — إنا كفرنا بما أرسلتم به أى أن هذا هو الجواب وليس عندنا غيره اقناطا لهم عن التصديق —

أما بالنسبة لدلالتها على مواقف الرسل . فإن الرسل لما أيسوا منهم فعلوا ذلك إعلاما لهم بالسكوت عن هذا الحديث .

وقد ذكر بعض العلماء وجوها أخرى ومنهم من حمل — الأيدى — على النعم لأن الرسلات من أعظم النعم وإطلاق الأيدى على النعم مجاز مشهور وردها يعنى تكذيبها وعدم قبولها (١) .

وقد تطور هذا الرفض من جانب الكفار إلى الإعلان الصريح بالقول — وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم — وكان النظم مسايرا للدلالة المقصودة فحيث كان الغرض إبراز ما فى النفس من معانى الرفض والغيظ جاء التعبير بأسلوب الكناية إذ أن لها دلالتين ظاهرة وخفية وهى المقصودة .

(١) ينظر الرازى ٩١/١٩ .

وحيث كان الغرض التصريح بما استقر فى الإعتقاد جاء التعبير بفعل القول الذى يعنى إعلان اللسان عما استقر فى الجنان إذ أن القول يطلق على المركب المنطوق وعلى الإعتقاد نحـــو فلان يقـول بقـول أبى حنيفة .

وتأكيدا لكفرهم صدرت الجملة بـ — إن — وأعيد الضمير المسند إليه — إنا كفرنا — مع ما فى الأفعال الماضية من دلالة على تحقق الوقوع ثم حددوا جهة كفرهم — بما أرسلتم به — أى أن كفرهم انصب وتعلق بالذى جاءت به الرسل وقد سموا ما كفروا به مرسلا به تهكما بالرسل(١) لأنهم لا يعتقدون فى الرسول ولا فى الرسالة .

وبعد أن بلغ العناد أقصاه بهذا التصريح عادوا مرة أخرى إلى منطلقهم النفسى وهو الشك والتردد المؤكد أى لا سبيل إلى الإقرار والتصديق على أقل الاحتمالين — الكفر والشك فإن لم نجزم بالكفر فلا أقل من أن نكون شاكين — وإنا لفى شك مما تدعوننا إلى مريب — والشك فيما جاءت به الرسل كفر هو الآخر وذهب بعضهم إلى أن طائفة قالت بالكفر وأخرى قالت بالشك ولكن القولين يؤولان إلى نتيجة واحدة وهى الرفض المنبىء عن الكفر وقد جمعوا فى سبيل إعلان هذه النتيجة بين القول والفعل .

وسواء كانت هذه من مقول موسى عليه السلام أو من تتمة كلامه عز وجل — لئن شكرتم — أو ابتداء كلام لمحمد عليه الصلاة والسلام رجع به الخطاب إلى المشركين من العرب على طريق الإلتفات — ألم يأتكم — بعد الحديث عنهم بالغيبة فى قوله — وويل للكافرين — فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ففيه لفت لأنظار المعاندين فى كل زمان ومكان إلى العظة والإعتبار بأحوال السابقين .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ١٩٧

المعنى الإجمالى :

تبين هذه الآية أنه لا عذر لمعتذر بعد أن قص علينا القرآن نبأ هذه الأمم وبين بالأخبار الصادقة والتاريخ المشاهد أن الله رحيم بخلقه يرسل إليهم من ينير لهم السبل ويمنعهم من التخبط فى أودية الضلال ولكن الإنسان خصيم مبين فوقف من هؤلاء الرسل موقف المعاند ومن هذه الرسالات موقف الرافض وقد فصلت آيات أخرى هذه المواقف بداية بداية من إرسال الرسول إلى القوم وعرضه الدعوة عليهم ثم بيان المواقف المزرية التى وقفوها تجاه دعوته وأخيراً إهلاك الظالمين ونجاة المؤمنين وذلك واضح فى سورة الأعراف من الآية رقم ٥٩ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ... ثم ذكرت عاداً وإلى عاد أخاهم هوداً — ٦٥ — ثم ثمود — وإلى ثمود أخاهم صالحاً ٧٣ والأمر كذلك فى سورة هود فقد بدأت بذكر نوح عليه السلام فى الآية رقم ٢٥ ثم توالى الحديث من عاد فى الآية رقم ٥٠ وثمود فى الآية رقم ٦١ إلى آخر هذه القصص التى تعلن عن نهاية الحق والضلال — لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب — .

وقد أجملت الآية موقف الكافرين عند ماجاءتهم الرسل بالبينات فالمقام ليس مقام تفصيل وإنما هو التأكيد على أن إرسال محمد ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ليس بدعا وإنما هو شأن الله فى تربية خلقه فعندما يقف فى وجهه المعاندون فليس ذلك بغريب وإنما تلك شيمة الكافرين مع سائر المرسلين وفى ذلك تسلية لرسولنا عليه الصلاة والسلام ولكل مصلح وداعية للحق وإلى طريق مستقيم عليهم أن يصبروا ويصابروا فى إعلان الحق والاستهانة بالصعاب .

لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى

فما انقادت الآمال إلا لصابر

ولا ييأس لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون — وكان حقاً علينا نصر المؤمنين — .

وهكذا تبليغ الرسالات وطريق الدعوة والدعاة .

قال الله تعالى :

« قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى . قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين » ١٠

فطر : أصل الفطر الشق طولا وقد يكون على سبيل الصلاح مثل — السماء منفطر به — إشارة إلى قبول الإيداع وقد يكون على سبيل الفساد — وفطرت الشاة حلبتها وفطرت العجين إذا عجنته فخبزته من وقته ومنه الفطرة وفطر الله الخلق وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال وقوله — فطرة الله التي فطر الناس عليها — إشارة منه تعالى إلى إبداعه وما ركز في الناس من معرفته تعالى فالمادة - فطر - تدور حول الإبداع والإيجاد وإحداث الذوات .

السموات : جمع سماء وسماء كل شيء أعلاه فكل ما علاك سماء قال الشاعر .

وأحمر كالديباج أما سماؤه فريا وأما أرضه فمحول

وقال بعضهم : كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فإنها سماء .

والسماء المقابل للأرض مؤنث وقد يذكر ويستعمل للواحد والجمع قال تعالى : — ثم استوى إلى السماء فسواهن — إذا السماء انفطرت — ووجه ذلك أنها كالنخل من الشجر وما يجرى مجراه من أسماء الأجناس الذى يذكر ويؤنث ويخبر عنه بلفظ الواحد والجمع .

والأرض الجرم المقابل للسماء وجمعه أرضون ولم تأت مجموعة فى القرآن ويعبر بها عن أسفل الشىء .

الصد والصدود قد يكون انصرافا عن الشىء وامتناعا — يصدون عنك صدوداً وقد يكون صرفا ومنعاً — وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل ، والصد من الجبل ما يحول والصديد ما حال بين اللحم والجلد من القيح وضرب مثلا لمطعم أهل النار ـ ويسقى من ماء صديد ـ .

العبودية إظهار التذلل والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل والخشوع ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى ولهذا قال — ألا تعبدوا إلا إياه — والعبادة ضربان .

عبادة بالتسخير وعبادة بالاختيار وهى للإنسان وهى المأمور بها فى قوله — اعبدوا ربكم — .

والعبد يقال على ثلاثة أضرب .

الأول — عبد بالإيجاد وذلك ليس إلا لله وإياه قصد بقوله — إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً — .

الثانى — عبد بحكم الشرع وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه نحو — العبد بالعبد — .

الثالث — عبد بالعبادة والخدمة والناس فى ذلك نوعان :

الأول : عبد لله مخلصاً وهو المقصود من قوله — نزل الفرقان على عبده — .

الثانى — عبد للدنيا وأعراضها وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها وهو المقصود من قول النبى صلى الله عليه وسلم ـ تعس عبدالدينار وعبد

الدرهم تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش — فالناس كلهم عبيد لله بحكم الخلق والإيجاد وأما العباد فهم الذين يتنازلون عن اختيارهم لمراد الله فى افعل ولا تفعل .

وجمع العبد المسترق عبيد وجمع العبد العابد عباد .

سلطان مبين : السلاطة التمكن من القهر يقال سلطته فتسلط قال تعالى — ولو شاء الله لسلطهم — ويقال لذى السلاطة — سلطان وهو الأكثر وسميت الحجة سلطان لما يلحق من الهجوم على القلوب .

فالمادة تدور حول سلطان الحجة والإقناع أو القهر والتسلط .

نظم الآية :

قد بينت الآية السابقة موقف الكافرين الصريح فى أنهم بين الكفر والشك وكان من الطبيعى أن يستفسر عن موقف الرسل منهم فكانت هذه الآية - قالت رسلهم - واردة على سبيل الاستئناف البيانى وكان سؤالهم من جنس ما أنهى به الكافرون موقفهم وهو الشك - أفى الله شك - ؟ بهذا الاستفهام الإنكارى بدخول همزة الاستفهام على المشكوك فيه وهو لفظ الجلالة — الله — دون الشك لأن الإنكار ليس فى الشك وإنما فيمن لا يكاد يتوهم فيه الشك أصلا فالكلام على تقدير مضاف أى فى وحدانية الله ووجوده ووجوب الإيمان به شك وقد خص لفظ — الله — دون غيره لأنه اسم الله الأعظم الدال على صفة التفرد بالإلهية التى هى محل الشك من الكافرين وإذا توجه الإنكار إلى الشك فإنه ينسحب إلى ما هو أعظم منه بطريق أولى وهو الكفر فكأن هذا الإنكار توجه إلى الأمرين معاً الكفر والشك .

وكان رد الرسل بهذا الإستفهام المجازى أبلغ من النفى الصريح فلو قالوا — ليس فى الله شك — لم يكن له مؤدى هذا التركيب لهذه الفروق .

١ — أن محض المعنى فى الإستفهام الإنكارى التنبيه على الخطأ بخلاف النفى الصريح .

٢ — استمالة المخاطب بعرض خطئه فى صورة السؤال بما يجعله أقرب إلى العدول عن خطئه وهذا غير موجود فى النفى الصريح .

٣ — فيه إنكار المحال على سبيل الإستفهام بطريق التمثيل وندرة ذلك فى النفى الصريح كقولك — أتنقل الجبال ؟ أتصعد إلى السماء ؟ وعليه قوله — أفأنت تسمع الصم ؟ (١) .

ثم أتبع لفظ — الله — بالوصف الدال على وجوده — فاطر السموات والأرض كدليل مادى يبرهن على وجود الخالق تبارك وتعالى لاستحالة إبداع هذه المخلوقات على هذا النسق العجيب وهذا الصنع الدقيق من غير الصانع المختار وذلك تأييد لانكار وقوع الشك فى انفراده بالألوهية لأن انفراده بالخلق يقتضى انفراده بالعبادة من مخلوقاته (٢) .

ومعلوم أن الدليل المادى ألزم فى الحجة وأوقع فى الإقناع من الدليل النظرى ولذلك قدم على لاحقه المنتزع من دائرة الوجدانيات ، وجاءت الجملة الثانية — يدعوكم — تستثير عواطف هؤلاء الكافرين بدعوتهم إلى الإيمان ليغفر لهم الله ماسلف من ذنوبهم ، مصدرة بهذه الدعوة الكريمة ومتبوعة بما يحرص عليه الكافرون أشد الحرص وهو تأخير موتهم إلى

---

(١) دراسات فى أساليب الإنشاء ٧٧

(٢) التحرير والتنوير ١٣/١٩٩

وقته المعلوم عند الله ولايعاجلهم بعذاب الإستئصال إن لبوا نداء الإيمان وذهب ابن عباس إلى أن المعنى يمتعكم فى الدنيا باللذات والطيبات إلى الموت ولا مانع من إدارة المعنيين — تأخير الأجل والتمتع والآية بذلك تلبى قوة التفكير وقوة الوجدان فى النفس الإنسانية والبيان القرآنى هو البيان التام الذى يفى لك بهاتين الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فيؤتيها حظها من الناحية العقلية والمتعة الوجدانية معا وتلك سمة انفرد بها أسلوب القرآن فلقد عرفنا كلام العلماء والحكماء وعرفنا كلام الأدباء والشعراء فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا علوا فى جانب وقصورا فى جانب وأما أن أسلوبا واحدا يتجه اتجاها واحدا ويجمع بين يديك هذه الطرفين معا — إقناع العقل وإمتاع العاطفة . . . فذلك ما لا تظفر به فى كلام البشر ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية فمن لك إذا بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ذلك الله رب العالمين فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان وأن يخرج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان وأن يخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين وهذا هو ما تجده فى القرآن الكريم (١) .

وحقيقة الدعاء هو النداء فأطلق على الأمر والإرشاد مجازا ، ويعدى فعل الدعاء إلى الشىء المدعو إليه بحرف الإنتهاء غالبا وهو — إلى — نحو قوله تعالى — وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار — .

---

(١) النبأ العظيم ١١٣ بتصرف .

وقد يعدى بلام التعليل داخلة على ماجعل سببا للدعوة فإن العلة تدل على المعلول كقوله تعالى — وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم — أى دعوتهم إلى سبب المغفرة وهو الإيمان — ونظيره هذه الآية .

وقد يعدى فعل الدعوة إلى المدعو إليه باللام تنزيلا للشيء الذى يدعى إلى الوصول إليه منزلة الشيء الذى لأجله يدعى كقول الشاعر :

دعوت لما نابنى مسورا فلبى فلبى يدى مسور

وحول — من — قال الزمخشرى « ما معنى التبعيض فى قوله — من ذنوبكم — قلت ما علمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين كقوله — واتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم — يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم — وقال فى خطاب المؤمنين — هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إلى أن قال يغفر لكم ذنوبكم وغير ذلك مما يقفك عليه الإستقراء وكأن ذلك للتفرقة بين الخطابين ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد وقيل أريد أن يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها (١) .

وذكر البيضاوى فى وجه التفرقة بين الخطابين ماملخصه أنه لما ترتبت المغفرة فى خطاب الكفرة على الإيمان لزم فيه — من — التبعيضية لإخراج المظالم لأنها غير مغفورة وأما فى خطاب المؤمنين فلما ترتبت على الطاعة واجتناب المعاصى التى من جملتها المظالم لم يحتج إلى — من — لاخراجها لأنها خرجت بما ترتبت عليه (٢) .

---

(١) البيضاوى ٣٦٤ وروح المعانى ١٣/١٩٨

(٢) الكشاف ٢/٣٦٩

وذهب آخرون إلى القول بأنها زائدة أو للبيان أو للبدل أو للتبعيض المراد منه الجميع توسعا .

ولما كان الأمر مدار جدل وحوار بين الرسل والكافرين جاءت جمله — قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا — على طريق الاستئناف البيانى وبذلك تتواصل الآيات وتتعانق الجمل تعانقا خفيا دون عطف على سنن الإتصالات المعنوية وقد سيقت هـذه الجملة فى قالب القصر بالنفى والاستثناء .

وإذا كانت طبيعة المعنى المعبر عنه بهذا الطريق هو الإنكار أدركنا مدى التلاقى والإنسجام بين المعنى المعبر عنه وبين هذا القالب الأسلوبى إذ أن هؤلاء الكفرة ينكرون رسالة هؤلاء الرسل فقصروهم على البشرية فظاهرها هذا القصر ولكن المقصود هو إنكار أن يكونوا رسلا لأنهم يعتقدون أن الله لا يرسل بشرا وما دام الرسل يصرون على ادعاء الرسالة فكأنهم عند القوم ينكرون البشرية .

فالمعول عليه هنا ليس هو حال المخاطب التنزيلى كما فى آية — وما محمد إلا رسول — وإنما هو حال المتكلم واعتقادة فى المخاطب يعنى حال المخاطب كما يتصورها المتكلم وكما يراها فالرسل عليهم السلام لم ينكروا بشريتهم ولم يكن منهم ما ينافى الإقرار بالبشرية وإنما كان منهم ذلك عند المتكلمين فالرسل ليسوا منزلين عند المتكلمين منزلة من ينكر البشرية وإنما هم عندهم منكرون البشرية لأن من يدعى الرسالة فقد أنكر البشرية وهذا عندنا أقرب وأشبه بالمعنى .

وقول الرسل فى جوابهم — إن نحن إلا بشر مثلكم — لا وجه فيه للنفى والاستثناء لأن من وجه إليهم هذا الكلام لا ينكرون قصرهم على البشرية بل إنهم يدعون ذلك وإنما جيء به من باب مجاراة الخصم أى

التسليم له بمقدمته التى رتب عليها نفى الرسالة عنهم لينقض ما رتبه الخصم عليها بعد التسليم بها فإذا كانوا قد رتبوا على بشرية الرسل نفى الرسالة عنهم فإن الرسل يقرون لهم بالبشرية ثم يقولون لا مانع من أن نكون بشرا وأن نكون رسلا لأن الله يمن على من يشاء من عباده فالبشرية أهل لهذه المنزلة عند الله وليست من الأوصاف الدون التى تنافى تلقى كلمة الله وتبليغها إلى خلقه وإنما هى عندنا أجل وأكرم — الجواب هنا فى الحقيقة يدور حول منزلة الإنسان عندمن كفر وعندمن آمن فالكافرون لا يدركون فى الإنسان أهليته لخطاب الحق والتلقى عنه والمؤمنون ينزلون الإنسان منزلة سامية ويؤكدون أنه لا منافاة بين البشرية والرسالة ثم إن الرسل لما قالوا — إن نحن إلى بشر مثلكم — لم يسلموا لهم مقدمتهم بمعناها وفحواها فحسب وإنما بألفاظها وأنغامها وتراكيبها كما نطق بها الخصم وكما دار بها لسانه من غير أدنى تغيير وفى هذا ما يؤنس نفوسهم ويستميلها نحو سماع الحجة وهـــذا من أرفع أساليب الحوار والإنصاف (١) .

وفى سبيل تأكيد البشرية من كل وجه جىء بكلمة — مثل — الدالة على التسوية التامة .

وبعد إنكار الرسالة اتهموا الرسل بقولهم — تريدون أن تصدونا عما كان يعبـــد آباؤنا — أى ليس مقصودكم إلا أن نكون لكم تبعاً ونترك ما نشأنا عليه من دين آبائنا . وكأن الحق تبارك وتعالى أجرى على ألسنتهم المقصود من بعثة الرسل من حيث لا يشعرون فما هو حق جعلوه اتهاما وما هو ظاهر وواضح يطلبون الحجة عليه — فأتوا بسلطان

(١) دلالات التراكيب ١٠٧ وما بعدها .

مبين — وهذا هو غاية العناد والمكابرة — وقد تنكر العين ضوء الشمس من رمد .

المعنى الإجمالى :

تشير هذه الآية إلى أن أصحاب الدعوات الهادية لا يتمنطقون بالمنطق النظرى الذى يتافع به كثير من المغرضين فى ترويج بضاعتهم الكاسدة وإنما يرفعون دعوتهم مدعومة بالأدلة والبراهين التى تثبتها ويستثيرون العواطف لامتاعها بهذه الحقائق الخالدة .

وقد أرتنا هذه الآية الجانبين معاً من خلال جواب الرسل ومنطق الكافرين .

فقد شفع الرسل دعوتهم بالأدلة التى تزيل شك الكافرين ولم يلجأوا إلى الأدلة المعقدة وإنما ذهبوا إلى البدهيات التى يدركها الإنسان بفطرته ويهتدى إليها بطبيعته وهو كونه فاطر السموات والأرض .

فالناظر فى الكون وآفاقه والمادة وخصائصها يعرف أنها محكمة بقوانين مضبوطة شرحت الكثير منها علوم الطبيعة والكيمياء والنبات والحيوان والطب وأفاد الناس منها أجل الفوائد .

والنظر المتأمل فى كيفية رفع السماء بغير عمد والكواكب السيارة المنطلقة فى مداراتها لا تخطىء ولا تسقط ولا تزيغ ولا تصطدم ، من الذى هيمن على نظامها وأشرف على مدارها ؟ بل من الذى أمسك أجرامها الهائلة ودفعها تجرى بهذه القوى الفائقة ؟ إنها لا ترتكز فى علوها إلا على دعائم القدرة ، ولا تطير إلا بأجنحة أعارها لها القدر الأعلى .

وهذه الأرض المدحوة على وضع يهيء للحياة وللأحياء الاستقرار فيها وبما وضع فى بطونها من معادن شتى وعناصر متنوعة تمكن الإنسان من الترقى فى حياته ، وتطوير مجتمعاته . من الذى صنع كل هذا على أتم صنع وأحكم خلق وأدق تقويم — قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون — .

— إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفوراً — .

فالعقل الذكى والفكر الواعى يقود الإنسان حتما إلى الاعتراف بوجود الخالق .

وبذلك يضرب مقولة — خلق العالم بالصدفة — بأقوى معول وبأشد ديناميت . إذ أن الفوضى عاجزة عن خلق — جزىء — فى جسم دودة حقيرة فضلا عن جهازها الهضمى والعصبى ، فما بالك بهذا الكون الرهيب ؟ بل فما بالك بهذا الإنسان الذى انطوى فيه العالم الأكبر . ولذلك كانت معرفة الله مركوزة فى كل طبع ... يلج بها كثير من العلماء والفلاسفة الذين لم يدخلوا فى نطاق الرسالات الأولى أو لم تبلغهم آيات القرآن الكريم .

فأرسطوا يقول « هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو الذى لم يترك فيه شيء للمصادفة بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية وتلك الغاية متجهة إلى أعلى منها .

وهكذا يتم الوصول إلى غايه نهائية منفردة وحيدة . . . إن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ومن المستحيل إدراكه بالحواس .

وقال — هرشل — إنه كلما اتسع نطاق العلوم تحققت كثرة الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقة وعلماء الأرضيات والهيئة والطبيعيات والرياضة يهيئون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء معبد العلوم إعلاء لكلمة الخالق .

وقال « سبنسر » إننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقه متعالية عن الإدراك وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنتها .

وقد استفتت مجلة — كوليرز — عدداً كبيراً من علماء الذرة والفلك والبيولوجيا والرياضة فأكدوا أن لديهم أدلة وقرائن كثيرة تثبت وجود كائن أعظم ينظم هذا الوجود ويرعاه بعنايته ورحمته وعلمه الذى لا حد له .

فلا ريب فى وجـــود الله — قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ؟(١) .

ثم كان الدليل الثانى دعوة كريمة إلى المغفرة وتأخـــير الأجل وهذا فيه مافيه من إغراء الهمم وإثارة العواطف نحو المسارعة إلى الدخول فى حظيرة الإيمان وهـذا هو منطق الرسل فى الدعوة إلى الله منطق يقوم على الحجة والبرهان ولكن أهل الكفر والعناد ينقلون الحوار من القول الفصل إلى الكلام الهزل ويحتجون بالبشرية والجنس بناء على اعتقادهم وتقليد عارم لما عليه الآباء والأجداد — وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا .

---

(١) ينظر عقيدة المؤمن ٢٣ وما بعدها بتصرف .

قال الله تعالى :

قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المومنون وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون »١١ — ١٢

المن . ما يوزن به ويقال لما يقدر ممنون كما يقال موزون والمنة النعمة الثقيلة ، ويقال ذلك على وجهين :

أحدهما : أن يكون ذلك بالفعل فيقال من فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة وعلى ذلك قوله — يمن على من يشاء — لقد من الله على المؤمنين — وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله تعالى .

والثانى : أن يكون ذلك بالقول وذلك مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة ولقبح ذلك قيل المنة تهدم الصنيعة ولحسن ذكرها عند الكفران قيل إذا كفرت النعمة حسنت المنة وقول الله تعالى « يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم » فمنهم بالقول ومنة الله عليهم بالفعل .

والمن أيضاً الإطلاق بلا عوض كما فى قوله — فإما منا بعد وإما فداء .

ويقال للإنفاق من — هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب .
وقوله — لهم أجر غير ممنون — أى غير مقطوع ولا منقوص .

وقيل للمنية منون لأنها تنقص العدد وتقطع المدد والمنة بالقول من

هذا المعنى لأنها تقطع النعمة وتقتضى قطع الشكر ومنه — ولا تمنن تستكثر ، فقد قيل هو المنة بالقول وذلك أن يمتن به ويستكثره .

وقوله — وأنزلنا عليكم المن والسلوى — قيل المن شيء كالطل فيه حلاوة والسلوى ، طائر وقيل هما بالذات شيء واحد سماه منا لأن الله امتن به عليهم وسماه سلوى لأنه كان لهم به تسلية .

والمشيئة من الله الإيجاد ومن الناس الإصابة .

والتوكيل أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك والوكيل فعيل بمعنى المفعول .

قال تعالى : — وكفى بالله وكيلا — أى اكتف به أن يتولى أمرك ويتوكل لك وعلى هذا — حسبنا الله ونعم الوكيل — .

والتوكل يقال على ضربين — يقال توكلت لفلان بمعنى توليت له ويقال وكلته فتوكل لى وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته . وتوكل القوم إذا اتكل كل على الآخر .

نظرات فى النظم :

ما زالت الآيات تحكى الحوار بين الرسل والكافرين وهو حوار متسلسل تسلسلا عجيبا وفريدا بداية بأساس القضية وهو وجود الله عز وجل ونهاية بخيبة كل جبار عنيد . وأكثر ما نراه فى التنزيل من لفظ قال مفصولا هو من باب الاستئناف البيانى كما ذكر عبد القاهر فالجمل مترابطة والآيات متصلة .

وقد أعاد الرسل لهم نفس مقولتهم بألفاظها وقالبها — إن نحن إلا بشر مثلكم — وهو جواب بطريق القول بالموجب في علم آداب البحث وهو تسليم الدليل مع بقاء النزاع ببيان محل الإستدلال غير تام الإنتاج وفيه أطماع في الموافقة ثم كر على استدلالهم المقصود بالإبطال بتبيين خطئهم ونظيره قوله تعالى « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون» وهذا النوع من القوادح في علم الجدل شديد الوقع على المناظر فليس قول الرسل — إن نحن إلا بشر مثلكم — تقرير للدليل ولكنه تمهيد لبيان غلط المستدل في الاستنتاج من دليله ومحل البيان هو الاستدراك في قوله — ولكن الله يمن على من يشاء من عباده والمعنى أن المماثلة في البشرية لا تقتضي المماثلة في زائد عليها فالبشر كلهم عباد الله والله يمن على من يشاء من عباده بنعم لم يعطها غيرهم . فالاستدراك رفع لما توهموه من كون المماثلة في البشرية تقتضي الاستواء في كل خصلة(١).

وقد زاد رد الرسل هنا إحكاما وتوكيدا كلمة — لهم — وكأنهم يخصصون المخاطبين بهذا الجواب ردا لطمعهم في غيره . ثم كروا عليهم بهذا الإستدراك الذي يبين اختصاصهم بفضل منه سبحانه وتعالى — ولكن الله يمن على من يشاء من عباده — ولم يقولوا — من الله علينا — انكارا لذواتهم وسلكا لهم في طريق العموم وذلك من باب التواضع الجم الذي تحلوا به قلبا وقالبا — وقد رفع هذا الإستدراك التوهم الذي توهموه من كون الرسل بشرا مماثلا لهم وهذا التماثل ينفي عنهم الرسالة في زعمهم

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠١

ولذلك كانت — لكن — واقعة موقعها الدقيق لاقتضاء المقام لها والذى من طبيعته أن يثبت فيه شىء يتوهم الناس انقضاءه .

ثم كروا على مطلبهم الثانى وهو الإتيان بسلطان مبين بتعليقها على مشيئة الله تعالى وذلك بأسلوب القصر — النفى والاستثناء — وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله — أى أن البراهين التى يأتون بها إنما هى من عند الله الذى ينكرون وجوده وفى هـــذا توبيخ لهم على موقفهم الشائن .

ونلحظ أن جواب الرسل كان مرتبا على اعتراض الكافرين . فقد اعترضوا على بشرية الرسل وطالبوهم بالإتيان بسلطان مبين ففند الرسل لهم الاعتراض الأول ونقضوا لهم المطلب الثانى على الترتيب المذكور — ثم كان الأمر بالتوكل عليه وحده — وعلى الله فليتوكل المؤمنون — وقد تقدم — وعلى الله — ليفيد بطريق القصر التخصيص وأن الرسل وأهل الإيمان هم الجديرون بهذا التوكل وقد خصصوا أنفسهم بعد هذا العموم بقولهم — ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا — وهذا التخصيص كان داعية الإلتفات إلى أنفسهم — ومالنا — بهذا الإستفهام الذى ينكرون فيه عدم توكلهم على الله تعالى . وقد أعادوا اسمه الكريم استلذاذا بذكره وقد بينت جملة الحال — وقد هدانا — علة هذا التوكل فهم قد رأوا هدايته تعالى لهم فى جميع طرائقهم صغيرها وكبيرها وفيه تعريض بالكافرين الذين تركوا سبيل الله الراشدة واتبعوا سبل الغواية المعاندة وقد تطور هذا التعريض إلى إعلان صريح بتهديد الكافرين وذلك باستظهار كمال العزيمة بالأسلوب القسمى — ولنصبرن على ما آذيتمونا فهذه الجملة دلت على كمال العزيمة من ناحية وعلى الأذى المترادف عليهم من ناحية أخرى وذلك من خلال هاتين الكلمتين — الصبر والإيذاء — كما أن الدلالة الزمنية

للفعلين — ولنصبرن — آذيتمونا تدل على اتساع مساحة الصبر والأذى ماضيا ومضارعا.

فالفعل المضارع بصيغة الاستقبال المؤكدة بالنون تدل على أذى مستقبل يقابل بالصبر والفعل الماضي دل على أذى في الماضي قوبل كذلك بالصبر لأن المستقبل ليس بأولى منا الماضي في التسلح بسلاح الصبر أي كما قوبلنا بالأذى في الماضي فصبرنا فنحن نصبر على أذى متوقع في المستقبل .

فانظر كيف كان التلاقي بين الفعلين المضارع والماضي في إحداث هذا الايجاز البديع وكيف تعانق الفعلان ورمى كل منهما بخيوط تدل على ما حذف من مقابلة .

وختمت الآية بما يعتبر كالمعين الذي لا ينضب في التذرع بالصبر ودفع الشر — وعلى الله فليتوكل المتوكلون — بهذا الأسلوب المفيد لتخصيص التوكل عليه تعالى أي فليثبت المتوكلون على ما أحدثوه من التوكيل وعلى ذلك فلا تكرار بين عجزا الآيتين إذ الأولى لاحداث التوكل والثانية للعمل على إثباته وإدامته كما أن الايمان سبب في التوكل والسبب مقدم على المسبب . وهم يقصدون أنفسهم بذلك قصدا أوليا.

المعنى الاجمالي :

لقد كشفت تلك المناظرة عن قوة الأدلة التي لجأ إليها رسل الله مع وضوحها وبساطتها في مخاطبتها العقل والعاطفة وعن تهافت منطق الكافرين في تمسكهم بالتقاليد والخداع في المناظرة ولقد نعى القرآن عليهم عدم اعترافهم ببشرية الرسل واعتبرهم متناقضين مع أنفسهم لأن الرسول لو

كان ملكا فلن يتسنى له مخاطبتهم إلا بتحويله إلى بشر مثلهم ولو جعل بشرا لرددوا السؤال وهكذا دواليك .

وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون وكم كان تواضع الرسل عليهم السلام وهم يذكرون أن النبوة منة من الله تعالى لا تتنافى مع البشرية كما يزعم الكافرون وهذا هو الفرق بين الانسان الذى يرتقى إلى السماء ويتجلى المولى عليه ويجعله من خاصة نفسه وسفيره إلى خلقه . وبين الانسان الذى يتبع هواه ويخلد إلى الأرض ويركن إلى الشيطان إنه يستكثر عطاء السماء إلى أهل الأرض ويعتقد أن هذا ضرب من الخيال إن لم يكن من الخبال وهو الكذاب الأشر .

إن رسل الله بينهم وبين السماء جسر ممتد ومفتوح يعتمدون عليه فى كل خطواتهم .

وقد كرروا لفظ — الله — فى جوابهم خمس مرات إشارة إلى تجليات المولى عليهم وإمدادهم بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة لافحام هؤلاء المعاندين ولذلك قد أنصب إنكارهم على عدم التوكل عليه سبحانه تعالى .

وما من شك فى أن هذا الحوار يرمى إلى أن مثل إنكار بشرية الرسل السابقين سيعترض طريق محمد بن عبد الله فى دعوته وقد أنكروا عليه بالفعل أن يكون واحد منهم مرسلا إليهم — فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر ٢٤٠٠/٤ » وفى ذلك تسلية للرسول ﷺ ولورثته من العلماء من بعده .

إن مثل هذا القصص كان يكشف طريق الدعوة للرسول فى أنه طريق محفوف بالمخاطر وينبغى لكى يجتازه الداعية عليه أن يتذرع

بالصبر وأن يتوكل على الله وكأن هذا القصص كما يضع أيدينا على على العبر والعظات يضع لنا تاريخ سير الدعوات الدينية فى الحياة وكيف خطت مجراها منذ فجر التاريخ ويدلنا على طبائع الناس وكيفية العناد وسنن الله فى عقابها ومعافاتها فالإنسان هـــو الإنسان لن يتغير طبعه ولن يتبدل جوهره فالذين قالو النوح عليه السلام «ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم».

قد تكررت نماذجهم مع كل رسول، والعاقبة للمتقين.

قال الله تعالى: «وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنـــا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ» ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧

الخروج، البروز من المقر أو من الحال سواء مقره دارا أو بلداً وسواء كان حاله حاله فى نفسه أو فى أسبابه الخارجية قال تعالى: «فخرج منها خائفاً يترقب»، والإخراج أكثر ما يقال فى الأعيان نحو — أنكم مخرجون والتخريج فى العلوم والصناعات وقيل لما يخرج من الأرض ومن وكر الحيوان ونحو ذلك — خرج وخراج — أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير.

والعود، الرجوع إلى الشىء بعد الإنصراف عنه إما انصرافاً بالذات أو بالقول والعزيمة.

والعادة، اسم لتكرير الفعل والإنفعال حتى يصير ذلك سهلا تعاطيه كالطبع.

أصل الوحى، الإشارة السريعة وتكون بإشارة الجوارح أو بالكلام على سبيل الرمز والتعريض أو بصوت مجرد عن التركيب .

والكلمة الإلهية التى تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى وذلك أضرب كما دل على ذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم » الشورى ٥١

وهذا الوحى إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كجبريل عليه السلام وإما بسماع كلام من وراء حجاب كسماع موسى كلام الله وإما بالالقاء فى الروع كما فى قوله ﷺ « إن روح القدس نفث فى روعى » وإما بالإلهام نحو « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » .

وإما بالتسخير « وأوحى ربك إلى النحل » أو بمنام كما قال عليه الصلاة والسلام « انقطع الوحى وبقيت المبشرات رؤيا المؤمنين » وقد يكون الوحى باللوح والقلم « إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم » والوسوسة وحى « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ... » .

والهلاك يقال على وجوه، افتقاد الشىء عنك وهو عند غيرك موجود كقوله تعالى : « هلك عنى سلطانيه » وهلاك الشىء باستحالة وفساد — ويهلك الحرث والنسل — والموت هلاك — إن امرؤ هلك — وما يهلكنا إلا الدهر — كل شىء هالك إلا وجهه .

ويقال للعذاب والخوف والفقر — هلاك — وما يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون — فهل يهلك إلا القوم الفاسقون .

والتهلكة ، ما يؤدى إلى الهلاك — ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة — وكنى بالهلوك عن الفاجرة .

والظلم وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو زيادة وإما بعدول عن وقته أو مكانه ومن هذا يقال — ظلمت السقاء إذا تناولته في غير وقته، وظلمت الأرض حفرتها ولم تكن موضعاً للحفر وتلك الأرض يقال لها المظلومة والتراب الذي يخرج منها ظليم والظلم يقال فيما يكثر ويقل من الذنوب ولذلك قيل لآدم ظالم ولإبليس ظالم وبين الظلمين بون بعيد ،

والظلم على وجوه .

الأول : ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى وأعظمه الكفر والشرك والنفاق — إن الشرك لظلم عظيم —

الثاني : ظلم بينه وبين الناس — إنما السبيل على الذين يظلمون الناس .

الثالث : ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد — فنهم ظالم لنفسه.

وكل هذه الأنواع الثلاثة في الحقيقية ظلم للنفس — وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

والسكون ، ثبوت الشيء بعد تحرك ويستعمل في الإستيطان ويقال سكنته وأسكنته والسكن — السكون وما يسكن إليه كالزوجة — ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، والصلاة — إن صلاتك سكن لهم .

ومنه السكينة — أنزل السكينة في قلوب المؤمنين — وقيل للعقل سكينة لأنه يسكن عن الميل إلى الشهوات ويقال للآلة التي تسكن حركة الحيوان بالذبح ، سكينة لأنها تذهب حركته.

والخوف توقع مكروه من أمارة مظنونة أومعلومة كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة أومعلومة .

والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب كاستشعار الخوف من الأسد بل إنما يراد به الكف عن المعاصي واختيار الطاعات ولذلك قيل لا يعد خائفاً من لم يكن — للذنوب تاركا — والتخويف من الله الله هو الحث على التحرز ومنه الخيفة والتخوف — فأوجس فى نفسه خيفة موسى — أو يأخذهم على تخوف .

والوعد يكون فى الخير وفى الشر والوعيد يكون فى الشر خاصة .

والفتح إزالة الإغلاق والإشكال وذلك ضربان :

الأول : يدرك بالبصر كفتح القفل والباب ومنه ولما فتحوا متاعهم .

والثانى : يدرك بالبصيرة كفتح الهم وهو إزالة الغم وهو إما فى الأمور الدنيوية كغم يفرج وفقر يزال بإعطاء مال ونحوه — فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب شىء أى وسعنا أو بفتح المستغلق من العلوم وفتح القضية — فصل الأمر فيها — وأزال إغلاقها — ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين — والفتح — النصرة والظفر والحكم — نصر من الله وفتح قريب — والاستفتاح طلب الفتح — إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح — أى طلبتم الظفر أوطلبتم الفتاح وهو الحكم أو طلبتم مبدأ الخيرات فقد جاءكم ذلك بمجىء النبى ﷺ .

وأصل الجبر ، إصلاح الشىء بضرب من القهر يقال جبرته فانجبر وقد يقال الجبر تارة للإصلاح المجرد نحو قول النبى ﷺ ياجابر كل كسير ويامسهل كل عسير .

ومنه قولهم للخبز — جابر بن حبة .

وتارة فى القهر المجرد — وسمى السلطان جبرا كقول الشاعر — وأنعم صباحاً أيها الجبر .

لقهره الناس على مايريده أو للإصلاح أمورهم .

والجبار فى صفة الإنسان هو الذى يجبر نقيصته بإدعاء منزلة من التعالى لا يستحقها وهذا لايقال إلا فى موضع الذم ومنه — وخاب كل جبار عنيد — .

وأما الجبار فى صفة الله — الجبار — فمن قولهم — جبرت الفقير لأنه الذى يجبر الناس بفائض نعمة .

ولتصور القهر بالعلو على الأقران قيل للنخلة جبارة وناقة جبارة والعنيد المعجب بما عنده والمعاند ، المباهى بما عنده والعنود هو العدول عن الطريق وخص بالمحسوس وخص العنيد بالعادل عن الطريق فى الحكم.

ووراء تقال للخلف — ومن وراء إسحاق يعقوب — وللأمام — وكان وراءهم ملك ، فهى لما توارى عنك .

وجرع الماء وتجرع إذا تكلف جرعه ووضع — كاد — لمقاربة الفعل يقال كاد يفعل إذا لم يكن قد فعل وإذا كان معه حرف نفى يكون لما قد وقع — وما كادوا يفعلون — والسوغ — انحدار الماء فى الحلق بسهولة والموت هو إزالة الروح عن الجسد ، كل نفس ذائقة الموت — وهو أنواع .

الأول : زوال القوة النامية الموجودة فى الإنسان والحيوان والنبات.

الثانى : زوال القوة الحاسة — ياليتنى مت قبل هذا .

الثالث : زوال القوة العاقلة وهى الجهالة — أو من كان ميتا فأحييناه

الرابع : الحزن المكدر للحياة — ويأتيه الموت من كل مكان.

الخامس : المنام فالنوم موت خفيف والموت نوم ثقيل — الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها .

والعذاب هو الإيجاع الشديد وقد اختلف فى أصله فقال بعضهم هو من قولهم عذب الرجل إذا ترك المأكل والنوم فهو عاذب وعذوب فالتعذيب فى الأصل هو حمل الإنسان أن يعذب أى يجوع ويسهر وقيل أصله من العذب فعذبته أى أزلت عذب حياته وقيل أصل التعذيب إكثار الضرب بعذبة السوط أى طرفها ،

والغلظه ضد الرقة وأصله أن يستعمل فى الأجسام وقد يستعار للمعانى — عذاب غليظ —

نظرات فى النظم :

بعد أن توالت حجج الرسل وأدلتهم الثابتة وإعلانهم الصريح بأنهم ماضون على طريق الله ، ومهما كان هناك من الأذى فإن رصيدهم من الصبر أكبر وأمضى وهذا وعيد للكافرين ولذلك لم يجد الكافرون بدا من المبالغة فى السفاهة التى وصلت إلى حد الإخراج من الأرض أو عودة الرسل إلى ملتهم وقد سجلت الآية عليهم السبب الدافع إلى هذا العناد وهو الكفر فلم يكن النظم — وقالوا — وإنما وضع الظاهر موضع المضمر — وقال الذين كفروا — لبيان أن هذا الكفر هو الذى دفعهم إلى هذا العناد العارم وقد ترتب على هذا السبب الإخراج — والعودة .

وقد أكدوهما لبيان أنهم جادون وقادرون على هذا العمل ولن يتخلف واحد منهم عن ذلك فهم متعاونون وما أشد تمسك الكافرين بباطلهم عن تمسك المسلمين بحقهم .

وفى هذا الوعيد ترق إذ أن الإخراج من الأرض أسهل على النفس من العود فى الملة .

وإذا كان العود — كما مضى — هو الرجوع إلى الشيء بعد الإنصراف عنه ، فهل كان الرسل على ملة الكافرين حتى يطلق على متابعتهم عود ؟

قال الزمخشرى « معاذ الله ولكن العود بمعنى الصيرورة وهو كثير فى كلام العرب كثرة فاشية لاتكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد .. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به فغلبوا الجماعة على الواحد(١) .

وذكر الرازى وجوها أخرى لخواها ، أن هؤلاء الرسل عندما لم يظهروا المخالفة للأقوام ابتداء ظنوا أنهم على ملتهم وعندما أظهروا المخالفة ظنوا أنهم خرجوا من ملتهم فهم يطلبون أن يعودوا لما كانوا عليه(٢) .

والكفار لم يقنعوا من الرسل بمجرد التظاهر أنهم من أهل ملتهم ولكن يريدون منهم أن يتمكنوا فى ملتهم ولذلك استخدموا الحرف الدال على الإنغماس الكامل وهو — فى — الموضوع لإحاطة الظرف بالمظروف .

ولما كان توكل الرسل على الله وأنهم لم يأتوا شيئاً إلا بإذن الله فقد تولى الله الدفاع عنهم لأنه ربهم ومالك أمرهم — فأوحى إليهم ربهم — وكان الدفاع سريعاً كما توحى بذلك — الفاء — وقد توعد الله الظالمين بأفظع مما توعدوا به الرسل وأكد هذا الوعيد كما أكدوا وعيدهم ولكن

---

(١) الكشاف ٣٧٠ (٢) تفسير الرازى ١٠١/١٩

هناك فرق بين تأكيد الحق وتأكيد الخلق فتأكيد الخلق يتخلف وأما وعد الحق فلا يتخلف أبدا فلم يعد الرسل إلى ملتهم وأما الإخراج فعلى فرض تحققه فهو تحقق موقوت أى أنه إخراج من أجل العود مرة أخرى كما قال تعالى — وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وكما حدث لنبيا ﷺ فقد خرج من مكة مهاجراً إلى المدينة المنورة وهدف العود إلى مكة وتطهيرها من الشرك والمشركين قائم فى رأسه وإذا كان الخروج بهذه المثابة فلا يعد إخراجا .

وقد قابل الله قولهم — لنخرجنكم من أرضنا — بقوله — لنهلكن الظالمين — فاذا كانوا قد توعدوا الرسل بالإخراج من الأرض فقد جعل الله عقوبتهم الهلاك وهو الإخراج من دار الدنيا وقد شفع الله هذا الحكم بما أوجبه وهو الظلم ، ولم تقف عقوبتهم عند هذا الحد وإنما سيرثون أرضهم وديارهم — ولنسكننكم الأرض من بعدهم وبذلك احتوى الرد عليهم الوعيد لهم والوعد للرسل عليهم السلام .

وقد جسد اسم الإشارة — ذلك — الموحى به إليهم وهو إهلاك الظالمين وإسكان المخاطبين الأرض وجعله أمراً واحداً لترتب الإسكان على الهلاك ، ثم أعقبه بمن يستحق هذا الوعد — لمن خاف مقامى وخاف وعيد — وهم الذين يستشعرون موقفهم بين يدى الله عزوجل فى الآخرة وحفظ أعمالهم ومراقبتهم فى الدنيا ويخافون من وعيده بالعذاب ، وقد صدرت باسم الموصول الدال على العموم إشارة إلى عموم الحكم على المخاطبين ومن يسلك منهجهم .

وأما صلته فدلت على علة حصول هذه العطية .

وأصل — خاف مقامى — خافنى — فلفظ مقام مقحم للمبالغة فى تعلق الفعل بمفعوله كقوله تعالى — ولمن خاف مقام ربه جنتان — لأن

المقام أصله مكان القيام وأريد فيه بالقيام مطلق الوجود لأن الأشياء تعتبر قائمة فإذا قيل — خاف مقامى — كان فيه من المبالغة ماليس فى — خافنى بحيث إن الخوف يتعلق بمكان المخوف منه كما يقال — قصر فى جانبى — ومنه قوله تعالى — مافرطت فى جنب الله — وكل ذلك كناية عن المضاف إليه كقول زياد الأعجم .

إن السماحة والمروءة والندى
في قبة ضربت على ابن الحشرج

وخوف الله يعنى الخوف من غضبه — ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى — وعطف جملة — وخاف وعيد — على — خاف مقامى — مع إعادة فعل — خاف — دون اكتفاء بعطف — وعيدى — على — مقامى لأن هذه الصلة وإن كان صريحها ثناء على المخاطبين فالمراد منها التعريض بالكافرين بأنهم لايخافون وعيد الله ولولا ذلك لكانت جملة — خاف مقامى — تغنى عن هذه الجملة فإن المشركين لم يعبأوا بوعيد الله وحسبوه عبثا قال تعالى: ويستعجلونك بالعذاب — ولذلك لم يجمع بينهما فى سورة البينة — ذلك لمن خشى ربه — لأنه فى سياق ذكر نعيم المؤمنين خاصة .

وهذه الآية فى ذكر هلاك الظالمين وإسكان المؤمنين أرضهم . فكان المقام للفريقين ، فجمع فى جزاء المؤمنين بإدماج التعريض بوعيد الكافرين(١) .

وبعد أن تقررت هذه الأحكام تطلع الكل إلى النهاية — واستفتحوا — وهو إما معطوف على — فأوحى — وإما على — وقال الذين كفروا

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٠٨

وإما على — لنهلكن — فعلى الأول يكون الضمير للرسل ومعنى الاستفتاح كما سبق إما النصرة أى استنصروا الله على أعدائهم — كما قال تعالى : إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح — وإما من الفتاحة وهى الحكومة والقضاء أى استحكموا الله وطلبوا منه القضاء بينهم وعلى الثانى — يكون الضمير للكفار أى قالوا ذلك واستفتحوا على نحو ماقال بعد قريش (عجل لنا قطنا) وكأنهم لما قوى تكذيبهم وأذاهم ولم يعاجلوا بالعقوبة ظنوا أن ما قيل لهم باطل فاستفتحوا على سبيل التهكم والإستهزاء كقول قوم نوح — فأتنا بما تعدنا — وقوم شعيب — فأسقط علينا كسفا.

وعلى الثالث — يكون الضمير للرسل أيضا على قراءة — واستفتحوا بلفظ الأمر أى أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكن الظالمين وقال لهم استفتحوا وقيل الضمير للرسل ومكذبيهم لأنهم كانوا كلهم سألوا الله أن ينصر الحق ويهلك الباطل ، وعليه فى الكلام فيه — جمع بعد تفريق(١) .

ونتيجة الاستفتاح — وخاب كل جبار عنيد — أى خسر وهلك كل جبار متكبر عن طاعة الله وعبادته — عنيد — معاند للحق ومجانبه ، والوصف الأول إشارة إلى ذمه باعتبار الخلق النفسانى والوصف الثانى اشارة إلى ذمه باعتبار الأثر الصادر عن الأول ، وإنما وضع — كل جبار عنيد — موضع ضميرهم ذما لهم وتسجيلا عليهم بالتجبر والعناد — والخيبة — الحرمان عن الطلب وإسناد الخيبة إلى كل منهم ما لايخفى من المبالغة وفى الكلام إيجاز بحذف فاء الفصيحة والمعطوف عليه أى استفتحوا ففتح لهم وظفروا بما سألوا وأفلحوا وخاب كل جبار عنيد(٢) .

---

(١) روح المعانى ٢٠١/١٣ .
(٢) روح المعانى ٢٠١/١٣ .

وقد جمعت نهاية الآية فى كلماتها الوجيزة معانى مادل عليه قولهم السابق للرسل إذ هو يدل على القوة والقهر والتسلط والعلو والمجانبة لأحكام الله وكل ذلك كشف فى الفاصلة مع بيان الحكم الأخير لمن اتصف بذلك وهو الخيبة، وخاب كل جبار عنيد — ثم ذكرت الآيات بعد ذلك حيثيات هذه الخيبة أو تعذيبه، وهى :

أولا : من ورائه جهنم — من قدامه وبين يديه كما قال الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب

وهذا وصف لحاله فى الدنيا لأنه مرصد لجهنم فكأنها بين يديه وهو على شفيرها .

وهذا إيحاء نفسى شديد يتقاصر دونه كل متاع الدنيا .

ثانيا : بعد ذكر مكان التعذيب — جهنم — ذكرت الآية ما يلقاه فيها — ويسقى من ماء صديد — فهو معطوف على محذوف أى يلقى ويسقى من ماء صديد وهذا الماء فيه معنى الصد وهو المنع كما تدل مادة الفعل على ذلك أى المنع من الشرب لكراهته وقبحه سواء كان هو ما يسيل من جلود أهل النار أو هو الدم والقيح ، ووصف الماء بالصديد إما من باب البيان بعد الإبهام وفيه ما لا يخفى من التهويل والتفريع ، وإما من باب التشبيه بإسقاط أداته أى ماء مثل الصديد والماء على الإطلاق الأول ليس بحقيقة وإنما أطلق عليه ذلك باعتبار أنه بدله وعلى الثانى حقيقة .

ثالثا : وبعد وصف المشروب وصفت الآية الشارب — يتجرعه — وهى جملة مستأنفة مبنية على سؤال مقدر كأنه قيل — فماذا يفعل به ؟

فقيل يتجرعه ثم بينت حال الفاعل والمفعول معا بجملة — ولا يكاد يسيغه — أى لا يقارب أن يسيغه فضلا عن الإساغة بل يغص به فيشرب به بعد تكلف ومعاناة .

وقد عبر عن ذلك الشرب بالإساغة لأنها المعهودة فى الأشربة .

رابعا : هذا الذى تقدم يفضى بدوره إلى ترادف الشدائد والآلام وإحاطتها به ولذلك قال — ويأتيه الموت — كأن أسبابه وأصنافه كلها قد تألبت عليه وأحاطت به من جميع الجهات تفظيعا لما يصيبه من الآلام والضوائق فالكلام على المجاز أو على حذف مضاف ولبيان معنى الإحاطة قال — من كل مكان — وقيل من كل مكان من جسده حتى إبهام رجله وأصل شعره ، ولا مانع إرادة الكل .

خامساً : هذا العذاب ثابت ومستمر ولذلك قال — وما هو بميت — حتى يستريح ولا هو حى حياة طيبة نافعة كما قال — لا يموت فيها ولا يحيا — فيظل الإحساس بالعذاب موجوداً ولدفع ما يتوهم من الخفة بسبب الإعتياد كما فى عذاب الدنيا قال — ومن ورائه عذاب غليظ — أى يستقبل كل وقت عذابا أشد وأشق مما كان قبله . وبذلك ختمت الآية بما يدل على استمرار العذاب المتقدم ذكره مع بيان صعوبته شيئا فشيئاً بالبقاء فيه .

وكانت الجمل المتحدثة عن العذاب قصيرة كأنها قوارع تلهب ظهور الكفار أو شرر يتساقط على رؤوسهم ، فبناء الجملة القرآنية صدى لمعناها .

المعنى الإجمالي للآيات :

قد أفصحت الآيات عن مدى السفاهة التي يعلنها الكفار تجاه الرسل وكل من يتصدى لدعوة الإصلاح ومقاومة الفساد في كل حين ، وهؤلاء الكفار قد وضعوا أمرين أحلاهما مر أمام الرسل وهما الإخراج من الأرض والعودة إلى ملتهم . وإذا كان الأمر الثاني مستحيلا فإن الأمر الأول يبقى في حيز الإمكان لأنه يعني التحول عن الفساد وقد وقع من المعاندين على طول مسيرة الدعوة إلى الله فقد قال عن قوم لوط..أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون » وقال عن موسى — فخرج منها خائفا يترقب . . . » وقال عن محمد ﷺ « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين =

وقال ﷺ « من آذى جاره ورثه الله داره » وكان هذا هو جزاء الكافرين الذين توعدوا الرسل بالإخراج فأخرجهم من دار الدنيا وأسكن المرسلين أرضهم وديارهم والعاقبة للمتقين وهذا هو موطن العبرة والعظة .

ولا عبرة إلى تخصيص — واستفتحوا — بأهل مكة وأنهم طلبوا الفتح وهو المطر في الجدب الذي أصابهم بدعوة رسول الله فخيب الله رجاءهم ولم يسقهم وتوعدهم بالسقي في جهنم بالماء الصديد بدلا من الماء العذب وعلى ذلك فالآية منقطعة عن قصة الرسل مع أقوامهم وتكون الواو للاستئناف أو للعطف على — وويل للكافرين من عذاب شديد — أو على خبر — أولئك في ضلال بعيد —

ولكن العبرة — بعموم اللفظ لا بخصوص السبب — كما يقول الأصوليون .

فالوجه الأول : هو الأوجه ولعـــدم قرينة تخصص الاستفتاح بالاستمطار ولأنه على الوجه الأول يتناول أهل مكة وغيرهم فى ظلال ما يوحى به السياق .

فكل من يخرج رسولا أو داعيـة من وطنه ظلما أو يتقول عليه الأقاويل فإن الله مهلك الظالمين ومثبت أقدام الصالحين . وما ينتظر هؤلاء الكفار من عـذاب جهنم أشد وأقسى كما وضحته الأوصاف المتتابعة بعد الحكم عليه بالخيبة والخسران فلم يغن عنـــه تجبره ولا عناده للحق عن ترادف النكبات وتوالى الضوائق وإحاطتـه بأسباب الموت وأستقباله فى كل وقت عذابا غليظا .

قال الله تعالى :

« مثـل الذين كفروا بربهم أعمـالهم كرماد أشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقـدرون ممـا كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد — ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » ١٨، ١٩، ٢٠

المثل عبارة عن المشابهـــة لغيره فى معنى من المعانى أو الشىء الذى يضرب لشىء مثلا فيجعل مثله . ويطلق كذلك على الصفة العجيبة .

الكسب ما يتحراه الإنسان مما فيه نفع وتحصيل حظ ككسب المال .

وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أن يجلب منفعة ثم استجلب به مضرة والكسب يقال فيما أخذه لنفسه ولغيره .

وقد ورد فى القرآن فى فعل الصالحات والسيئات فمن الأول : أو كسبت فى إيمانها خيرا — ومن الثانى — أن تبسل نفس بما كسبت .

والإكتساب يقـــال فيما استفدته لنفسك ويستعمل فى الصالحات والسيئات .

كذلك : للرجال نصيب مما أكتسبوا وللنساء نصيب مما أكتسبن ...

وقوله — لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت — قيل خص الكسب هنا بالصالح والإكتساب بالسيء وقيل عنى بالكسب ما يتحراه الإنسان من المكاسب الأخروية وبالأكتساب ما يتحراه من المكاسب الدنيوية ...

الريح الهواء المتحرك وعامة المواضع التى ذكر الله تعالى . إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة — كمثل ريح فيها صر — وأرسلنا الرياح لواقح — وقد يستعار الريح للغلبة والقوة — وتذهب ريحكم .

البعد ضد القرب وليس لهما حد محدود وإنما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره يقال فى المحسوس وفى المعقول .

والبعد أكثر ما يقال فى الهلاك — وقيل بعدا للقوم الظالمين — بعدت ثمود — والضلال البعيد — الذى يصعب الرجوع منه إلى الهدى . تشبيها بمن ضل عن محجة الطريق بعـــدا متناهيا فلا يكاد يرجى له العود إليها .

رأى — عينه همزة ولامة ياء لقولهم — رؤية وقد قلبه الشاعر فقال :

وكل خليل راءنى فهـو قائـل

من أجلك هذا هـامة اليوم أوغد

وتحذف الهمزة من مستقبله فيقال — ترى ويرى ونرى — فإما ترين من البشر أحداً —

والرؤية إدراك المرئى وذلك أضرب بحسب قوى النفس .

الأول — بالحاسة وما يجرى مجراها نحو — لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين .

الثانى — بالوهم والتخييل — ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا ...

الثالث — بالتفكر — إنى أرى مالا ترون ...

الرابع — بالعقل — ما كذب الفؤاد ما رأى ...

والرأى . اعتقاد النفس أحد النقيضين عن غلبة الظن ورأى إذا عدى إلى مفعولين أقتضى معنى العلم ، وإذا عدى بإلى اقتضى معنى النظر والاعتبار والرؤيا ما يرى فى المنام — صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد .

والخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل فى إبداع الشىء من غير أصل ولا احتذاء — خلق السموات والأرض — ويستعمل فى إيجاد الشىء من الشىء — خلقكم من نفس واحدة —

وليس الخلق الذى هو الإبداع إلا لله تعالى ولذلك قال فى الفصل بينه وبين غيره — أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون — وإذا جعل هذا الخلق لغيره فيكون بإذنه — وإذا تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى — .

والخلق يستعمل فى كافة الناس على وجهين .

أحدهما : فى معنى التقدير كقول الشاعر .

فلأنت تفرى ما خلقت وبعـ ض القوم يخلق ثم لا يفرى

وثانيهما — فى الكذب وكذلك كل موضع ذكر فيه الخلق وصفا لكلام — وتخلقون إفكا —

وقوله — فتبارك الله أحسن الخالقين — فإن دل على أن غيره يصح أن يوصف بالخلق فعلى معنى أنه أحسن المقدرين أو على وفق ما يعتقدون ويزعمون أن غير الله يبدع فالله أحسنهم إبداعا كما قال — خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم —

والخلق خاص بما يدرك بالبصر والخلق خاص بما يدرك بالبصرة — وإنك لعلى خلق عظيم —

ويستعمل الخلق فى المخلوق ،

الحق . أصله المطابقة والموافقة ويقال على أوجه :

الأول — لموجد الشىء بسبب ما تقتضيه الحكمة وهو الله — فذلكم الله ربكم الحق .

الثانى — الموجد بحسب مقتضى الحكمة ولهذا يقال فعل الله تعالى كله حق — ماخلق الله ذلك إلا بالحق —

الثالث — فى الاعتقاد كاعتقاد مافى القرآن أنه الحق .

الرابع — للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب مثل فعلك وقولك حق — كذلك حقت كلمة ربك — حق القول منى —

وإحقاق الحق على ضربين : أحدهما بإظهار الأدلة والثانى : بإكمال الشريعة .

والحقيق . الجدير والحقيقة ، الشىء الذى له ثبات ووجود وعند علماء البيان اللفظ المستعمل فيما وضع له فى أصل اللغة .

الذهاب — المضى ويستعمل فى الأعيان والمعانى — إنى ذاهب إلى ربى — فلما ذهب عن إبراهيم الروع .

عز — العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم — أرض عزاز أى صلبه وقد مضى تحليلها .

نظرات فى النظم :

سيقت هذه الآية على سبيل الإستئناف البيانى لسؤال مقدر نشأ من الحديث السابق عن صفة التعذيب لكل جبار عنيد وكأنه قيل ما بال أعمالهم التى عملوها حتى آل أمرهم إلى ذلك المآل ؟ فبين الله صفتهم العجيبة بهذا التمثيل المركب الذى أظهر أعمالهم التى عملوها فى الدنيا وظنوا أنها جالبة الخير والنفع لهم فإذا بكفرهم يمحقها ويبطل أثرها فكانت كالرماد الذى تعدو عليه الريح فى يوم عاصف .

والرماد عنصر أرضى مستقر ولكنه أتبع بجملة — أشتدت به الريح فأزالت استقراره وبددت آثاره وبناء الجملة يشير إلى هذه القوة العاتية التى طير بها هــذا الرماد فادة الفعل — اشتدت — تدل على القوة والأسراع إلى التبديد والخسران .

ثم قال — به — ولم يقل عليه — لأن — عليه — قد توحى أن الريح قد اشتدت عليه وهو ثابت فى مكانه ولكن — به تشير إلى أنها قد أذهبته برمته حيث ألقت به فى مكان سحيق فإذا أضيف إلى ذلك أن الرماد وهو المتخلف عن الإحراق — أخف من التراب كان ذلك أدعى إلى إذهابه ومحق آثاره .

ولما كان الموطن موطن عذاب جاءت كلمة — الريح — مفردة طبقاً للاستعمال الغالب فى القرآن ثم وصف الزمن بكونه عاصفا — يوم عاصف والعصف — اشتداد الريح — يكون لما فيه وذلك على سبيل المجاز العقلى بعلاقة الزمانية وذلك يدل على شمولية العصف لليوم كله وفيه من المبالغة ما فيه فإذا كان الزمن عاصفا فما حال ما فيه إن العصف هنا رمز للقوة الخارقة التى تقتلع هؤلاء الكافرين من جـــذورهم فضلا عن أعمالهم ورمادهم .

وفى موطن آخر من سورة النور صورت أعمالهم التى تذهب هباء منثورا بالسراب وهو بخار رقيق أو هواء مترقرق يظهر فى الصحراء وقت الهاجرة — فهو عنصر سماوى يهفو إليه الظمآن حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً وذلك فى قوله تعالى « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب » وزاد هنا تنويع صورة المشبه به فقال « أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » .

وصورة السراب تثير فى نفس الظمآن الأحاسيس المفعمة بالآمال التى يعلق عليها رى نفسه وإشباع حاجته وكان تخصيص فاعل الحسبان بالظمآن إشارة إلى الإحساس المتطلع إلى الأثر النافع بتهلف بالغ ثم إن هذا التطلع قد دفعه إلى رحلة مضنية وشاقة فى سبيل الحصول على هذا الأثر ولذلك كانت كلمة — حتى — مشيرة إلى هذا الإجتهاد فى الوصول إلى هذا الماء المتخيل وفى حومة هذه الآمال المتوالية فى نفسه كانت الخيبة والحرمان تدل عليه — إذا جاءه لم يجده شيئاً — فانتهى الفرح إلى ترح مفاجىء — ووجد الله عنـــده فوفاه حسابه — وتبددت الآمال وراء

ضباب اليأس والقنوط وأحاطت الخيبة والخسران بهؤلاء الكافرين الذين عملوا أعمال الخير والبر من صلة الأرحام وإغاثة الملهوفين وإكرام الضيفان وغير ذلك وظنوا أن أعمالهم تلك سيكون لها الأثر المفيد لهم ولكن كفرهم محقها وأبطل أثرها وأحيط بهم العذاب من حيث لا يشعرن .

والصورة الثانية لصورة المشبه به وهى الظلمات وهى جمع فى مقابلة أعمالهم وهى جمع كذلك فتقتضى القسمة آحاداً أى أن كل عمل من أعمالهم ظلمة لأنهم لم يسيروا فيه على هدى من ربهم وإنما مضوا فيه بطريق الهوى المتبع وهذه الظلمات فى بحر لجى — عميق كثير الماء — والبحر يثير الخوف والرعب وبخاصة إذا تراكمت أمواجه وركب بعضها بعضا إنها تصنع الظلمات المتكاثفة التى تمنع السير وتعرقل الإهتداء فإذا انضاف إلى ذلك السحاب فإنه يحجب النور من السماء فتلتقى الظلمات من أعلا ومن أسفل صانعة هذه السواتر المخيفة والمانعة لرؤية ألصق شىء بالإنسان وهو يده — إذا أخرج يده لم يكد يراها .

وقد تنوعت هذه الصورة باعتبار وقتين ، هما الدنيا والآخرة فإنها كالسراب فى الآخرة من حيث عدم نفعها وكالظلمات فى الدنيا من حيث خلوها عن نور الحق الذى يهتدى به وخص هذا بالدنيا لقوله — ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور — فإنه ظاهر فى الهداية والتوفيق فى الدنيا وخص الأول بالآخرة لقوله تعالى — ووجد الله عنده — وقدم أحوال الآخرة التى هى أعظم وأهم لاتصال ذلك بما يتعلق من قوله — ليجزيهم — ثم ذكر أحوال الدنيا تتميما لها(١) .

وهذا التصوير يدفع النفوس إلى التباعد عن الكفر الذى يثير الخوف ويجلب الخيبة ويمحق الآثار الصالحة .

---

(١) روح المعانى ١٨/١٨٢

وفرق كبير بين هذا التصوير وبين تصوير الأعمال النافعة ذات الأثر الطيب الموصول بالله فى قوله تعالى من سورة البقرة « والذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » .

فصورة المشبه به هنا منتزعة من الجنة — البستان المثمر — الذى يثير فى النفس البهجة والسرور فتتلذذ النفس وينتعش الحس ثم إن هذه الجنة بربوة — المكان المرتفع — وهو دليل الخصوبة الأرضية التى تعطى الأشجار النماء وللأثمار التمام والنضج ثم إنه محل لسقوط الأمطار الغزيرة التى تضاعف من الإنتاج وإن لم يكن هناك مطر فإن ارتفاع المكان يكفيه الطل — الندى — إذن فلا جفاف ولا ملوحة فى التربة لغسلها المستمر وذلك يضاعف من الإنتاج ومن البهجة به .

وهكذا أعمال الصالحين يتلقاها الله بالقبول والنماء ويربيها حتى تصير مثل جبل أحد فيجدون فيها الخير الكثير والنفع الوفير ويسعدون بها أيما سعادة .

وكلمة — مثل — مبتدأ وأعمالهم مبتدأ ثان وكرماد خبر المبتدأ الثانى والجملة خبر عن المبتدأ الأول فيكون المراد — مثل أعمال الذين كفروا كرماد ...

شبهت أعمالهم المجتمعة العديدة برماد مكدس فإذا اشتدت به الريح انتثر وتفرق تفرقا لا يرجى معه إجتماعه ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من اضمحلال شىء كثير بعد تجمعه .

ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير له التشبيه بهيئة الرماد المجتمع لأن الرماد أثر لأفضل أعمال الذين كفروا وأشيعها بينهم وهو قرى الضيف حتى صارت كثرة الرماد كناية فى لسانهم عن الكريم ،

وجملة — لا يقدرون مما كسبوا على شيء — بيان لجملة التشبيه وتوكيد لمعناه أى ذهبت أعمالهم سدى فلا يقدرون أن ينتفعوا بشيء منها وجملة — ذلك هو الضلال البعيد — تذييل جامع لخلاصة أحوالهم . وتشخيص لما صاروا إليه من الضلال الذى لا يرجى عودهم منه وتأكد هذا المعنى ببنائه على الجملة الإسمية التى تعنى الثبوت والدوام وبضمير الفصل — هو — ودخول الألف واللام على الخبر — الضلال — ووصفه بالبعد على طريق المجاز العقلى لأنه فى الأصل صفة للضال . فوصف المصدر به فيه من المبالغة ما فيه .

وما كان ينبغى أن يصيروا إلى هذا الضلال البعيد لأن الأدلة المادية على وجود الله ووحدانيته ظاهرة ومبثوثة فى الكون سمائه وأرضه ولذلك كانت الآية التالية — ألم تر .... — خطابا لهم يقررهم بهذه الأدلة الكونية التى تلفت أنظارهم إليها ليشاهدوها فتقودهم المشاهدة إلى العلم بأن هذه المخلوقات لله الواحد ، وقيل الخطاب عام لكل من يصلح له الخطاب وجملة — ألم تر — استئناف بيانى ناشىء عن جملة « فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين » فإن هلاك فئة كاملة شديدة القوة والمرة أمر عجيب يثير فى النفوس السؤال ، كيف تهلك فئة مثل هؤلاء ؟ فأجاب بأن الله الذى قدر على خلق السموات والأرض فى عظمتها قادر على إهلاك ما هو دونها فبدأ الإستئناف هو قوله — إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد .

وموقع جملة — ألم تر — موقع التعليل لجملة الإستئناف قدم عليها كما تجعل النتيجة مقدمة فى الخطابة والجدال على دليلها .

وجملة — وما ذلك على الله بعزيز — عطف على جملة — إن يشأ يذهبكم — مؤكدة لمضمونها وإنما سلك بهذا التأكيد مسلك العطف لما فيه

من المغايرة للمؤكد فى الجملة بأنه يفيد أن هذا الشىء سهل عليه هين كقوله « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه »(١) .

المعنى الإجمالى :

توضح الآيات مآل الأعمال التى يقبل عليها الكفرة بجد ونشاط وتعاون من الكرم وإنفاق المال فى الصلة والإغاثة والمشروعات الخيرية وغير ذلك مما يزعمون أنه نافع لهم ولكنهم غفلوا عن مبيد هذه الأعمال وهو كفرهم بالله عز وجل . إن هذا الكفر قد أحال هذه الأعمال إلى رماد طيرته الرياح ولم يعد شيئاً مذكوراً كما أنهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على شىء من هذا الكسب الذى ظنوا فيه النفع فكانت فيه المضرة التى لا يمكن استبدالها بالنفع وذلك هو الضلال البعيد وما كان ينبغى أن يصلوا إلى هذه الخيبة بعد أن وضع الله فى كونه آيات تنطق بوجوده وعظمته وأنه الخالق الجدير بأن يعبد وأن يستعان به وأنه الواحد الذى لا إله إلا هو فكل ما فى الكون من إنسان ونبات وحيوان وجماد يشهد أن لا إله إلا الله ، وكل هذا ظاهر لا يحتاج إلى بحث وتفكير وعمق ما دام هناك عقل يفكر ويقدر ولذلك خاطبهم بأسلوب الاستفهام الذى يقررهم بالرؤية التى تعنى العلم وهو فى الحقيقة خطاب لكل العقول فى كل زمان ومكان أن ينظروا فى السموات والأرض وما فيهما .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

« فإذا كان الذى اخترع المصباح قد حرص على أن يعرف العالم كله اسمه وتاريخه وقصة اختراعه أيكون الذى أوجد الشمس غافلا عن

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/١٣ وما بعدها

أن يخبرنا أنه هو الذى خلقها وإذا كانت هناك قوة أخرى قد أوجدتها أفلا تعلن عن نفسها إذن قضية الخلق محسومة لله تعالى لأنه وحده هو الذى قال. إنه خالق وحتى الكفار لم يستطيعوا أن يجادلوا فى هذه القصية « ولئن سألتم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله »(١).

« فإذا آمنا بوجود الكون فلابد أن نؤمن بإله هذا الكون منطقيا إذ لا معنى لأن نؤمن بالمخلوق ونرفض وجود خالقه ونحن لا نعلم شيئاً جاء إلى الوجود من العدم دون أن يخلق فكل شىء مهما بلغ حجمه عظم أو صغر جل أو دق وراءه علة فكيف بنا نؤمن بأن كوننا عظيما مثل كوننا جاء إلى الوجود ذاتيا دون خالق »(٢).

فإذا اتجهنا إلى ذواتنا وجدنا سيطرة الخالق وقهره لنا فى كل مرحلة من مراحل حياتنا فكما أعدم الأعمال العظيمة وصيرها هباء منثورا فهو القادر على إعدام أصحاب هذه الأعمال وإنشاء قوم آخرين وما ذلك على الله بعزيز « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ».

قال الله تعالى:

« وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء. قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم

(١) الأدلة المادية على وجود الله ٦
(٢) الإسلام يتحدى ٧٣

ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ، وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام » ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

البراز — الفضاء وبرز حصل فى البراز وذلك إما أن يظهر بذاته — وترى الأرض بارزة — وإما أن يظهر بفضله وهو أن يسبق فى فعل محمود وإما أن ينكشف عنه ما كان مستورا منه — وبرزوا لله جميعا — الضعف خلاف القوة والضعف قد يكون فى النفس وفى البدن وفى الحال، وقال الخليل بن أحمد، الضعف بالضم فى البدن والضعف فى العقل والرأى وجمع الضعيف ضعفاء وضعاف والكبر والتكبر والاستكبار تتقارب فالكبر الحالة التى يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره وأعظم التكبر التكبر على الله بالامتناع من قبول الحق والإذعان له بالعبادة والاستكبار يقال على وجهين .

أحدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيرا .

والثانى : أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم كما قال فى شأن إبليس — أبى واستكبر —

ومقابلة المستكبرين بالضعفاء إشارة إلى أن استكبارهم كان بما لهم من القوة البدنية .

والتكبر يقع صفة لله تعالى فيدل عن الأفعال الحسنة الكثيرة الزائدة على محاسن الغير — العزيز الجبار المتكبر — .

وتقع صفة للإنسان فيدل على التشبع والتكلف لما ليس فيه وهو مذموم — فبئس مثوى المتكبرين —

الجزع أبلغ من الحزن فإن الحزن عام والجزع حزن يصرف الإنسان

عما هو بصدده ويقطعه عنه وأصل الجزع قطع الحبل من نصفه فلتصور معنى الانقطاع فيه قيل للخرز المتلون جزع لتقطع الألوان فيه .

والصبر الإمساك فى ضيق يقـــال صبرت الدابة حبستها بلا علف والصبر حبس النفس على ما تكره أبتغاء مرضاة الله . ولفظه عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه .

فإن كان فى مصيبة اقتصر على أسم الصبر وتضاده حالة الجزع والهلع وهو إطلاق داعى الهوى يسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها .

وإن كان فى أحتمال الغنى سمى ضبط النفس وتضاده حالة تسمى البطر .

وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ويضاده الجبن .

وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ويضاد التذمر .

وإن كان فى نائبه من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة صدر ويضاده الضجر ، والتبرم وضيق الصدر .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان سر وسمى صاحبه كتموما .

وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ويضاده الحرص .

وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ويضاده الشره ،

وقد سمى الله تعالى كل ذلك صبرا فى قوله « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس »

والشيطان . قيل النون أصلية من شطن أى تباعد وقيل النون زائدة من شاط يشيط إذا احترق غضبا .

قضى . القضاء فصل الأمر قولا كان أو فعلا .

والأمر . لفظ عام للأقوال والأفعال كلها .

الإصراخ . الإغاثة مأخوذ من صراخ المستغيث إذا رفع صوته وصوته للسلب وكأن المغيث يزيل صراخ المستغيث

— آمنوا — أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف والأمن والأمانة والأمان مصادر يجعل الأمان تاره اسما للحالة التى يكون عليها الإنسان فى الأمن وتارة اسما لما يؤمن عليه الإنسان كما فى قوله — وتخونوا أماناتكم — .

ويستعمل لازما كما هنـــا ومتعديا كما فى قولك — آمنته أى جعلته ذا أمن ومنه قيل الله مؤمن لأنه يمنح الأمن والطمأنينة لعارفيه .

وإذا استعمل لازما كان معناه صار ذا أمن . وقد يعـــدى باللام ولا يكون ذلك إلا لغير الله ويعدى بالباء لله ولغيره كما فى قوله تعالى — يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين — فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه — .

وعلل الزمخشرى لهذا الإستعمال القرآنى لهذا الفعل . فإن قلت لما عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام؟ قلت لأنه قصد التصديق بالله الذى هو نقيض الكفر به فعدى بالباء وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولون ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدى باللام ألا ترى إلى قوله — وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين — .

والإيمان يستعمل تارة اسما للشريعة التى جاء بها محمد ﷺ ويوصف به كل من دخل فى شريعته مقرا بالله وبنبوته .

وتارة يستعمل على سبيل المدح ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق وذلك باجتماع ثلاثة أشياء . تحقيق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بحسب ذلك بالجوارح وعلى هذا قوله — والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصادقون — ويقال للاعتقاد والقول الصدق والعمل الصالح — إيمان — .

كما فى قوله تعالى — وما كان الله ليضيع إيمانكم — أى صلاتكم — .

كما قال بعض المفسرين لأن الإيمان تصديق بالقلب وعمل بالجوارح ومثله الحياء من الإيمان — وقد يطلق الإيمان على التصديق فقط كما فى قوله — وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين — والتصديق الذى يسمى إيمانا هو تصديق مصحوب بالأمن وقوله تعالى — ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت — فيه ذم لهم وتهكم بهم وأنه قد حصل لهم الامن بما لا يكون به الامن إذ ليس من شأن القلوب التى أوتيت الكتاب أن تطمئن إلى الباطل وهو فى معنى قوله تعالى — ولكن من شرح بالكفر صدرا — .

نظرات فى النظم : (١)

بعد أن أنتهى الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم فى الدنيا وأعقبه الوعيد لمخالفيهم . جاءت هذه الآيات تبرز طرفا من الحوار والجدل بين هؤلاء المعاندين فى الآخرة وبذلك تتسلسل الآيات فى ترتيب دقيق ونظم بديع . حوار وجدل فى الدنيا يتبعه حوار وجدل فى الآخرة .

---

(١) الصبر فى القرآن ٩

ولما كان البروز يوم القيامة يكون بعد الإماتة وانقضاء مدة البرزخ كان قوله — وبرزوا — بعد الإذهاب المفهوم من جملة الشرط وجوابه — إن يشأ يذهبكم — دالا على التناسب الدقيق بين الآيتين وترق الاسلوب . إذهاب ثم بروز .

وقد عبر بالماضى — برزوا — مع أن حدث البروز سوف يقع فى المستقبل ليتحقق الوقوع وذلك من منطلق علم الله الغيبى وكأن حدث البروز قد تم ووقع وما على هؤلاء إلا أن يفكروا فى مواقعهم من هذا الموقف ويستحضروا هذه المجادلة ليستشعروا مدى الخيبة التى يجرهم إليها هذا العناد ويدفعهم إليها هذا الاتباع للمستكبرين الذين يتمسكون بحبائل الشيطان . فهذه الاستعارة الزمنية قد جمل موقعها ولطف أسلوبها فى مجاوزة إمكان وقوع الحدث إلى ذواتهم وأحوالهم التى يجب أن تكون موضع تفكيرهم .

والتعبير عن حضورهم بين يدى الله بالبروز لدلالته على الانكشاف بعد الإستتار ولصيرورتهم بالبراز وهو الارض المتسعة استعير لجمع يوم القيامة لانهم كانوا مستترين فى قبورهم كما كانوا يزعمون أنهم يستترون عن الله عند أرتكاب الفواحش وبذلك وقع هذا الفعل من ناحية زمنه ومن ناحية مادته الموقع المعجز الدقيق .

ثم إن هذا البروز كان من أجل حساب الله فاللام فى — لله — للتعليل ويمكن أن يكون المعنى أنهم برزوا مملوكين لله فاللام للملكية . وهذا أبلغ لدلالته على مدى الإنكشاف أمام نفوسهم لله بعد أن توارى عنهم ما كانوا يتحصنون به وكلمة — جميعا — تؤكد حضور الرؤساء والاتباع معا وبمجرد البروز ينفجر الضعفاء بالجدال لعظم الهول والخيبة التى تنتظرهم — فقال الضعفاء — فالفاء تدل على

على مسارعتهم بالقول عقب البروز وقد بدأ الضعفاء بذكر علة ما هم فيه — إنا كنا لكم تبعا — والتبع اسم جمع التابع وهى تبعية مطلقة أى تبعية فى الرأى وتكذيب الرسل وفى التسخير وأعمال الدنيا وهذا ألزم فى التبكيت والتوبيخ حيث لم يغن سلطان الدنيا الذى كانوا يتلفعون به عن شىء فى الآخرة . وقد رتبوا على هذه التبعيه سؤالا .

فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء — ؟ وذلك على سبيل التوبيخ والتقريع لانهم يعلمون أنه لا غناء فى اليوم المشهود ولذلك لم لم يسألوا عنه وإنما سألوا عن نسبة سادتهم إلى هذا الغناء أى كون سادتهم يغنون عنهم فى هذا اليوم ولذلك قدموا ضميرهم — أنتم — ليكونوا محل التوبيخ والإذدراء وكان التوبيخ على العجز عن البعض فضلا عن الكل . — من عذاب الله من شىء — على أعتبار أن — من — للتبيض .

وقيل إن الاولى للبيان أو للبدلية أى بعض الشىء الذى هو عذاب الله أو الغناء بدلا من عذاب الله .

وقيل إن الثانية — من شىء — زائدة ولكن لا معنى لزيادتها فى كتاب الله تعالى بل معناها من بداية ما يطلق عليه شىء أى أنهم لا يغنون عنهم هذا الشىء القليل فضلا عن الكثير وهـــذا يعتبر توبيخا آخر .

وكان جواب المستكبرين — لو هدانا الله لهديناكم — وهو عذر أقبح من الذنب لانهم يريدون أن يتخلصوا من التبعة بالقائها على الله ، فهو أعتذار عن تغريرهم بأنهم ما قصدوا به توريط أتباعهم كيف وقد ورطوا أنفسهم أيضا أى لو كنا نافعين لنفعنا أنفسنا .

وهم فى هذا الجــــواب يستشعرون سيادتهم على الأتباع كذلك فيربطون هدايتهم بهدايتهم وذلك ضلال آخر والحقيقة أنهم لو اختاروا الهدى لهداهم الله ولكنهم ضلوا فأضلهم الله ، وقد سبق تحقيق معنى اسناد الهداية إلى الله والضلال .

وجملة — سواء علينا أجزعنا أم صبرنا — من جواب المستكبرين لسؤال توجه إليهم من الضعفاء — أيصبرون أم يجزعون طلبا للخلاص من هذا العذاب أى أن هذا الرد كان استئنافا عن هذا السؤال المقدر وهو يفيد استمرار العذاب على الفريقين معاً المستكبرين والضعفاء . وذلك من واقع بناء الجملة على الإبتداء والإخبار والتسوية بين الصبر والجزع والقذف بهذه التسوية فى أول الجملة لتطرق الأذهان مع أول خاطر فيزيل كل أمل فى إمكانية الخلاص من العذاب وقد امتد حكم التسوية من أول الجملة إلى نهايتها بوساطة الهمزة و — أم — حيث جردتا عن الاستفهام لمجرد التسوية ولذلك صارت الجملة خبرية فكأنه قيل . جزعنا وصبرنا سواء علينا أى سيان وقد أفرد الخبر لأنه مصدر فى الأصل .

وقال الرضى فى مثله إن — سواء — خبر مبتدأ محذوف أى الأمران سواء وقد أسندوا كلا من الجزع والصبر واستواءهما إلى ضمير المتكلم المنتظم للمخاطبين أيضا مبالغة فى النهى عن التوبيخ بإعلامهم أنهم شركاء لهم فيما ابتلوا به وتسلية لهم(١) .

وقد أكدوا هذه التسوية وعللوها بقولهم — مالنا من محيص — أى لانجاة لنا من ذلك أو لامكان ننجوا فيه من هذا العذاب فهو — محيص على المعنى الأول مصدر كالمغيب والمشيب وعلى الثانى اسم مكان كالمبيت والمصيف وبعد هذا الجدال الذى انتهى إلى اليأس الكامل من الخلاص

---

(١) روح المعانى ٢٠٧/١٣

مما هم فيه من العذاب ، تطرق إلى سببه الضلال والكفر وهو الشيطان وترقى الأسلوب إلى مصدر ضلال الفريقين — وقال الشيطان — بالعطف على جملة — فقال الضعفاء — وبذلك تتناسق الآيات وتتناسب في ترتيب دقيق ونظم معجز بديع يترقى من الضعيف إلى القوى إلى الأقوى أى من الضعفاء إلى المستكبرين إلى الشيطان ، وقول الشيطان ناشىء عن توجيه ملام صريح إليه — فلا تلوموني — ومقول القول ، إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم . . . . .

وقد قاله بعد عناء وطول محاجة وجدال وبخاصة على الكافرين كما قال وكان يوما على الكافرين عسيرا توحي بذلك كلمة — لما — وكلمة — قضى — تدل على انتهاء القضاء والفراغ من الحساب ودخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار .

وهذا القول منه والقضاء لما يقع بعد إذ هو سيكون في المستقبل وإنما عبر عن المضارع بالماضى لتحقق الوقوع فهذه أمور لاريب فيها ولاشك في وقوعها فكأنها أحداث قد وقعت بالفعل ليستشعر الناس من هذا الحوار بغضهم للشيطان ولكل من يثير في نفوسهم منازع الشر وليعلموا قبل أن يصيروا إلى هذا اليوم العظيم أن الشيطان نفسه سوف يتبرأ مما دعاهم إليه في الدنيا وأنه سيعلن أمامهم بأن ماجاء من قبل الله وعلى ألسنة الرسل إنما هو الحق والصدق .

وقد أكد ذلك ببناء جملة مقول القول على وضع معجز دقيق ، فقد بدأها بـ — إن — المؤكدة وصدر الجملة بلفظ الجلالة — الله — زيادة في الخضوع والخشوع للألوهية التي أبى واستكبر أن يطيعها في الدنيا ثم أخبر عن لفظ الجلالة السابق بجملة — وعدكم وعد الحق وفيها الإسناد مرة أخرى إلى ضمير — الله — وذلك زيادة في التأكيد والتقرير ثم أكد فعل — وعد — بذكر مصدره مضافا إلى الحق — وعد الحق .

وقد برزت هذه الجملة في حيز القالب الإسمي للدلالة على الثبوت

والدوام أى أن ما أخبرنا الله به هو الحق الثابت الذى لايتغير ولا يتبدل وأما الجملة الثانية التى يتحدث فيها عن وعده هو فقــد كانت جملة فعلية لتدل على التجدد والحدوث .

وهكذا الوعود الشيطانية تبرز حينا وتختفى حينا آخر وفقا لهوى النفس المتبع فقد قال الله فى صفة المنافقين « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون . . . . » .

وإضافة — وعد — إلى — الحق — من إضافة الموصوف إلى الصفة وذلك للمبالغة فى الاتصاف بالحق الذى لايعتريه نقض ، ولما كان الوعد يقال فى الخير والشر فإنه يدل على أن ثواب الله وعقابه حق وعدل للمطيع والعاصى كل على وفق ماقدمت يداه وذلك بخلاف وعد الشيطان فإنه كله ينصرف إلى الشر خاصة وبذلك تتحد الكلمات — وعدكم — ووعدتكم — ويختلف مدلولها من جملة إلى أخرى وفقا للغرض من السياق فعندما أضيف الوعد إلى الله كان له معنى وعندما أضيف إلى الشيطان كان له معنى آخر .

والجملتان بعد ذلك فيهما إيجاز بديع لأن المعنى أن الله وعدكم وعد الحق فوفاكم وأنجزكم ذلك ووعدتكم وعد الباطل وهو أن لا بعث ولا حساب ولئن كانا فالأصنام تشفع لكم(١) ، فأغنى قوله — وعد الحق — عن — وعد الباطل — وأغنى قوله — فأخلفتكم — عن — فوفاكم وأنجـزكم فأعطت الكلمة مدلولها المباشر فى جملتها كما أعطت مقابل مدلولها فى الجملة الأخرى بطريق المفهوم وهذا هو سحر الكلمة القرآنية فى سياقها وإذا كان البلاغيون قد ذكروا أن من محسنات الوصل بين الجمل توافقها فى الفعلية والإسمية كما فى قوله تعالى ، ويمكرون ويمكر الله — وقوله — إن

---

(١) المصدر السابق ٢٠٨

الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم — فإن هاتين الجملتين قد جاءتا على خلاف هذا المستوى حيث كانت الأولى اسمية والثانية فعلية للغرض الذى ذكرناه .

وبعد أن قرر حقيقة وعد الله ووعده أراد أن يخفف من حدة التوبيخ والملام الموجه إليه فقال — وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى — فهو ينفى أن يكون له عليهم أدنى شىء من سلطان حجة أو قهر أرغمهم على اتباعه ولكنهم بمجرد الإشارة والوسوسة أسرعوا إليه ، فالاستثناء منقطع فى قوله — إلا أن دعوتكم — لأن ما بعد حرف الإستثناء ليس من جنس ماقبله ، وقد سمى وسوسته دعوة من باب التهكم والفاء فى قوله — فاستجبتم — تدل على المسارعة فى اقتفاء خطواته وكأنه لا يريد أن يتخلص من توجيه الملام له فحسب وإنما يريد أن ينقل الملام إليهم وأنهم أحق به منه حيث سارعوا إليهم باختيارهم .

وكونه ينفى عن نفسه سلطان الحجة والدليل ويثبت لنفسه مجرد التزيين والتسويل فإن هذا الإثبات والنفى ينصرفان إلى دعوة الحــق ودعوة الباطل فقد قامت دعوة الحق على البينات والحجج ودعوة الباطل على الإغراء واللجج ، فكان ينبغى عليهم أن يؤثروا ما قام ، على الدليل القاطع والبرهان الساطع ، وهذا لون آخر من التنصل من تبعة اللائمين ، ثم تطور هذا المفهوم إلى إعلان صريح بنفى اللوم عن نفسه — فلا تلومونى ولوموا أنفسكم — فهو يسارع إلى قلب اعتقادهم إفراده باللوم دون نظر إلى اعتبار الشركة فنفى اللوم عن نفسه بالجملة الأولى — فلا تلومونى — وأثبته لهم فى الجملة الثانية — ولوموا أنفسكم — والنفى والإثبات هو عماد جملة القصر فكأنه قال . فلا تلوموا إلا أنفسكم — فإذا نظرنا إلى حقهم من اعتقاد الشركة كان القصر قصر إفراد وإذا نظرنا إلى رده عليهم بقلب اعتقادهم إفراده باللوم كان قصر قلب وهو المفهوم من النظم وكأنه

بذلك يتجاهل حكم التشريك ليلقي باللوم عليهم وحدهم دون أن يكون له فيه نصيب « وهو مبني على اعتبار أجدر الطرفين بالرد وهـو طرف اعتقاد العكس بحيث صار التشريك كالملغى لأن الحظ الأوفر لأحد الشريكين » وهذا من نوادر معاني القصر الإضافي(١).

ولما كان دفع الملام عن نفسه على الوجه السابق فيه تعريض بأنهم يتطلبون منه حيلة لنجاتهم فقد صرح بنفي هذه الإستغاثة كذلك فقال — ما أنا بمصرخكم — أي بمغيثكم من العذاب وقد وضع الجملة وضعاً بليغاً إذ قدم ضميره — أنا — بعد النفي — ما — وتقديم المسند إليه واليا النفي يفيد نفي الحدث عن المقدم خاصة دون نفي الحدث نفسه كما قال عبد القاهر « وإذا قلت ما أنا قلت هذا ، كنت نفيت أن تكون القائل له وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول »(٢).

ثم وصل نفي الاغاثة عن نفسه بنفيها عنهم كذلك — وما أنتم بمصرخي — وقد تعرض لذلك مع أنه لم يكن في حيز الاحتمال مبالغة في بيان عدم إصراخه إياهم وإعلام منه بأنه مبتلى بمثل ما ابتلوا به ومحتاج إلى الاصراخ فكيف له بإصراخ الغير.

وقد بنى الجملتين على الاسمية لافادة استمرار النفي ، ومجموع الجملتين — ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي — بيان لجملة النهي عن اللـوم السابقة.

ثم تطور في مناظرته إلى قطع العلاقة نهائيا بينهم وبينه بقوله — إني كفرت بما أشركتموني من قبل ... » على طريق الاستئناف لدفع زيادة العذاب بإظهار الخشوع لله تعالى : والكفر مجاز عن شدة التبري من

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٢٠

(٢) دلائل الاعجاز ١٥٤

إشراكهم إياه فى العبادة كما فى قوله تعالى . ويوم القيامة يكفرون بشرككم — فإن أراد من معنى فعل — كفرت — مضى الأزمنة كلها أى كنت غير راض بإشراككم إياى فهو كذب منه أظهر به التذلل وإن كان مراده من المضى إنشاء عدم الرضى بإشراكهم إياه فهو ندامة بمنزلة التوبة حيث لا يقبـــل متاب — ومن قبل — على التقديرين متعلق بـ « أشركتمونى » .

وجوز بعضهم أن يكون — من قبل — متعلقة بـ — كفرت — أى إنى كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم عليه السلام بالذى أشركتمونيه أى جعلتمونى شريكا له فى الطاعة وهو الله عز وجل . والكلام على ذلك إقرار منه بقدم كفره وأن خطيئته سابقة عليهم فلا أمل لهم فى إغاثته . فسواء دل التركيب على شدة التبرى أو على قدم كفره فالجملة تعليل لعدم الإصراخ .

وكانت النتيجة الحتمية لكل ما تقدم هو تقرير هذه الحقيقة — إن الظالمين لهم عذاب أليم — وهو تعليل آخر لعدم الإصراخ . والظاهر أنه من تمام كلام إبليس قطعا لأطماع الكفار من الإغاثة والإعانة وقيل إنه من كلام الخزنة يوم ذاك وقيل إنه إبتداء كلام من جهته تعالى وأيد بقراءة الحسن وعمرو بن عبيد — وأدخل الذين آمنو ... ... — بصيغة المضارع المسند إلى المتكلم .

وقراءة الجمهور — وأدخل — بصيغة الماضى مؤيدة لما قبله . أى من قول الخزنة فإن المدخلين هم الملائكة عليهم السلام وكأن الله لما جمع الفريقين فى قوله — وبرزوا لله جميعاً — وذكر شيئاً من أحوال الكفار ذكر ما آل إليه أمر المؤمنين من إدخالهم الجنة(١) .

---

(١) روح المعانى ٢١٢/١٣

فالواو فى — وأدخل — إما للعطف على جملة — وبرزوا — وهو للإنتقال لوصف حال المؤمنين يومئذ بمناسبة ذكر حال المشركين لأن حال المؤمنين يومئذ من جملة الأحوال المقصودة بالوصف إظهاراً لتفاوت الأحوال .

ويجوز جعل الواو للحال أى برزوا وقال الضعفاء وقال الكبراء وقال الشيطان إلخ وقد أدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات فيكون إشارة إلى أنهم فازوا بنزل الكرامة من أول وهلة(١) .

ولاحظ ترقى الأسلوب وتدرجه من مستوى إلى مستوى آخر حتى بلغ الموقف القمة . فبعد أن جمع الله الكل فى أرض المحشر بواو الجماعة وبرزوا . تنوع الأسلوب طبقا لتنوع الجماعات . فبدأ بالضعفاء الذين أهينوا فى الدنيا بالتبعية للمستكبرين وفى الآخرة بالعذاب المهين ثم بدأت اعتذارات هؤلاء المستكبرين عن دفع شيء من عــذاب الله فلا مفر ولا ملجأ مما هم فيه ثم ثلث بسبب الضلال ومصدره وهو الشيطان وقد بدأ الدفاع عن نفسه بأسلوب مرتب دقيق حيث قرر :

أولا : أن وعد الله كان هو الحق ووعده كان غروراً حيث تحقق وعد الله وبطل ما كان يعدهم به الشيطان .

وثانياً : أنهم ساروا فى ركابه ولم يكن منه قسر ولا إلجاء من حجة أو برهان على متابعته وإنما هى تزينات ووسوسات انقادوا لها باختيارهم .

وثالثاً : إذا كان الأمر كما سلف فما عليه من لائمة وإنما اللوم يقع عليهم .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٢٢/١٣

ورابعاً : أنهم إذا توجهوا إليه باللوم فلا يعنى هذا أنه يستطيع أن يغيثهم بل إنه يعانى مما يعانون منه ثم يثبت أن كل واحد أعجز من أن يغيث صاحبه — ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى .

خامساً : أنه يتبرأ مما صنعه الكفار من إشراكهم إياه لله فى الطاعة وبذلك يقطع آخر حبل يصله بهؤلاء الكافرين ويقضى على آخر لحمة تصله بهم — إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل .

سادساً : وأخيراً يحكم على نفسه وأمثاله بالحكم الذى لا مناص منه وهو — إن الظالمين لهم عذاب أليم — ويؤكد هـذا الحكم بـ « إن » واسمية الجملة ووصف العذاب بأنه مؤلم وأنه لهم وليس لغيرهم .

وبعد إنتهاء الحوار بجدله بين هذه الفرق المتلاومة جاء الأسلوب المعبر عن مشهد المؤمنين خالياً من هذا الجدال والعتاب ولذلك لم يعطف — وأدخل — على — فقال — وإنما عطف على الفعل — وبرزوا — تنزيها لهم عن الدخول فى حومة هذه الخصومات والمجادلات كما كانوا يترفعون عن ذلك فى الدنيا فقد كانوا لا يخوضون مع الخائضين فهم إذا صاروا إلى نزل الكرامة نزلوه فى دعه وهدوء وأمن وسكينة .

وقد عبر عن دخولهم فى المستقبل بالفعل الماضى — وأدخل — إشارة إلى تحقق الوقوع وأما على قراءة — وأدخل — بصيغة المضارع فيكون موافقا للمقام إذ هو حدث سيكون فى المستقبل . وبعد ذكر حدث الدخول ذكر المرشحين لهذا الدخول وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات — أى الذين جمعوا بين عمل القلب وعمل الجوارح فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وقدم ما يستكن فى القلب على

ما يعمل بالجوارح لأنه الأساس والجذر الذى يتفرع عنه الأعمال الصالحة .

كما أن الإيمان هو السبب فى قبول العمل الصالح ، وقد اقتصر على الفعل — آمن — مسنداً إلى الفاعل — واو الجماعة — لأن القصد إثبات فعل الإيمـان إلى الفاعل وأما تعلقه بمعين فلم ينص عليه فى الأسلوب للعلم به إذا لا يدخل الجنة إلا من آمن بالله رباً وبمحمد رسولا وبالقرآن دستوراً وقد تكفلت آيات أخرى بذكر ذلك كما فى وصف المتقين بأنهم — الذين يؤمنون بالغيب — وكما فى قوله — قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرق بين أحد منهم ونحن لهم مسلمون — وكما فى قوله — آمن الرسول بمـا أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنـا وإليه المصير — إلى غير ذلك من الآيات التى يذكر فيها المتعلقات . ثم إن هـــذه الآية تتحدث عن جزاء المؤمنين يوم القيامة وأما هذه المتعلقات فكانت منهم فى دار الدنيا .

وأما فى الآخرة فإنهم يحصدون أثرها من الثواب والسعادة وفى الجملة الثانية — وعملوا الصالحات — فقد نص فيها على المفعول — الصالحات — للدلالة على أنهم استحقوا هذه المنزلة بالطاعة والتقرب إلى الله تعالى . أى بفعل الأوامر واجتناب النواهى ولو حذف كلمة — الصالحات — واقتصر على الفعل والفاعل — عملوا — لربمـا يتوهم دخول معمولات الشر فى نطاق ما عملوه وهو غير مراد ثم إن كلمة — الصالحات — كلمة جامعة لخصال الخير وصفات البر فى العقائد والمعاملات

والأخلاق وغير ذلك مما دعا إليه الإسلام فهى كلمة ثرية ذات مدلول عميق تتطلبها الموقف الذى يحتاج إلى ذكر المرشحات العامة دون الدخول فى التفاصيل فلها مواطن أخرى .

كما أن هذا المفعول — الصالحات — يلقى بظله على المتعلقات التى التى حذفت من الجملة السابقة عليه لأن عمل الصالحات لا ينبع إلا عمن تعلق إيمانه بالحيثيات السابقة . بالله وبرسوله وكتابه وجاءت الجملتان — آمنوا — وعملوا — فى حيز الصلة إعلاما بظهور ذلك فيهم وشهرتهم به وأن الإيمان والعمل الصالح معلوم للجميع منهم وأنه سبب فى دخولهم الجنة وذلك من منطلق أن جملة الصلة يجب أن تكون معلومة والعمل يشمل فعل الجوارح وقول اللسان .

وفى ذلك تعريض بالكافرين الذين بطلت أعمالهم لأنها فقدت الإيمان ثم ذكر بعد ذلك نزلهم — جنات — جمع جنة والمادة — جن — تدور حول ستر الشىء عن الحاسة كما فى قوله — فلما جن عليه الليل — أى ستره وسمى القلب جنان لستره عن الحاسة ومنه المجن الذى يستر صاحبه فى الحرب ومنه — الصوم جنة — أى وقاية — والجنة كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض وقد تسمى الأشجار الساترة جنة ثم نقلت وصارت حقيقة شرعية فى دار الثواب إذ فيها النعيم المستور عنا أو على التشبيه بجنة الأرض وإن كان بينهما بون بعيد . وتنوينها إما للتنويع أو للتعظيم وما نقله عن ابن عباس رضى عنهما أنها سبع لم يقف على ثبوته الحفاظ .

ثم وصف الجنات بقوله — تجرى من تحتها الأنهار — وهذا يعتبر من الأوصاف الذاتية للجنة والتأنيث فى — تجرى — رعاية للمضاف إليه أو للفظ الجمع وإسناد الجرى إلى الأنهار ، إن أريد بالنهر نفس مجرى

الماء فالكلام مجاز عقلي علاقته المكانية وإن أريد بالنهر الماء فى المجرى كان الكلام حقيقة .

و — تحت — ظرف مكان لا يتصرف فيه بغير — من — كما نص عليه أبو الحسن والضمير فى — تحتها — للجنات — فإن .

كان المقصود أن الأنهار تجرى من تحت أشجار الجنة فهذا واضح وإن كان المراد أن الأنهار تجرى من تحت أرض الجنة فالتحتية بمعنى الجانب .

ثم قرر سرمدية هذا النعيم لأهلها بقوله — خالدين فيها — والخلود هو تبرى الشيء من اعتراض الفساد وبقاؤه على الحالة التى هو عليها وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود كقولهم للأثافى خوالد وذلك لطول مكثها لا لدوام بقائها .

والخلود فى الجنة بقاء الأشياء على الحالة التى عليها من غير اعتراض الفساد كما هنا وكما فى سائر الآيات التى تحدثت عن خلود الصالحين فى الجنة مثل — أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون — .

ثم قرر الحق تبارك وتعالى أن دخولهم الجنة كان — بإذن ربهم — أى بأمره سبحانه أو بتوفيقه وهدايته جل شأنه وكأنهم كانوا موفقين من قبل الله فى بداية أمرهم ونهايته فقد اختاروا الإيمان أولا بتوفيق الله لهم كما قال فى أول السورة — لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم — كذلك كان دخولهم الجنه بإذنه تعالى.

وفى التعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار مزيد اللطف بهم ودلالة على توالى عطاءات الربوبية لهم ومددها الذى لا ينقطع عنهم فى الدنيا والآخرة .

وعلى ذلك فقوله : — بإذن ربهم — متعلق بـ أدخل — على قراءة الجمهور .

وأما على قراءة الحسن وابن عبيد فمتعلق بما بعده أى يحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم .

وبعد ذكر ما يتلذذون به من النعيم المادى ذكر النعيم المعنوى أو النعيم المسموع ليحصل لهم الإغتباط بكل الحواس حتى السمع فقال — تحيتهم فيها سلام — والتحية التكرمة بالحال الجليلة وأصلها أحياك الله تعالى حياة طيبة وهى مضافة إلى المفعول ، والفاعل إما الله تعالى أى تحية الله إياهم ذلك كما فى قوله — سلام قولا من رب رحيم — وإما الملائكة كما فى قوله — والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم —

وقيل يجوز أن يكون مما أضيف فيه المصدر لفاعله ومفعوله معاً إذا كان المعنى يحيى بعضهم بعضاً(١) .

ولما كان قوله = خالدين فيها — يدل على البقاء والدوام جاء التعبير عن التحية بالجملة الإسمية إشارة إلى ثبوت واستمرار هذه التحية لهم ماداموا خالدين فيها وكأنها لا تنقطع عنهم أبداً .

وهذا الخلود وتلك التحية ذكراً بعد وصف الجنة مقصوداً بهما سكانها ونلحظ ترتيباً دقيقاً فى هذه الآية حيث ذكرت بعد حدث الدخول — وأدخل — الداخلين ومن شحاتهم — الذين آمنوا وعملوا الصالحات — ثم — مكان الدخول — جنات — وصفته — تجرى من

---

(١) روح المعانى ٧٥/١١

تحتها الأنهار — ثم ما يلقاه الداخلون فيها فوق هذه المناظر المبهجة وهو الخلود — والتحية — تحيتهم فيها سلام — .

والسلام والسلامة ، التعرى من الآفات الظاهرة والباطنة والسلامة الحقيقة لاتكون إلا فى الجنة إذ فيها بقاء بلافناء وغنى بلافقروعز بلاذل وصحة بلاسقم .

وقد بنيت الجملة بناء بليغاً لتقديم هذه التحية على أبلغ وجه ، فتقديم الجار والمجرور — فيها — على قوله — سلام — إشارة تخصيص هذه الدار بكونها دار السلامة والتعريض بأن غيرهـــا دار الندامة مثل النار وأمادار الدنيا فإن المؤمنين لم يسلموا من محنها و بلائها وماذلك إلالتمحيص إيمانهم وليزدادوا إيمانهم مع إيمانهم .

ونظير هذا التقديم — لافيها غول — وصفا لخمر الجنة فإن تقديم — فيهـا — على — غول — للتعريض بخمر الدنيـا التى تغتـــال العقول فهى حرام .

ولذلك لم يقدم فى قوله تعالى — لاريب فيه — وصفا للكتاب لأن الغرض مجرد نفى الريب—الشك — عنه دون التعرض لغيرة من الكتب إذ لو قدم وقيل — لا فيه ريب — لا حتمل أن غيره من الكتب السماوية فيهـا شك وهو غير مراد ولا يوجد ذلك فيهـا أصـلا قبـل تحريفها .

ثم إن فى تنكير — سلام — معنى جليلانبه إليه علماء البيان وهو إفادة معنى التقليل وهذا القليل لما كان وارداً من الله عز وجل فإنه يكون كثيراً فإن القليل من الله كثير كما فى قوله تعالى — وعد الله الذين آمنوا وعلوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر — فالتنكير فى — رضوان

— للتقليل لأن المعنى وقليل من رضوان الله أكبر من كل نعيم، وهذا هو سحر البلاغة القرآنية.

— يقول رجال هذا الفن إن تنكير السلام في قصة يحى عليه السلام لأنه وارد عليه من جهة الله تعالى وسلام أى سلام من جهة الله مغن عن كل تحية ولهذا لم يرد من جهة الله إلا منكراً كقوله تعالى — سلام قولا من رب رحيم — وقوله — أهبط بسلام منا — وقوله — سلام على نوح وقوله سلام على الياسين.

وأما تعريف السلام فى قصة عيسى عليه السلام لأنه ليس وارداً على جهة التحية من الله تعالى وإنما هو حاصل من جهة نفسه وفى تعريف هذا السلام رمز آخر وهو الإشعار بذكر الله تعالى لأن السلام اسم من أسمائه وفيه تعرض لطلب السلامة وقالوا إنك إذا ناديت الله باسم من أسمائه فإنك متعرض لما اشتق منه ذلك الإسم تقول فى طلب الحاجة يا كريم وفى سؤال المغفرة ياغفور »(١).

فالقليل من الله كثير كما قال الشاعر :

قليـــل منك يكفينى ولـكن
قليـل لا يقـــال له قليـل (٢)

والوصول إلى هذا المكان الذى يلقون فيه تحية السلام هو الغاية التى يرجوها كل عبد منيب إلى ربه.

---

(١) مذكرة فى علم المعانى ١٥
(٢) أسرار التكرار فى القرآن ١٣٦

المعنى الإجمالى :

يخبر الحق تبارك وتعالى عن مشهد من مشاهد القيامة عندما يبرز الخلق لله تعالى من قبورهم للحساب والجزاء فى يوم لاينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فيقف الكذبة على الله والرسل والذين كانوا يظنون عند ارتكاب الفواحش سراً أنها تخفى على الله تعالى فإذا كان يوم القيامة انكشفوا له تعالى وعلموا أنه لا تخفى عليه خافية فيتلاومون ويتجادلون ويوبخ ضعاف الرأى والأذناب المستكبرين الذين ضلوا وأضلوا ولكنهم لم يجدوا حيلة للخلاص من عذاب الله وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار»(١).

ويروى المحدثون أن رسول الله ﷺ قال : « يقول أهل النار هلموا فلنصبر فيصبرون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا ، هلموا فلنجزع فيبكون خمسمائة عام فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا — سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص — ثم يمتد هذا الجدال إلى رئيس الكفرة وسبب الضلالة وهو الشيطان الرجيم .

فقد روى عن رسول الله ﷺ — أن الكفار حين يروا شفاعة النبى ﷺ للمؤمنين يأتون إبليس فيقولون له قد وجد المؤمنون من يشفع لهم فقم أنت فاشفع لنا فإنك أنت أضللتنا فيقوم فيثور من مجلسه أنتن ريح شمها أحد فيقول ماقص الله تعالى — .

---

(١) سورة البقرة الآيات ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧

وقد حكى الله تعالى هذا الحوار الذى سيكون فى اليوم المشهود ليكون تنبيها للسامعين وحثالهم على النظر فى عاقبتهم والإستعداد لما لابد منه وأن يتصوروا ذلك المقام الذى يقول فيه الشيطان فيخافوا ويعملوا ماينفعهم فى ذلك اليوم .

كما أن هذا الدفاع من الشيطان يثير بغضه فى نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه لأن هذا الخطاب الذى يخاطبهم به الشيطان ملىء بإضماره الشر لهم فيما وعدهم فى الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيده لهم وسخريته بهم فيورث ثم ذلك كراهية له وسوء ظنهم إنما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله وذلك أصل عظيم فى التربية (١) .

وبجوار هذا المشهد الكالح والتلاوم الحزن وبأس المصير الذى لامفر منه يوجد محفل التكريم للمؤمنين الذى نأوا بأنفسهم عن تبعية البشر وأسلموا وجوههم لله رب العالمين ودخلوا نزل الكرامة وهم بمنأى عن اللغط والجدال والتلاوم ، دخلوا الجنات حيث الأنهار والأشجار والخلود وتحية الله لهم بالسلامة من كل ما يعكر عليهم صفو هذا النعيم المقيم ومن كل ما يتطرق إلى أبدانهم فيحول بينها وبين لذة التمتع بهذه المناظر البهيجة : وتلك عقبى المتقين .

ولا شك فى أن تجاور الوعيد والوعد ما يدفع النفوس إلى تجنب ما يجرها إلى ما يقتضيه الوعيد ويحثها على العمل الصالح الذى يهيئها إلى جنى ثمار الوعد فى جنات النعيم ، فهذا التقابل له أثره الحى فى إثارة المعانى والتنافس على الإنضمام إلى أحسن المشهدين ، فالضد يظهر حسنه الضد كما يقولون وهذا مقصد عظيم من مقاصد المقابلة الأسلوبية فى القرآن الكريم .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢١٨/١٣

قال الله تعالى .

« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء توتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء — ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧

كيف . لفظ يسأل به عما يصح أن يقال فيه شبيه وغير شبيه كالأبيض والأسود والصحيح والسقيم ولهذا لا يصح أن يقال فى الله عز وجل كيف . وكل ما أخبر الله تعالى بلفظه كيف عن نفسه فهو استخبار على طريق التنبية للمخاطب أو التوبيخ أوالتعجب من شأنه كما فى قوله — كيف تكفرون بالله — كيف يكون للمشركين عهد — فانظر كيف بدأ الخلق .

وضرب المثل هو من ضرب الدراهم وهو ذكر شىء أثره يظهر فى غيره — واضرب لهم مثلا .

الكلمة ، اللفظ الموضوع لمعنى مفرد وقد تطلق الكلمة ويراد منها ما يدل عليه الكلام مثل قولهم — كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص أى لا إله إلا الله وقوله عليه الصلاة والسلام . أفضل كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . يريد قصيدته التى أولها .

ألا كل شىء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

والكلام يقع على الألفاظ المنظومة وعلى المعانى التى تحتها مجموعة . أو كما قال النحويون — اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها — ويتركب

الكلام من اسمين — زيد قائم — أو فعل واسم — قام محمد والكلم — اسم جنس واحده كلمة وهى إما اسم وإما فعل وإما حرف وهو نوعان — اسم جنس جمعى وهو ما يدل على أكثر من اثنين ويفرق بينه وبين واحدة بالتاء وهى تكون غالبا فى المفرد — بقر وبقرة وشجر وشجرة وكلم وكلمة .

واسم جنس إفرادى وهو ما يصدق على القليل والكثير واللفظ واحد مثل — ماء وذهب وخل .

ومنه — الكلم التأثير المدرك بإحدى الحاستين . فالكلام مدرك بحاسة السمع والكلم — بحاسة البصر . وكلمته جرحته جراحة بأن تأثيرها ولاجتماعهما قال الشاعر :

والكلم الأصيل كأرعب الكلم

فالكلم الأول — جمع كلمة والثانى الجراحات .

قال ابن مالك :

كلامنا لفظ مفيد كاستقم	اسم وفعل ثم حرف الكلم
واحده كلمة والقول عم	وكلمة بها كلام قد يؤم(١)

طيبة . يقال طاب الشيء يطيب طيبا فهو طيب قال تعالى . فانكحوا ما طاب لكم من النساء — وأصل الطيب ما تستلذه الحواس والنفس والطعام الطيب فى الشرع ما كان متناولا من حيث ما يجوز وبقدر ما يجوز ومن المكان الذى يجوز فإنه متى كان كذلك كان طيبا عاجلا وآجلا لا يستوخم وإلا فإنه وإن كان طيبا عاجلا لم يطب آجلا وعلى ذلك قوله — كلوا من طيبات ما رزقناكم — كلوا من الطيبات واعملوا صالحا .

---

(١) شرح ابن عقيل ١٣/١

والطيب من الإنسان من تعرى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الأعمال وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال وإياهم قصد بقوله — الذين تتوفاهم الملائكة طيبين — هب لي من لدنك ذرية طيبة .

أصلها — أصل الشيء قاعدته التي لو توهمت مرتفعة لارتفع بارتفاعه سائره لذلك قال تعالى — أصلها ثابت وفرعها في السماء .

والثبات ضد الزوال ويقال ذلك للموجود بالبصر والبصيرة . فلان ثابت عندي ونبوة النبي عليه الصلاة والسلام ثابتة . والإثبات والتثبيت تارة يقال بالفعل كالذي يخرج من العدم إلى الوجود نحو — أثبت الله كذا — وتارة لما يثبت بالحكم نحو أثبت الحاكم على فلان كذا وتارة لما يكون بالقول .

أكلها . الأكل تناول المطعم . والأكل لما يؤكل بضم الكاف وسكونه والأكلة للمرة والأكلة اللقمة . وأكيلة الأسد فريسته . وفلان استوفى أكله كناية عن انقضاء الأجل وأكل فلان فلانا . أغتابه وكذلك أكل لحمه — أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا .

حين — الحين وقت بلوغ الشيء وحصوله وهو مبهم المعنى ويتخصص بالمضاف إليه نحو قوله تعالى — ولات حين مناص — ومن قال . حين فيأتي على أوجه ،

للأجل كقوله تعالى — ومتعناهم إلى حين .

وللسنة كقوله تعالى — تؤتي أكلها كل حين .

وللساعة كقوله تعالى — حين تمسون وحين تصبحون ،

وللزمان المطلق كقوله تعالى — هل أتى على الإنسان حين من الدهر .

ويقال أحينت بالمكان أقمت به وحان حين كذا أى قرب أوانه والحين — الموت والهلاك .

يتذكرون — الذكر يطلق إما على استحضار الشيء وإما على حفظه . وقيل الذكر ذكران . ذكر بالقلب وذكر باللسان وكل واحد منهما ضربان ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ .

فمن الذكر عن نسيان — ما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .

ومن الذكر بالقلب واللسان — فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا .

خبيثة . الخبث والخبيث ما يكره رداءة وخساسة محسوسا كان أو معقولا وأصله الردىء الجارى مجرى خبث الحديد كما قال الشاعر .

سبكناه ونحسبه لجينا فأبدى الكير عن خبث الحديد

وذلك يتناول الباطل فى الاعتقاد والكذب فى المقال والقبيح فى الفعال .

قال تعالى — ويحرم عليهم الخبائث — أى مالا يوافق النفس من المحظورات وقوله تعالى — ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث — فكناية عن إتيان الرجال .

وقال تعالى — ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب أى الأعمال الخبيثة من الأعمال الصالحة والنفوس الخبيثة من النفوس الزكية — ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب — أى الحرام بالحلال .

وقوله — قل هل يستوى الخبيث والطيب — أى الكافر والمؤمن والأعمال الفاسدة والأعمال الصالحة .

والكلمة الخبيثة إشارة إلى كل كلمة قبيحة من كفر وكذب ونميمة وغير ذلك ، وقال ﷺ — المؤمن أطيب من عمله والكافر أخبث من عمله .

اجتثت — اقتلعت من أصلها . وحقيقة الإجتثاث أخذ الجثة وهى شخص الشىء كله — فوق — يستعمل فى المكان والزمان والجسم والعدد والمنزلة وذلك أضرب .

الأول : بإعتبار العلو نحو — ورفعنا فوقكم الطور — ويقابله تحت — قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم .

الثانى : باعتبار الصعود والحدور — كقوله تعالى — إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم .

الثالث : باعتبار العدد كقوله تعالى — فإن كن نساء فوق اثنتين .

الرابع : باعتبار الكبر والصغر كقوله تعالى — إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها — أى فوقها فى الصغر أو الكبر .

الخامس : باعتبار الفضيلة الدنيوية كما فى قوله — ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات .

أو الأخروية كما فى قوله — والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة .

السادس : باعتبار القهر والغلبة كقوله تعالى — وهو القاهر فوق عباده — ومنه فاق فلان غيره إذا علاه . والإفاقة . رجوع الفهم إلى الإنسان بعد السكر أو الجنون والقوة بعد المرض والإفاقة رجوع الفهم

والفواق ما بين الحلبتين وقوله — مالها من فواق — أى من راحة ترجع إليها وقيل مالها من رجوع إلى الدنيا .

قرار — قر فى مكانه يقر قرارا إذا ثبت ثبوتا جامدا وأصله من القر وهو البرد وهو يقتضى السكون والحر يقتضى الحركة .

وقوله — مالها من قرار — أى ثبات وقال الشاعر :

ولا قرار على زأر من الأسد

أى أمن واستقرار . ويضاده الإنكار. وأقر بالحق اعترف به وأثبته على نفسه (١) .

نظرات فى نظم الآيات :

بعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى حالين متباينين من أحوال الخلق يوم القيامة . حال الأشقياء وماهم فيه من التلاوم والجدال والتوبيخ ومحاولة التخلص من تبعة المسئولية ووقوف الشيطان يتبرأ من الشرك وأهله فى محاولة ذليلة أمام الله تعالى ، والاقرار بأن الظالمين لهم عذاب أليم .

وحال المؤمنين البعيدين عن هذا اللغط والذين يدخلون الجنة محفوفين بالتحية والتكريم .

فقد ترقى الأسلوب من هذه التقريرات إلى تجسيد هذه الأحوال فى فى صورة مثلين ضربهما للكلمة الطيبة والكلمة الكافرة . وهذه الصور التمثيلية لها أثرها العظيم فى تشخيص المعانى وتثبيتها فى النفوس واستحضارها

---

(١) مفردات الراغب فى مواد الكلمات

فى القلوب حيث تبرز المعانى شاخصة أمام العين التى تحفظ على النفوس صور الأشياء . ولذلك قال عبد القاهر . واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من قدرها وشب من نارها وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفا .

ومن أسباب ذلك كما قال — أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفى إلى جلى وتأتيها بصريح بعد مكنى وأن تردها فى الشىء تعلمها إياه إلى شىء آخر هى بشأنه أعلم وثقتها به فى المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى مايعلم بالاضطرار والطبع لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام وبلوغ الثقة فيه غاية التمام كما قالوا . ليس الخبر كالمعاينة ولا الظن كاليقين فلهذا يحصل بهذا العلم هذا الأنس أعنى الأنس من جهة الإستحكام والقوة .

وضرب آخر من الأنس وهو مايوجبه تقدم الإلف .

ومعلوم أن العلم الأول أتى النفس أولا من طريق الحواس والطباع ثم من جهة النظر والروية فهو إذن أمس بها رحما وأقوى لديها ذمما وأقدم لها صحبة وآكد عندها حرمة وإذا نقلتها فى الشىء بمثله عن المدرك بالعقل المحض وبالفكرة فى القلب إلى مايدرك بالحواس أو يعلم بالطبع وعلى حد الضرورة فأنت كمن يتوسل إليها للغريب بالحميم وللجديد الصحبة بالحبيب القديم ... »(١)

---

(١) أسرار البلاغة ١ / ٢٢٥ .

ولذلك كانت هذة الأمثال يضربها الله للناس لعلهم يتذكرون .

وقد صدرت بالاستفهام — ألم — الذى ينبه المخاطب ، ويوقظ فكره فى محاولة نفسية للتعرف على موقعه من هـــذا الاستفهام والإجابة التى ينتزعها من داخله . كأثر لإثارة معانيه فى نفسه .

وهذا الاستفهام فى — ألم تر — إنكارى نزل المخاطب منزلة من لم يعلم فأنكر عليه عدم العلم أو هو مستعمل فى التعجب من عدم العلم بذلك مع أنه مما تتوفر الدواعى على علمه أو هو للتقرير ومثله فى التفرير كثير وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك .

والخطاب قيل للرسول ﷺ وقيل لكل من يصلح للخطاب والرؤية علمية معلق فعلها عن العمل بما وليها من الاستفهام بـ — كيف — وإيثار — كيف — هنا للدلالة على أن حالة ضرب هذا المثل ذات كيفية عجيبة من بلاغته وانطباقه .

وإسناد — ضرب — إلى — الله لكونه مما أوحى الله به إلى رسوله ﷺ وكلمة — مثلا — مفعول لضرب بناء على أنه يتعدى إلى مفعول واحد و — كلمة — بدل اشتمال أو كل من كل من — مثلا — و — كشجرة طيبة — صفة ا — كلمة — أو خبر لمبتدأ محذوف أى هى كشجرة.

وجوز أيضاً أن يكون — ضرب — متعديا إلى مفعولين إما لكونه بمعنى جعل واتخذ أو لتضمينه معناه و — كلمة — أول مفعولية قد أخر عن ثانيهما أعنى — مثلا — لئلا يبعد عن صفته التى هى — كشجرة —

وقرىء — كلمة — بالرفع على الإبتداء لكونها نكرة موصوفة والخبر — كشجرة ويجوز أن تكون خبراً لمبتدأ محذوف و — كشجرة — صفة أخرى(١)

---

(١) روح المعانى ٩٣/ ٢١٢

والاستفهام الأول — ألم تر — يوقظ الذهن لمعرفة مايرد بعده من الكلام وذلك مثل قولهم — ألم تعلم — ولم يكن هذا المثل مما سبق ضربه قبل نزول الآية بل الآية هى التى جاءت به فالكلام تشويق إلى علم هذا المثل وصوغ التشويق إليه فى صيغة الزمن الماضى الدال عليها حرف — لم — التى هى لنفى الفعل فى الزمن الماضى والدال عليها فعل ضرب حرف بصيغة الماضى لقصد الزيادة فى التشويق لمعرفة هذا المثل وما مثل به(١)

والاستفهام الثانى — كيف — والتى يسأل بها عن الحال لأن المثل مسوق لغرض تجسيد أحول المؤمنين والكفار أو الإيمان والكفر ولما كانت هذه الأحوال عجيبة فقد اقتضى الأمر إيقاظ الذهن وإصاغة السمع لها بوساطة الاستفهام الأول . ولذلك كان الاستفهام الثانى محدد المسار فعل الرؤية المذكور فى ظلال الإستفهام الأول إذ أن الفصل معلق بما بعده من قوله — كيف ضرب الله مثلا — ثم حدد مصدر هذا الضرب بكونه من الله تعالى ، وذلك يوحى بعظمته وفخامته ووجوب تفتح القلب لمعرفته والعمل بمقتضى هذه المعرفة والمثل لما كان معنى يتضمن عدة أشياء صح الاقتصار فى تعليق — ضرب — به على وجه الإجمال . ثم جاءت الجملة المفسرة لهذا الإجمال بعده وهى — كلمة طيبة

وذهب المفسرون إلى أن المراد بالكلمة الطيبة هى قول . لا إله إلا الله محمد رسول الله أو القرآن أو دعوة الإسلام ، أو التسبيح والتحميد أو الثناء على الله تعالى أو كل كلمة حسنة أو جميع الطاعات أو المؤمن نفسه .

وإطلاق الكلمة على هذه المعانى من باب المجاز المرسل الذى علاقته الجزئية لأنه لايقصد بالكلمة اللفظ المفرد وإنما كما قيل — وكلمة بها

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ٣٢٣

كلام قد يؤم ، فالمقصود هذه المعانى التى تدل عليها كما أن إطلاقها على المؤمن نظير إطلاقها على عيسى عليه السلام كما فى قوله — وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه — وقوله — إن الله يبشرك بكلمة منه — والكلمة هى جملة — كن فيكون — .

ولا مانع عندى أن يكون المراد من الكلمة الطيبة هو كل ماسبق إذ أن الإنسان لايدخل فى الإسلام إلا اذا استمع إلى دعوته وأعلن شعارها أى كلمة التوحيد — ويقوده ذلك حتما إلى الإيمان بالقرآن والعمل بما فيه من فعل الطاعات وتسبيح الله والثناء عليه ولا شك فى أن طريق الإيمان هذا هو الذى يصنع المؤمن الحق طيب القلب والقالب .

ولعل فى تنكير — كلمة — مايشير إلى تنوعها وشمولها لهذا كله وكونها من الله يوحى بعظمتها وجلال قدرها ووصفها بالطيب الذى يمتع النفس والحواس مايضفى عليها جمال المظهر وطلاوة المخبر لأنها كلمة نافعة .

فالطيب استعير للنفع لحسن وقعه فى النفوس كوقع الروائح الذكية وهذه الكلمة الطيبة قد شبهت بشجرة موصوفة بعدة صفات :

الأولى : أنها طيبة المنظر والرائحة والثمرة والمنفعة ، وباجتماعها يحصل كمال الطيب :

الثانية : كون — أصلها ثابت — وهو صفة كمال لهـــا لأن الشىء الطيب إذا كان فى معرض الزوال فهو وإن كان يحصل الفرح بوجدانه إلا أنه يعظم الحزن بفقدانه وأما إذا لم يكن كذلك فإنه يعظم السرور به من غير ماينغص ذلك .

الثالثة . كون — فرعها فى السماء — وهو أيضاً صفة كمال لها لأنها متى

كانت مرتفعة كانت بعيدة عن عفونة الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمرتها نقية خالصة عن جميع الشوائب .

الرابعة : كونها — دائمة الثمر — وذلك أدوم للانتفاع بها .

الخامسة ، كون عطائها — باذن ربها — وذلك مايجعله حسنا كثيراً مباركا

وتلحظ أن صفات المشبه به قدزادت على صفات المشبه لقيام المشبه به بدور الموضح والمشخص للمشبه وكل صفة ذكرت فى جانب المشبه به لها نظيرها فى المشبه، وإن اقتصر على أهم جزء فيه وهو — الكلمة الطيبة فإذا اعتبرنا أن المشبه هو كلمة التوحيد ، فإن هذه الكلمة لها من الفضل والتعظيم ما جعلها ذات منفعة سرمدية لصاحبها فى الدنيا والآخرة حيث تشرح صدره ويطمئن قلبه وتقر عينه بالنجاح بها فى الدنيا والفلاح فى الآخرة ، وهذه هى قمة المنفعة وغاية الكمال ولذلك كان أول وصف للشجرة هو الوصف بكونها — طيبة — لدلالته على جمال الظاهر والباطن وبذلك ينسجم وصف المشبه مع وصف المشبه به ثم تتابعت الجملة تفسر وتؤكد حيثيات هذه الصفة — طيبة — فترقى الوصف من الأدنى إلى الأعلا مبتدئا بالأصل وهو الجذر ووصف بالثبات وهو ضد الزوال والثبات هنا لما يرى بالبصر وفى جانب المشبه لما يرى بالبصيرة فالإيمان ثابت فى قلوب المؤمنين والجذر ثابت فى مكانه من الأرض ثم ثنى بوصف الفروع — وفرعها فى السماء — أى غصونها التى تفرعت على الأصل والمراد بالفرع — المفرد — الفروع — الجمع — لأنه مضاف والإضافة حيث لاعهد ترد للإستغراق أو لانه مصدر بحسب الاصل وإضافته على مااشتهر تفيد العموم فكأنه قيل وفروعها . ثم إن هـــذه الفروع ممتدة إلى أعلا وذلك مايزيد الشجرة بهجة وحسن منظر ويناظر

هذه الفروع فى جانب المشبه ما يتفرع على أصل الإيمان أو كلمة التوحيد من عمل الطاعات والقربات وما يصاحب ذلك من تحميد الله وتلاوة كتابه وسائر الطاعات وبعد ذكر الفروع جاء الحديث عن الثمار — تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها — فهى ثمرة الأزهار التى تكون فى الفروع ولا شك فى أنها ثمرة تروق وتعجب طالما أن شجرتها نابتة بهذا الوصف ويناظرها فى جانب المشبه ثواب الله والجزاء الأوفى الذى يعطيه لعباده المؤمنين السائرين على الصراط المستقيم ثم إن هذا الإثمار كان مباركا لأنه بإذنه تعالى أى بأمره وإرادته فكل ميسر لما خلق له ، وذلك يعطى معنى زيادة الثواب ومضاعفته الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم .

وإن اعتبرنا أن المشبه هو المؤمن فإن التمثيل ينطبق عليه تمام الإنطباق وذلك أن أول صفة يتصف بها المؤمن أنه رجل نافع خدوم لا يفتر عن مساعدة الآخرين ومشاركتهم فى كل ما يسعدهم ويأخذ بأيديهم إلى شاطىء الأمان وذلك من منطلق أن المؤمنين إخوة وحب لأخيك كما تحب لنفسك وهذه هى معنى الطيبة التى يتصف بها وكذلك كل شجرة ثمرها طيب فإنها تكون كثيرة النفع عظيمة الإسعاد والإمداد لكل من يقصدها ويتفيأ ظلالها وبخاصة إذا كانت على الهيئة التى وصفت بها فى الآية من كون أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

وإسناد الإيتاء إلى الشجرة فى قوله — تؤتى أكلها كل حين — إسناده مجاز مرسل علاقته المحلية أو السببية ،

وقرأ أنس بن مالك ،كشجرة طيبة ثابت أصلها — وقراءة الجماعة على الوصل وذكروا أنها أقوى معنى .

قال ابن جنى . لأنك إذا قلت ثابت أصلها فقد أجريت الصفة على الشجرة وليس الثبات لها إنما هو للأصل والصفة إذا كانت فى المعنى لما هو من سبب الموصوف قد تجرى عليه لكونها أخص بما هى له لفظا ومعنى فالأحسن تقديم الأصل عناية به ومن ثم قالوا زيد ضربته فقدموا المفعول عناية به حيث إن الغرض ليس ذكر الفاعل وإنما هو ذكر المفعول ثم لم يقنعو بذلك حيث أزالوه عن لفظ الفضلة وجعلوه رب الجملة لفظا فرفعوه بالإبتداء وصار ضربته ذيلا له وفضله ملحقة به وكذلك مررت برجل أبوه قائم أقوى معنى من قولك مررت برجل قائم أبوه لأن المخبر عنه بالقيام إنما هو الأب لا الرجل مع ما فى التقديم هنا من حسن التقابل والتقسيم إلا أن لقراءة أنس وجها حسنا وهو أن — ثابت أصلها — صفة الشجرة وأصل الصفه أن تكون اسما مفردا لأن الجملة إذا وقعت صفة حكم على موضعها باعراب المفرد وذاك لم يبلغ مبلغ الجمله بخلاف — أصلها ثابت — فإنه جملة قطعا — .

وقال ابن تمجيد — هو أنه كوصف الشىء مرتين مرة صورة ومرة معنى مع ما فيه من الإجمال والتفصيل . كما فى — ألم نشرح لك صدرك — فإنه لما قيل — كشجرة طيبه ثابت — تبادر الذهن من جعل — ثابت — صفة لشجرة صورة أن شيئا من الشجرة متصف بالثبات ثم لما قيل — أصلها — علم صريحا أن الثبات صفة أصل الشجرة »(١) .

والمشبه هو الهيئة الحاصلة من جمال الإيمان المستقر فى القلب والمتعة الحاصلة للنفس والسعادة المسيطرة على الحس والمنافع المتتالية فى كل

---

(١) روح المعانى ٢١٣/١٣

وقت، بهيئة شجرة عظيمة راسخ أصلها جميل منظرها عالية فروعها وفيرة ثمارها طيب أكلها .

ووجه الشبة هو الهيئة الحاصلة من وجود شيء عظيم مستقر يهيج له منافع متتالية .

وهذا هو التمثيل المجسد للإيمان الثابت فى قلوب المؤمنين وما يتفرع عنه وما ينبنى عليه من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية التى تصعد إلى السماء وما يترتب على ذلك من ثواب الله تعـــالى ورضاه هو الثمرة التى يجنيها المؤمنون فى كل حين .

ولعل تقديم هذا المثل على لاحقه لقربه من ذكر أحوال المؤمنين فى الآية السابقة — وأدخل — لأنهم هم الذين أستقر الإيمـان فى قلوبهم وأخلصوا لله فى أعمالهم، فكان هذا المثل تجسيدا حيـــا لرحلة الإيمان من وقت زرعه فى القلب حتى جنى ثمرته فى الجنة .

ثم إن الفطرة بطبيعتها نقية خالصة فما من مولود إلا يولد على الفطرة وأما الشرك والكفر فطارىء على الفطرة فكأن هـذا الترتيب الذكرى صدى للترتيب الوجودى أو الواقعى وهذا ما ينبغى أن يحرص عليه كل إنسان بأن يظل على طبيعته التى فطره الله عليها .

وأما تغيير هذه الفطرة وتبديل جوهر الإيمان من القلب فهو ما يجب أن ينفر عنـه الإنسان ويشمئز قلبه منـه كما ينفر من الأشجار الخبيثة . وهو ما حرص على تجسيده التمثيل الثانى — ومثل كلـة خبيثة كشجرة خبيثة .

وجملة — ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون — تبين فائدة التمثيل وهو رجاء التذكر لأن فى ضرب الأمثـال زيادة إفهام وتذكير

وتصوير للمعانى العقلية بصورة المحسوسات وبذلك يحصل الفهم التام والوصول إلى المطلوب ولذلك لم يقل — لعلهم يتفكرون — مثلا وإنما خص التذكير لأنه استحضار لشيء غائب بشيء حاضر والشيء الحاضر هو المحسوس فهو الذى يقود الإنسان إلى الإيمان . وكأن التذكر يعيد الإنسان إلى صوابه ورشده .

وليس هذا خاصا بالمؤمنين وإنما هو عام لجميع الخلق المبعوث إليهم سيد الخلق محمد عليه الصلاة والسلام ولذلك كانت الأمثال — للناس — ليستحضروا بها الإيمان وليداوموا على حفظ هذا الإستحضار .

والكلمة الخبيثة هى كلمة الكفر أو الشرك أو الكذب أو كل كلمة لا يرضاها الله تعالى .

وقرىء — مثل — بالنصب عطفا على — كلمة طيبة — والأبلغ أن تكون مرفوعة إشارة إلى استقلال المثلين وللتوسط بين الكمالين .

والكلمة الخبيثة مبتورة النفع كخبث الحديد الذى يرمى عنه عند صهره فلا فائدة منهـا إلا حصد المودات وإهلاك الطاعات ثم إنها كلمة مضطربة لا أصل لها فى الصحة والإعتقاد فهى إذن كلمة منبوذة أو ينبغى أن تكون كذلك فهى علامة للاشمئزاز النفس وسواد الحس .

ولذلك صح من هذه الحيثيات أن تشبه بالشجرة الخبيثة أى الخبيثة من حيث المنظر والطعم والرائحة ثم إن هذه الشجرة لا أصل لها ولا ثبات — أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار — .

فهذه الجملة صفة للشجرة وهى تصور اقتلاعهـا من أصلها لضررها وهذا الإقتلاع لم يكن لعضو أو لفرع منها وإنمـا كان لذاتها برمتها .

كما يوحى بذلك الفعل — أجتثت — فالإ جتثاث . قطع الشيء كله مشتق من الجثة وهى الذات وهذا التصوير يفضى إلى انعدام الحس فى هذه الشجرة وكأنها صارت جثة هامدة ويزيد هذه الشجرة هشاشة وضعفا أن عروقها ليست غائرة فى الأرض وإنما هى - من فوق الأرض -.

ولذلك كانت منعدمة الإستقرار — مالها من قرار — فهذا تأكيد لمعنى الإجتثاث .

وهكذا حال الكلمة الخبيثة ففيها من القبح والأضطراب وكدرة التفكير وضيق الصدر والضرر المتعاقب منها ماجعلها كالشجرة الخبيثة بأوصافها السابقة فهى على الضد من الكلمة الطيبة ولذلك كان التمثيلان متقابلين .

فالكلمة الطيبة تقابل الكلمة الخبيثة والشجرة الطيبة تقابل الشجرة الخبيثة وأصلها ثابت وفرعها فى السماء تقابل أجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

وقوله — تؤتى أكلها كل حين — لم يذكر له مقابل أكتفاء بذكره فى المثل الأول أو لأن الشجرة الطيبة لما كان لها ثمرة ينتفع الناس بها ويتحقق الرض من وجودها كان الأسلوب صدى لهذا الوجود الواقعى وأما الشجر الخبيثة فهى وإن كان لها ثمر إلا أنه عديم النفع ولا أثر له فى الوجود فكأنه غير موجود فجاء الأسلوب خاليا من ذكره إشارة إلى عدم النفع والإهمال والترك ولذلك سقط المقابل من الأسلوب .

ولما كان هذا التمثيل قد دار قطبه على تصوير الإيمـــان والكفر ودرجة كل منهما فى الثبات والاسعاد والنفع فقد إستشرفت النفوس لمعرفة مظاهر ذلك فى الفريقين المؤمن والكافر .

فجاءت الآية التالية تجيب عن هذا بطريق الإستئناف البيانى الناشىء عن التمثيل السابق فقال — يثبت الله الذين آمنـــوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا — .

فهذه الجملة لها جذور وروابط فى الكلام السابق الذى يعتبر كالأم لها وهى متولده عنـه — وهكذا يتوالد الكلام وتتناسل الجمل ثم إن فى طى هذة الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصارة ودمجه وأكتنازه ولو ذهبت إتبسط ما حقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب جمـــلة قد تطول أو تقصر ولكنها أضمرت فى ثلك الجملة وأكتفى فى الإبانة عنها باللمحة الدالة والإيماضة السريعة التى أنعكست فى تحريك السامع واستثارة حسه (١) .

وهكذا تتوالى الآيات وتترابط بهـــذا الوصل الخفى الذى يفصح ما ظهر منه على ما أضمر فيه .

وهذا من جمال البلاغة القرآنية .

وقد ابتدأت الجملة بالفعل المضارع — يثبت — لأنهم يعيشون الثبات فى الحاضر والمستقبل وفى إسناده إلى الله ما يوحى بعظمته وأصالته وأنه لا يمكن أن يتطرق إليه الضعف والزوال لأنه من القوى القاهره .

وإذا كان الفعل تقاس قوته وضعفه بالفاعل . فما بالك بالفعل الذى يكون من قبل الله عز وجل .

---

(١) دلالات التراكيب ٣٣٢

ثم ذكرت الآية بعد ذلك — المثبتين — وهم الذين اعتنقوا مفهوم الكلمة الطيبة بكل أبعادها حتى صارت معلومة فيهم — الذين آمنوا بالقول الثابت —

وهذا الثبات من الله لهم ثابت فى الدارين الدنيا والآخرة ولذلك قال فى الحياة الدنيا وفى الآخرة —

وهكذا يتسلسل بناء الجملة تسلسلا محكماً من ذكر ما يعترى أهل الإيمان من الثبات وذكر مصدره وهو كونه من الله وذكر أهله وهم الذين آمنوا وذكر مظهره وهو القول الثابت وذكر مكانه وهو الدنيا والآخرة .

وإذا كان المراد من القول هو الكلام فإن وصفه بالثبات يعنى صدقه وإذا كان الكلام صادق المعانى واضح الأدلة فإنه يقود إلى الإيمان .

وبذلك يكون قوله — بالقول الثابت — هو مضمون — الكلمة الطيبة — مع التركيز على العنصر الذى استشرفت هواتف النفس لمعرفته وهو عنصر الثبات . ولذلك ذكره ثلاث مرات . مرة فى أول الآية فى صورة الفعل ومرة فى وسطها فى صورة وصف القول ومرة فى آخرها ضمنا فى صورة إبهام — ما يشاء — من تثبيت البعض وإضلال البعض الآخر وفقاً لدرجات الإيمان والكفر :

وبعد بيان حال من ثبتت فى قلوبهم الكلمة الطيبة وبيان موقعهم من التثبيت جاءت الكلمة التى تبين حال الكافرين فقال — ويضل الله الظالمين والمراد بهم الكفرة الذين صدر منهم الكلام الخبيث بدليل مقابلتهم به — الذين آمنوا — ووصفهم بالظلم إما باعتبار وضعهم للشىء فى غير موضعه وإما باعتبار ظلمهم لأنفسهم حيث بدلوا فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها فلم يهتدوا إلى القول الثابت أو حيث قلدوا أهل الضلال

وأعرضوا عن البينات الواضحة وإضلالهم — على ماقيل — فى الدنيا أنهم لايثبتون فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شىء وهم فى الآخرة أضل وأزل ،

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره فإذا دخل قبره أقعد فقيل له . من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله تعالى ذكره ذلك وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليكم ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئاً فذلك قوله تعالى — ويضل الله الظالمين(١)

وقد بينت هذه الجملة سر إضلال الله لهم وهو ظلمهم فكأنهم باختيارهم الضلال قد ظلموا الحق تبارك وتعالى وظلموا رسله وظلموا أنفسهم فكان حقاً على الله أن يضلهم بعد أن ضلوا ضلالاً بعيداً وهذه الجملة تعتبر مخصصة للعموم الوارده فى قوله تعالى فى أول السورة — فيضل الله من يشاء — :

فالحق تبارك وتعالى لايضل من يشاء إضلاله على الإطلاق ولكنه مقيد بوجود أسبابه المؤدية إليه وهو مانصت عليه هذه الآية وهو الظلم وهكذا تفسر وتوضح الآيات بعضها البعض وما كان عاما فى موطن يخصص فى موطن آخر وسوف يمتد توضيح هذه القضية وهى إسناد الضلال إلى الله حتى تستكمل فى آيات آخر السورة .

وقد بسط الكلام بسطاً فى الحديث عن ثبات المؤمنين لأنه الوجه المشرق الذى تستبشر به النفوس المؤمنة والتى تسعد بإقبال الله عليها فى

---

(١) روح المعانى ١٣ / ٢١٧

الدنيا والآخرة فهم أهل للمخاطبة وللتأنيس ببسط الكلام وذلك بخلاف الحديث عن الكافرين فقد اقتضب اقتضابا وجاءت الجملة المعبرة عن عدم ثباتهم فى ثلاث كلمات — يضل الله الظالمين — وذلك تعويلا على فهم المعنى بطريق المقابلة بالجملة الخاصة بالمؤمنين أى يجعلهم فى حيرة وعدم ثبات فى المحن والشدائد والفتن فى الدنيا والآخرة وهذا هو الأثر المناسب للكلمة الخبيثة والشجرة الخبيثة التى اجتثت من فوق الأرض

ثم ختمت الآية بقوله — ويفعل الله مايشاء — وهى تذييل مناسب لما تقدم من التثبيت والاضلال لارتباط ذلك بمراتب النفوس وصفاء النيات فى تطلب الإرشاد وتربية ذلك فى النفوس بنمائه فى الخير والشر حتى تبلغ بذور تينك الشجرتين منتهى أمدهما من ارتفاع فى السماء واجتثاث من فوق الأرض المعبر عنه بالتثبيت والإضلال وفى كل تلك الأحوال مراتب ودرجات لاتبلغ عقول البشر تفصيلها .

وإظهار اسم الجلالة فى — يضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء — لقصد أن تكون كل جملة من الجمل الثلاث مستقلة بدلالتها حتى تسير مسير المثل (١)

ومفعول فعل المشيئة محذوف لدلالة ماقبله عليه أى يفعل مايشاء فعله من تثبيت المؤمنين وإضلال الكافرين حسبما توجبه مشيئته التابعة للحكم البالغة .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٢٧

المعنى الإجمالى :

يلفت الحق تبارك وتعالى قلوب المخاطبين إلى جلال الإيمان وعظمته وسمو قدره إذا ثبت فى القلوب فإنه يثبتها أمام الفتن والشدائد ومهما توالت عليهم الضوائق وترادفت عليهم المصائب والبلايا فإنها لاتزيدهم إلا إيمانا على إيمانهم وثباتاً فوق ثباتهم لأنهم يستمدون ذلك الثبات وهذا اليقين من مالك الملك وهو على كل شىء قدير. فلا تزل لهم قدم ولا تنحرف بهم السبل وإنما يمضون على هدى من الله وبصيرة. متألقة وجوهم منشرحة صدورهم ، مطمئنة قلوبهم إلى ثواب الله ورضوانه وقد جعل الحق عنوان الإيمان — الكلمة الطيبة — بكل ماتعنيه هذه الكلمة كما سبق.

ولعل اختيار الكلمة بالذات يرجع إلى أنها مرآة القلب ولسان الضمير ووحى السريرة فهى التى تبين عن دخيلة الإنسان وهى الترجمان عن الطوايا الداخلية التى لايطلع عليها إلا من يعلم السر وأخفى فهى معلم بارز من معلم القلوب وكما قالوا إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان اللسان على الفؤاد دليلا .

فهذه الأسرار النفسية والخواطر القلبية مظهرها والمبين عنها هو اللسان فى شأن الكلمة . ولذلك كان للكلمة فى نظر الإسلام ميزان خاص بل إنه اعتبرها من باب الصدقات التى تخرج من فم الإنسان فالكلمة الطيبة صدقة والقرآن اعتبرها من خوارق أجواز الفضاء إلى رب الأرض والسماء — إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه — فتشريفاً لها وتقديراً لمكانتها قدمت على العمل الصالح الذى يرفع إلى الله عز وجل

وقد زادها تعظيما وتجسيداً أنه صورها بالشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها :

وإذا كان المفسرون قد اختلفوا فى كنة هذه الشجرة هل هى النخلة أو العنب أو الرمان أو التين وغير ذلك فإن الآيةمطلقة تتناول كل شجرة عظيمة مثمرة طيبة الثمار ذات أصل ثابت وفروع عالية وقطوفها دانية فى كل حين بإذنه تعالى ،

وهكذا الإيمان عندما يرسخ فى سويداء القلب فإنه يجعل المؤمن طيب القلب والقالب طاهر النفس والحس لا يصدر عنه إلا كل عمل طيب وفعل جميل يحظى بالقبول عند الله فيتوالى العطايا وينال الثواب لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا ،

إن شجرة الإيمان شجرة قوية لا تؤثر فيها الرياح الهوج ولا تقتلعها الأعاصير مهما امتدت آمادها لأنها تستمد قوتها من السماء ولن تضن عليها بالمدد والعطاء ، فينبغى على كل عبد منيب أن يظفر بهذه الشجرة الوارفة الظلال الدانية بالجنى الحلال فهى بهجة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

وعلى المقابل من ذلك نجد الحق يلفت القلوب إلى حقارة الكفر ودناءة الشرك وإلى تهافت كل كلمة لا يرضاها الله ورسوله وإلى زوالها وعدم ثبات أصحابها فى الفتن والبلاء فسرعان ما تخور عزائمهم وتضعف إرادتهم وتنطفىء بصائرهم ويتعطل إدراكهم ويكونون من الصم البكم الذين لا يعقلون :

وقد جسد التمثيل هذه المعانى فى الشجرة الخبيثة وهل هى الحنظلة : أو الكشوث أو الثوم أو الشوك أو هى لم تخلق على وجــه الأرض . ولكن يكفى أنها شجرة خبيثة لا بهجة فى منظرها ولا طيب فى ثمرها ولا ثبات فى أصلها ولا حركة فى فروعها ولا مدد فى عطائها . وإنما هى مبتورة عن كل خير مقطوعة عن كل ثمر وكذلك الكلمة الخبيثة بكل ما تحمل

من معانى ذكرها المفسرون وهى فوق ذلك الكلمة المضلة والكلمة المغوية والتى تمد فى حبل الشيطان وتقضى على شبكات الود بين الناس وتحرق اللحم الواصلة بين أبناء الأمة المسلمة وتوجج نار العداوة والحقد بينهم وفى ذلك تنفير منها أو فى محاولة التعرف على ظلها فهو ظل من يحموم لا بارد ولا كريم ولكنه سموم وحميم .

إن الكلمة الخبيثة ينبغى أن لا يكون لها مكان فى دنيا الناس ولا تسود فى صحف الإعتقاد بل يجب أن تبتر وتقبر كما يوحى بذلك تصويرها بالشجرة الخبيثة التى تعنى الزوال والإضمحلال .

وأما الكلمة الهادية فهى التى يجب أن تسود الوجود وأن تكون الشمس المشرقة فى كل بيت مسلم وفى كل مجتمع ترفرف عليه راية الإسلام لأنها الكلمة التى تجمع والتى تأخذ بيد الشباب إلى حظيرة الإيمان هذه الكلمة يجب أن تنطلق من لسان يؤمن بالله وبالأسوة الحسنة محمد بن عبد الله هذه الكلمة يجب أن تكون الصوت المسموع والمقالة الحسنة التى تنطلق من المحافل القرآنية والندوات الدينية والخطب المنبرية والبحوث العلمية والمؤتمرات الدولية . هذه الكلمة يجب أن تكون نتيجة لبحوث الأطباء والكيمائيين والجيولوجيين وعلماء الأجناس والنبات والحشرات والفضاء فالأمر كما قيل :

وفى كل شىء له آيه تدل على أنه الواحد

إن أعظم الأدلة التى تدل على وجود الله ووحدانيتـــه وتقود إلى الإيمان به تلك الأدلة المادية العلمية التى تخرج من المعامل والمختبرات وعلى يد الملاحدة العلميين ومن هذا المنطلق يجب أن تستثمر جاذبية الإيمان وروحانية اليقين فى غزو القلوب وملء العقول وتكثير سواد المسلمين حتى لا يسمع الشباب المسلم كلمة عن العلمانية أو الشيوعية أو الرأسمالية أو

البوذية أو البهائية وغير ذلك من الدعوات البشرية الهـــدامة للأمم المسلمة .

فإذا أخذت الـكلمة الطيبة حقها فإنها تصنع الأمة المسلمة الثابتة فى ميادين الحياة المختلفة فلا تبالى بالأعداء ولا بالأزمات الاقتصادية وإنما تمضى إلى غايتها من تحقيق غد أفضل وحياة أمثل وهى رابطة على قلبها برباط الإيمان الوثيق وكان حقاً علينا نصر المؤمنين وإذا ما انقلبت إلى ربها فإنها تسلم من الفتن الأخروية وأولها فتنة القبر نعوذ بالله منها وأما الظالمون فإن الله لهم بالمرصاد يضلهم ويهديهم إلى عذاب السعير ويفعل الله ما يشاء .

قال تعالى « ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار .

بدلوا — الإبدال والتبديل والتبدل والإستبدال جعل شيء مكان آخر وهو أعم من العوض فإن العوض هو أن يصير لك الثانى بإعطاء الأول . والتبديل قد يقال للتغيير مطلقا وإن لم يأت ببدله كما فى قوله تعالى — فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم .

والتبديل قد يكون فى الذات كما فى قوله تعالى — كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها — وبدلناهم بجنتيهم جنتين .

وقد يكون فى المعنويات — ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة — فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .

نعمة — النعمة الحالة الحسنة وبنـاء النعمة بناء الحالة التى يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة فبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة وهى تقال للقليل والكثير — وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .

والإنعام إيصال الإحسان إلى الغير ولا يقال إلا إذا كان الموصل إليه من جنس الناطقين فلا يقال أنعم فلان على فرسه . قال تعالى — وإذ تقول للذى أنعم الله عليه — صراط الذين أنعمت عليهم — والنعماء بإزاء الضراء — ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء .

والنعيم النعمة الكثيرة — فى جنات نعيم .

وتنعم تناول ما فيه النعمة ونعمه جعله فى نعمة — فأكرمه ونعمه .

ويقال للإبل والبقر والغنم أنعام لكونها أعظم النعم والنعامة معروفة وهى أيضاً المظلة فى الجبل .

والفعل — نعم — كلمة تستعمل فى المدح فى مقابل بئس فى الذم — نعم العبد إنه أواب — نعم أجر العاملين — بئس الإثم الفسوق بعد الإيمان .

ونعم — كلمة للإيجاب من لفظ النعمة ويصح أن تكون من لفظ أنعم منه أى ألين وأسهل .

وأحلوا — أصل الحل — حل العقدة ومنه قوله — واحلل عقدة من لسانى .

وحللت نزلت أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول فقيل حل حلولا وأحله غيره قال تعالى أو تحل قريبا من دارهم — وأحلوا قومهم دار البوار ،

ويقال حل الدين وجب أداؤه والحلة القوم النازلون :

والمحلة مكان النزول وعن حل العقدة استعير قولهم حل الشىء حلا قال تعالى — وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا وقوله — قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم أى بين ما تنحل به عقدة أيمانكم من الكفارة والحليل

الزوج إما لحل كل واحد منهما إزار الآخر وإما لنزوله معه وإما لكونه حلالا له .

والحليلة الزوجة وجمعها حلائل – وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم والحلة إزار ورداء ،

البوار — البوار فرط الكساد ولما كان فرط الكساد يؤدى إلى الفساد كما قيل كسد حتى فسد عبر بالبوار عن الهلاك يقال بار الشيء يبور بورا وبورا — قال تعالى — تجارة لن تبور — وروى نعوذ بالله من بوار الأيم .

وقوله تعالى — حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً — أى هلكى جمع بائر وقيل بل هو مصدر يوصف به الواحد والجمع فيقال رجل بور وقوم بور .

وبار الفحل الناقـــة إذا تشممها ألا قح هى أم لا ثم يستعار ذلك للاختبار فيقال برت كذا أى اختبرته .

جهنم اسم لنار الله الموقدة قيل أصلها فارسى معرب وهو جهنام ،

يصلونها . أصل الصلى لإيقاد النار ويقال صلى بالنار وبكذا أى ابتلى بها واصطلى بها وصليت الشاة شويتها وهى مصلية . وقيل صلى النار أى دخل فيها وأصلاها غيره — يصلى النار الكبرى — يصلى ناراً حامية — سأصليه سقر .

ويقال اصطلى بها أى استدفأ قال تعالى — لعلكم تصطلون .

وجعلوا — جعل لفظ عام فى الأفعال كلها وهو أعم من فعل وصنع وسائر أخواتها ويتصرف على خمسة أوجه .

الأول : يجرى مجرى صار وطفق فلا يتعدى نحو — جعل زيد يقول كذا كما قال الشاعر :

فقد جعلت إقلوص بنى سهيل
من الأكوار مرتعها قريب

والثانى — يجرى مجرى أوجد فيتعدى إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى — وجعل الظلمات والنور — وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ،

والثالث — فى إيجاد شىء من شىء وتكوينه منه نحو — وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً — وجعل لكم من الجبال أكنانا .

والرابع — فى تصيير الشىء على حالة دون حالة نحو — الذى جعل لكم الأرض فراشاً — إنا جعلنا قرآنا عربياً .

الخامس — الحكم بالشىء على الشىء حقاً كان أو باطلا . فأما الحق فنحو قوله تعالى — إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

وأما الباطل فنحو — ويجعلون لله البنات — وجعلوا لله أنداداً — جمع ند أى أكفاء وأمثالا ونظراء قال الشاعر :

نحمد الله ولا ند له عنده الخير وما شاء فعل

وقال حسان : أتهجوه ولست له بند فشركما لخير كما الفداء

وقال أبو عبيدة أنداداً — أضداداً . أو هو الشريك المناوىء .

وقال الراغب : نديد الشىء مشاركه فى جوهره وذلك ضرب من المماثلة وقرىء يوم التناد — أى يند بعضهم من بعض نحو — يوم يفر المرء من أخيه — وقد سبق بيان معنى الضلال .

سبيله — السبيل الطريق الذى فيه سهولة وجمعه سبل — وجعل لكم فيها سبلا ويستعمل السبيل لكل ما يتوصل به إلى شىء خيراً كان أو شراً ويضاف مرة إلى الله باعتباره مصـــدر الحق ويضاف مرة إلى رسوله باعتباره المبلغ عن الله ، كما فى قوله — ادع إلى سبيل ربك — و — قل هذه سبيلى — ويقال أسبل الزرع صار ذا سنبلة.

تمتعوا — المتوع الإمتداد والإرتفاع يقال — متع النهار ومتع النبات إذا ارتفع والمتاع انتفاع ممتد الوقت ، ويقال متعه الله بكذا وأمتعه ، قال تعالى — ومتعناهم إلى حين — فأمتعه قليلا .

وكل موضع ذكر فيه تمتعوا فى الدنيا فعلى طريق التهديد وذلك لما فيه من معنى التوسع واستمتع ، طلب التمتع — ربنا استمتع بعضنا ببعض — .

ويقال لما ينتفع به فى البيت متـاع كما قال تعالى — ابتغـاء حلية أو متاع زبد مثله —

والمتاع الطعام — ولما فتحوا متاعهم —

والمتاع ما يعطى المطلقة لتنتفع به مدة عدتها — وللمطلقات متاع بالمعروف والمتعة أن يحرم بالعمرة ثم الحج كما قال — فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى .

نظرات فى نظم الآيات :

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى طرفا من أحوال الكافرين وأحوال المؤمنين يوم القيامة جسد ذلك بالتمثيـــل وبين أثر ذلك فى الفريقين فى الدنيا والآخرة ، جاءت هذه الآيات تبين علة استحقاق

للكافرين هذا الجزاء ، وقد لفتت إلى ذلك بأسلوب الاستفهام — ألم — الدال على التشويق إلى معرفة أعمال الكافرين والتعجب مما فعلوه بعد مضمونه فالهمزة للتقرير أى تقرير المنفى بعد إنكار النفى

والخطاب لكل أحد يصح منه النظر فى هذه الأمة وأولهم سيدنا رسول الله ﷺ .

والرؤية هنا بصرية أى ألم تنظر لأنها هى التى تتعدى بإلى ولأن متعلقها مما يرى .

وبعد ذكر الاستفهام الذى ينبه المخاطب ويوقظ الذهن ويحفز السامع إلى مضمونه جاء اسم الموصول — الذين — المتحدث عنه مشفوعا بالحدث الذى كان علة جزائهم المهين :

وأول هذه الأحداث القبيحة أنهم — بدلوا نعمة الله كفرا —

فالتبديل كما دلت عليه اللغة وضع شىء مكان آخر فهؤلاء الكافرون قد جعلوا شكر نعمة الله كفرا .

فالكلام على حذف مضاف كما فى قوله تعالى — وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون — أى شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه وإذا كان تقدير الكلام كذلك فإن كونهم قد كفروا بالنعمة فقد استحقوا ماتوعدهم الله به فى قوله السابق — ولئن كفرتم إن عذابى لشديد .

ومن هنا يؤول معنى الآية إلى — الذين بدلوا شكر نعمة الله كفرا بها وعذابا شديدا منه — فكأن كلمة التبديل وكلمة — كفر — قد دلتا على المحذوف فى الأول والثانى ، ولذلك كانت الآية من باب الإحتباك —

وقد لايحتاج الكلام إلى تقدير على معنى أنهم بدلوا نفس النعمة كفرا على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبى النعمة موصوفين بالكفر حاصلا لهم الكفر بدل النعمة(١)

وإضافة النعمة إلى الله توحى بعظمتها وجلال قدرها وكثرتها فاذا كان كل إنسان يعطى على قدر قدرته وملكيته وقيوميته فما بالك بعطاء مالك الملك ومن عنده الخزائن التى لاتنفد — قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذن لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا — :

فهذه النعم العظيمة كان الواجب على هؤلاء أن يقابلوها بالشكر الجزيل ولكن قابلوها بالكفر وتنكير كلمة — كفرا — لتعظيم ماوقع منهم من الكفر

وكأن هذا التنكير يحدث مماثلة أسلوبية وتناسق فى النظم بين المفعول الثانى والأول فاذا كانت الإضافة فى — نعمة الله — أحدثت معنى التعظيم للنعمة فعلى قدر هذه العظمة كانت عظمة الكفر الذى وقع منهم فى المقابل القبيح . حيث إن — نعمة الله — المفعول الثانى لـ — بدل — وكفرا — مفعوله الأول لأن مايتوصل إليه الفعل بنفسه هو المفعول الأول ومالا يتوصل إليه إلا بحرف الجر فهو المفعول الثانى : والجار هنا إما أن يكون داخلا على المضاف المحذوف وهو كلمة — شكر — وإما على كلمة - نعمة - ثم حذف -(٢) .

---

(١) الكشاف ٢ / ٣٧٧

(٢) البحر المحيط ٥ / ٤٢٤

والحدث الثانى هو أنهم — وأحلوا قومهم دار البوار .

وهذا من باب الترقى فى الأسلوب فقدذكر فى الجملة الأولى ماصدر منهم لأنفسهم وذكر فى هذه الجملة ماصدر منهم لغيرهم أو ماكانوا سبباً فيه لغيرهم . وهكذا تبنى الجمل على بعضها ويتناسق نظمها ويتولد بعضها من بعضها ويدل ماصرح فيها على ماحذف منها وهذا هو الإيجاز والإعجاز بل إن هناك تماثلا فى تكوين الجملتين .

فالجملة الأولى مكونة من الفعل والفاعل والمفعولين وكذلك هذه الجملة من الفعل والفاعل والمفعولين كما أن أحد المفعولين مضاف ومضاف إليه فى تلك الجملتين .

— نعمة الله — دار البوار —

وتدور مادة — حل — حول النزول لأنها كما سبق من حل الأحمال عند النزول ثم أطلقت على النزول كما تدل على الوجوب فهؤلاء الكفار لعظمة كفرهم قد امتد أثره إلى أقوامهم حتى أنزلوهم وأوجبوا لهم دار البوار . وكأن دار البوار قد صارت حلالا لهم ومن هنا ربط — معنى التعظيم — فى كلمة — كفرا — بين هؤلاء الكافرين وبين أقوامهم .

ثم إنه فى هذه الجملة ذكر جزاء هؤلاء الأقوام وهو — دار البوار — ولم يتعرض لجزاء من بدلوا نعمة الله كفرا لدلالة اللاحق على السابق إذ هو فرع الأول فإحلال الأقوام دار البوار فرع حلول الأولين فيها كما أنه لم يذكر أن الأقوام بدلوا نعمة الله كفرا لدلالة الإحلال عليه لأنهم لم يكونوا فى هذا الدرك إلا إذا بدلوا نعمة الله كفرا . أى أنهم قد ضلوا وأضلوا .

ودار البوار هى دار الهلاك من بار يبور بوارا وبورا كما قال الشاعر :

فلم أر مثلهم أبطـــال حرب
غداة الحرب إذ خيف البوار

ولعل اختيار — البوار — للدلالة على أن لهم أعمالا كانوا يظنون أنها متساوية مع الأعمال المبنية على الإيمان بالله ولكنها كسدت ولم ترج فقسدت حتى كانت سببا فى هلاكهم كما قال الحق تبارك وتعالى :

[— أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستون عنـــد الله والله لا يهدى القوم الظالمين](١).

فإن أصل كلمة البوار — فرط الكساد ثم الفساد ولذلك عبر به عن الهلاك من باب التعبير عن الشىء بسببه .

ثم جاءت الآية التالية توضح وتبين — دار البوار — فقال تعالى — جهنم يصلونها وبئس القرار — :

ونصب جهنم — إما على البدلية من دار البوار كما ذهب إلى ذلك الحوفى وإما على عطف البيان كما ذهب إلى ذلك الزمخشرى وعلى ذلك يـــكون الإحلال فى جهنم فى الآخرة .

وذهب آخرون مثل ابن عطية إلى كون — جهنم — بالنصب على الاشتغال أى يصلون جهنم يصلونها وعلية فالمراد من الإحلال تعريضهم للهلاك بالقتل والأسر وأيد بما روى عطاء أن الآية نزلت فى قتلى بدر

(١) سورة ٩ آية ١٩

وبقراءة ابن أبى عبلة — جهنم — بالرفع على الإبتداء ويحتمل أن يكون — جهنم — على هذه القراءة خبر مبتدأ محذوف وهذا التأويل أولى لأن النصب على الإشتغال مرجوح من حيث إنه لم يتقدم مرجحه وجمهور القراء على النصب ولم يكونوا ليقرؤا بغير الراجح أو المساوى(١)

وقد اختير الفعل الدال على دخولهم ومقاساتهم النار وهو -يصلونها- عما له سبب مباشر فى وجود النار لأن الصلى هو إيقاد النار كما قال الراغب وبذلك يقترب أصل الفعل فى معناه من مكان الحلول وهو جهنم لأن إيقاد النار سبب فى وجودها ، وجملة — يصلونها — حال من دار البوار أو جهنم أو من قومهم أو استئناف لبيان كيفية الحلول. وعلى تأويل الإشتغال لا محل لها من الإعراب كذلك :

وعلى القول بأن جهنم بيان لما قبلها فإن البيان بعد الإبهام فيه من الفخامة مالا يخفى.

وعلى القول بأنها من باب الاستئناف فإن جملة الإستئناف ناتجة عن إثارة الخواطر وتحريك هواتف النفس نحو معرفة مضمون الكلام السابق وبذلك ترتبط الجملة بسابقتها برباط معنوى وثيق كالإرتباط بين السؤال والجواب أى أن الكلام متصل والنظم متسلسل على كل قراءة .

ثم جاء المقطع الثانى من الجملة يبين حقيقة هذا المكان الذى يحل فيه هؤلاء الأقوام ويصلون حره فكان عنوانه الذم بالفعل الخالص والعلم على الذم وهو — بئس — فقال تعالى — وبئس القرار — ومادة — قر — تدل على الثبوت الجامد كما قال الراغب وذلك يدل على دوام واستمرار

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٤٢٤

هذا الذم لجهنم ولمن يحل فيها . والمخصوص بالذم محذوف تقديره — بئس القرار هي أي جهنم أو بئس القرار قرارهم فيها .

والحدث الثالث : وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله .

وجعلوا — معطوفة على — بدلوا — أو على — وأحلوا — والضمير راجع إلى اسم الموصول — الذين — وعلى ذلك فالجملة داخله في حيز الصلة وحكم التعجيب والتشويق إلى رؤية تلك الأفعال العجيبة والمراد من هذا الجعل الاعتقاد والحكم ولما كان ذلك باطلا كان من باب الاختراع والافتراء كما في قوله تعالى — وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون(١) .

كما أنهم لم يكتفوا بهذا الإعتقاد حتى أذاعوه ونشروه واحتجوا له ولعل ذلك يشير إلى كيفية ضلالهم وإضلال غيرهم .

ومعلوم أن نعم الله على العباد كثيرة وأولها نعمة العقل والإسلام . وهؤلاء عندما بدلوا النعم لم يضعوا هاتين النعمتين موضعهما اللائق بهما وإنما استبدلوا السفه بالعقل والكفر بالإسلام ولم يقفوا عند نهيه تعالى بقوله — الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون(٢) .

و — لله — تشير إلى ألوهيته الحقة التي تميزه بأنه فرد صمد ليس كمثله شيء ولكنهم لم يلتفتوا إلى جلال هذه الذات وما يجب لها من التوحيد والتنزيه عن الشريك . وجعلوا له — أنداداً — وهو كما قال الراغب المشارك في الجوهر وذلك ضرب من المماثلة .

---

(١) الأنعام ١٠٠ (٢) البقرة ٢٢

وقال غيره — الأكفاء والنظراء وكأنهم بذلك لم يلتفوا إلى قوله تعالى — قل هو الله أحـــد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد —(١) حيث تقرر هذه السورة واحدانيته تعالى وتنفى ما يكافئه ويماثله .

فقوله تعالى — وجعلوا لله أنداداً — هدم للإيمان بهذه السورة التى يقوم عليها مبدأ التوحيد والإخلاص لله تعالى ، كما أنها خروج على النهى الوارد فى أول سورة البقرة ، فلا تجعلوا لله أنداداً — فكأنهم خرجوا على قانون الإيمان — أفعل ولا تفعل فى الأمر والنهى السابقين .

ولذلك خص الله تبارك وتعالى هذا المظهر الكفرى منهم دون سائر ألوان الكفر وتبديل النعم لأنه الباب الذى يلجون منه الى سائر الموبقات فاذا فعلوا ذنب القمة أوظلم القمه كانوا على غيره أقدر وبه أجدر فكأن ذكر هذه الجملة — وجعلوا لله أنداداً — بعد أن - بدلوا نعمة الله كفرا - من باب ذكر الخاص بعد العام إشارة إلى خطره وعظمته .

ويرى الإمام الرازى ، أن جعلهم لله شركاء يحتمل وجوها .

أحدها : أنهم جعلوا للأصنام حظا فيما أنعم الله به عليهم نحو قولهم . هذا لله وهذا لشركائنا .

وثانيها : أنهم شركوا بين الأصنام وبين خالق العالم فى العبودية .

وثالثها : أنهم كانوا يصرحون بإثبات الشركاء لله وهو قولهم فى الحج لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك(٢) .

---

(١) الاخلاص ١ — ٥ (٢) تفسير الرازى ١٢٣/١٩

ومن أعجب العجب أنهم فعلوا ذلك الجرم — ليضلوا عن سبيله — — وإن تعجب فعجب هذا فعلهم . وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس عن يعقوب — ليضلوا — بفتح الياء والظاهر أن اللام فى القراءتين مثلها فى قوله تعالى — فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا — وذلك أنه لما كان الإضلال أو الضلال نتيجة للجعل المذكور شبه بالغرض والعلة الباعثة فاستعمل له حرفه على سبيل الاستعارة التبعية فى الحرف . فعلوم أنهم مشركون لا يعتقدون أن ذلك ضلال بل يزعمون أنه اهتداء ولذلك قد ترتب على أعتقادهم ضده لأن حقيقة التعليل أن يترتب على الفعل ثمرته المقصودة كما فى قولك جئت لتكرمنى وضربته ليتأدب وحقيقة التعليل فى الآية أنهم فعلوا ذلك أى جعلوا لله أنداداً وهم يعتقدون أن ذلك أهتداء وأنه سوف ينجيهم إن كان هناك بعث وعلى ذلك شبه ترتب الضلال أو الإضلال على الجعل المذكور بترتب العلة الحقيقية عليه بجامع مطلق ترتب شىء على شىء فسرى التشبيه من الكليات إلى الجزئيات فاستعرنا اللام الموضوعة لجزئى المشبه به وهو الاهتداء لجزئى المشبه وهو الضلال على سبيل الإستعارة التبعية فى الحرف .

ولا شك أن قراءة — ليضلوا — بضم الياء أى إضلال الغير تأكيد لقوله السابق — وأحلوا قومهم دار البوار — لأنهم ما أحلوهم دار البوار إلا بسبب إضلالهم .

وعلى قراءة — ليضلوا — بفتح الياء فإنها تشير إلى استمرار ضلالهم لأنها من ضل يضل ومعنى لام التعليل أن تكون مستقبلة ، لأنها بتقدير — أن — المصدرية بعد لام التعليل . وأما إضلال الغير فستفاد من قوله — وأحلوا قومهم دار البوار .

وكان من مقتضى النظم الجليل أن يذكر أولا كفرانهم بنعمة الله تعالى ثم يثنى بكفرانهم بذاته سبحانه باتخاذ الأنداد ثم يثلث بإضلالهم لقومهم المؤدى إلى إحلالهم دار البوار ، ولعل تغيير الترتيب لتثنية التعجيب وتكريره والإيذان بأن كل واحد من هذه الهنات يقضى منه العجب ولو سيق النظم على نسق الوجود لربما فهم التعجيب من المجموع(١) .

وبعد لفت الذهن إلى هذه الأفعال القبيحة التى وصلت إلى الظلم العظيم — إن الشرك لظلم عظيم — كان طبعياً أن يتساءل المخاطب عن الجزاء المناسب لهؤلاء الذين يرفلون فى النعيم ويعيشون فى الشهوات فكان قوله — قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار — جملة مستأنفة استئنافا بيانياً . وقد سيقت بلفظ الأمر الموجه إليهم أى قل لأولئك الضلال المتعجب منهم تمتعوا بما أنتم عليه . وقد عبر عن الشهوات التى من جملتها تبديل نعمة الله كفرا وجعل الأنداد لله واستتباع الناس فى الضلال وجعل ذلك متمتعا به تشبيها له بالمشتهيات المعروفة لتلذذهم به كتلذذهم بتلك الشهوات .

وفى التعبير بالأمر كما قال الزمخشرى — إيذان بأنهم لا نعاسهم فى التمتع بما هم عليه وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه مأمورون به قد أمرهم آمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمرا دونه وهو آمر الشهوة وعلى هذا يكون قوله — فان مصيركم إلى النار — جواب شرط ينسحب عليه الكلام على ما أشار إليه بقوله — والمعنى إن دمتم على ما أنتم علية من الإمتثال لأمر الشهوة فان مصيركم إلى النار

---

(١) روح المعانى ١٩/٢١٩

ويجوز أن يكون الأمر مجازا عن التخلية والخذلان وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية(١).

وقد جمعت الآية بين ما هم عليه فى الدنيا وما ينتظرهم فى الآخرة فقد كانوا فى الدنيا فى نعم كثيرة ولكن لما كانت هذه النعم الكثيرة يعقبها الخسران والهلاك فكأنها كانت فى حكم المعدوم فهى مهما كانت كثيرة فانها بجوار العذاب قليلة وذلك واضح فى آيات كثيرة كقوله — قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار والأمر بعد ذلك يفيد التهديد والوعيد على حد قوله تعالى — أعملوا ما شئتم.

ولذلك كان الجزاء — فان مصيركم إلى النار — والمصير من صار التامة بمعنى رجع وهو اسم — إن — و — إلى النار — فى موضع الخبر وهذه الجملة التى فى حيز الفاء تعتبر تعليلية لكون الأمر السابق يفيد التهديد.

وبذلك شخصت الآيات الأفعال القبيحة التى تصدر من هؤلاء الكافرين وأن ظلمهم لم يكن مقصورا على أنفسهم بل تعداهم إلى أقوامهم وأن هذا التمتع فى الدنيا والامتداد فى شهواتها مصيره إلى الزوال وأن أصحابه سوف ينقلبون إلى النار وبئس القرار.

---

(١) المصدر السابق ٢١٩/١٩ والكشاف ٣٧٨/٢

المعنى الإجمالى للآيات :

يلفت الحق تبارك وتعالى الأنظار إلى أفعال الكفرة الذين يجترئون بها على الله وهو خالقهم ومدبر أمرهم ومسدى عليهم النعم ظاهرة وباطنة ويجرى إليهم الخير كى يشكروه ولا يكفروه ولكنهم تعاموا عن مصدر هذه النعم وعاشوا فى خير النعم ونسوا المنعم عز وجل.

وقد ذكر المفسرون أن المراد من الذين فعلوا هذا المناكر هم جميع المشركين فقد بدلوا بنعمة الإيمان الكفر وقال مجاهد هم أهل مكة أنعم الله تعالى عليهم ببعثه رسول منهم يعلمهم أمر دينهم وشرفهم به وأسكنهم حرمه وجعلهم قوام بيته فوضعوا مكان شكر هذه النعم كفراً وقال قتادة هم قادة المشركين يوم بدر وعن على هم قريش الذين تحزبوا يوم بدر ...

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون فإذا كانت هذه الآيات تتحدث عن الكفار الذين بدلوا نعم الله كفراً وأضلوا أقوامهم وجعلوا لله أنداداً . فإن هذه الأفعال القبيحة تصدر ممن يرفضون دعوة الإسلام فى كل حين . فليست خاصة بصناديد الشرك من قريش أو الذين استكبروا من أهل مكة وأبوا قبول الإسلام وكذبوا النبى ﷺ أو المشركين الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم وقادهم إلى موقعة بدر الكبرى فقتلوا وأسروا وإنما هى كما تنطبق على هؤلاء تنطبق على أمثالهم ومن يسلك مسالكهم من أهل الضلال والإضلال فى كل عصر وفى كل مكان ومن هنا يتجدد عطاء القرآن وتظل معانيه حية على طول الحقب وتوالى السنين وعلى ذلك فـ — دار البوار — تصلح لأن تكون هى موقعة بدر طبقاً للقول بنزولها فى قتلى بدر من المشركين ويبقى قول — جهنم — منصوبة على الإشتغال أو مستأنفة كما سبق تقرير ذلك وتصلح لأن تكون هى نار

الآخرة التى تنتظرهم فى الآخرة وتنتظر أمثالهم وذلك من منطلق اعتبار الآية عامة فيهم وفى غيرهم .

وتكون — جهنم — بدلا أو عطف بيان منها كما سبق القول .

وأشير إلى أن ما يروى عن عمر بن الخطاب وعلى كرم الله وجهه ورضى الله عنهما من أن الذين بدلوا نعمة الله كفرا هم الأفجران من قريش بنو أمية وبنو المغيرة بن مخذوم . فأما بنو أمية فتعوا إلى حين وأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر فلا أحسبه إلا من وضع بعض المغرضين المضادين لبنى أميـــة وفى روايات عن على أنه قال — هم كفار قريش ولا يريد عمر ولا على — رضى الله عنهما — من أسلموا من بنى أمية فإن ذلك لا يقوله مسلم فاحذروا الأفهام الخاطئة وكذلك ما روى عن ابن عباس أنهم جبلة بن الأيهم ومن اتبعوه من العرب الذين تنصروا فى زمن عمر وحلوا ببلاد الروم فإذا صح عنه فكلامه على معنى التنظير والتمثيل وإلا فكيف يكون هو المراد من الآية وإنما حدث فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه » (١) .

وهذه الآيات تلفت الأذهان إلى شناعة هذا الجرم الذى يصدر من كل من أنعم الله عليه بنعمة فإذا به يقابل هذه النعمة بالكفر الذى يستر هذه النعم وكأن الله يحسن إليه فيسىء الإنسان إلى هذا الإحسان ويقابل الوصل بالقطع والحنان بالظلم ثم يتحول إلى جرثومة فتاكة فيمتد ضلاله إلى الآخرين فيضلهم عن سبيل الله ثم لا يرضى بالدون من الظلم وإنما يصعد درجات حتى يصل إلى قمة الظلم وهو أن يجعل لله ندا وهو الذى خلق فسوى وقدر فهدى .

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٢٩/٢٣٠

وهذا هو العجب العجاب الذى يرفل فيه كثير من الملحدين وعباد البقر والشمس والقمر إلى اليوم ويزعمون أنهم يعيشون حياة التحضر والرفاهية .

وهذا هو موطن التعجيب الذى تدعوا الآيات إليه وتشوق الناس إلى معرفتـــه وتوجب على كل صاحب قلم إيمانى ولسان يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يتوجه إلى هؤلاء جميعاً مهدداً ومتوعداً بقوله تعالى — قل تمتعوا فان مصيركم إلى النار .

فهذا المتاع العريض وهذه الدنيا المفعمة بالحضارات التى لم تؤسس على تقوى من الله ورضوان وهؤلاء الناس الذين يرفلون فى نعم الواحد الديان ولا يلتفتون إلى شىء من أوامر وزواجر القرآن مصير ماديتهم الطاغية إلى زوال ونسيان ومرجعهم إلى الخلود فى جحيم النيران وقال الله تعالى — لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد — متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ،

وإذا كانت مادة — متع — تدور حول الإمتداد والإرتفاع والنفع الطويل لما يستخدمه الإنسان فى العاجل والآجل فان ذلك تجسيد كامل لمدى الخيبة والخسران المؤدى إلى الهـــلاك حيث لم يبق شىء من ذلك المتاع ينتفع به صاحبه فى ذلك اليوم المشهود . فهو مع كثرته قليل ومع قوته هزيل وكما قال الحق تبارك وتعالى —قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا .

ولذلك كان ختام الآيات يمثل العلة والنتيجة فى آن — فان مصيركم إلى النار — نعوذ بالله منها ومن شرورها .

قال الله تعالى — قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاه وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال ٣١ ،

والصلاة فى أصل اللغة . الدعاء والتبريك والتمجيد وذلك من باب تسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه ومنه قول الرسول — ﷺ — إذا دعى أحدكم إلى طعام فليجب .

فان كان مفطراً فليطعم وإن كان صائماً فليصل — أى فليدع لأرباب الطعام بالبركة .

وقوله تعالى — وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم .

وقال قوم هى مأخوذة من الصلا وهو عرق فى وسط الظهر ويفترق عند العجب فيكتنفه ومنه أخذ المصلى فى سبق الخيل لأنه يأتى فى الحلبة ورأسه عند صلوى السابق فاشتقت الصلاة منه إما لأنها جاءت ثانيـــة للإيمان فشبهت بالمصلى من الخيل وإما لأن الراكع يثنى صلواه .

وقيل مأخوذة من اللزوم ومنه صلى بالنار إذا لزمها ومنه قوله — تصلى نار حامية قال الحارث بن عباد :

لم أكن من جناتها علم الله وإنى بحرها اليوم صال

أى ملازم لحرها .

وكأن المعنى على هذا ملازمة العبادة على الحد الذى أمر الله تعالى به وقيل مأخوذة من صليت العود بالنار إذا قومته ولينته بالصلاء والصاد مكسورة فى حالة المد ومفتوحة فى حالة القصر .

فكأن المصلى يقوم نفسه بالمعاناة فيها ويلين ويخشع كما قال الشاعر :

فلا تعجل بأمرك واستدمه فما صلى عصاك كمستديم

وقيل أصلها فى اللغة التعظيم لما فيها من تعظيم الرب تعالى وتقدس . وقال بعضهم أصل الصلاة من الصلاء ومعنى صلى الرجل أى أنه أزال عن

نفسه بهذه العبادة الصلاء الذى هو نار الله الموقدة وبناء صلى كبناء مرض لإزالة المرض . ويسمى موضع العبادة الصلاة ولذلك سميت الكنائس صلوات كقوله — لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد .

قال تعالى « إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه » فالصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الإستغفار ومن المؤمنين الدعاء والتعظيم .

وقوله — أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة — فالصلاة هنا الثناء عليهم من الله تعالى .

وأما قولنا — اللهم صل على محمد — فمعناه عظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دعوته وإبقاء شريعته وفى الآخرة بتشفيعه فى أمتـــه وتضعيف أجره ومثوبته .

وقيل المعنى لما أمرنا الله سبحانه وتعالى بالصلاة عليه ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلناه على الله وقلنا . اللهم صل أنت على محمد — لأنك أعلم بما يليق به .

وهذا الدعاء — هل يجوز إطلاقه على غير النبى ﷺ . قد اختلف فيه والصحيح أنه خاص له ولا يقال لغيره — وأما قوله — اللهم صل على آل أبى أوفى — أى ترحم فهذا خاص به ولكنه آثر به غيره وأما سواه فلا يجوز له أن يخص به أحداً .

وتطلق الصلاة على العبادة — وما كان صلاتهم عند البيت . . . أى عبادتهم .

وتطلق كذلك على القراءة — ولا تجهر بصلاتك .

ولم يخل شرع منها واختلفت صورتها من شرع إلى شرع .

— إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتا —

وكل موضع مدح الله تعالى بفعل الصلاة أو حث عليه ذكر بلفظ الإقامة نحو — والمقيمين الصلاة — وأقيموا الصلاة — ولم يقل المصلين إلا في المنافقين نحو قوله — فويل للمصلين — وإنما خص لفظ الإقامة تنبيها على أن المقصود من فعلها توفية حقوقها وشرائطها لا الإتيان بهيئتها فقط ولهذا روى أن المصلين كثير والمقيمين لها قليل .

والقيام على أضرب قيام بالشخص إما بالتسخير أو الاختيار وقيام للشيء هو المراعاة للشيء والحفظ له وقيام هو على العزم على الشيء .

فمن القيام بالتسخير كما في قوله — ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها — .

ومن القيام الذي هو بالاختيار — أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً — الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم — الرجال قوامون على النساء — .

ومن قيام المراعاة — كونوا قوامين لله شهداء بالقسط — وقوله أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت — أي حافظ لها .

ومن القيام — يقيمون الصلاة — أي يديمون فعلها ويحافظون عليها وإقامة الصلاة أداؤها بأركانها وسننها وهيآتها في أوقاتها .

يقال قام الشيء إذا دام وثبت وليس من القيام على الرجل وإنما هو من قولك قام الحق أي ظهر وثبت قال الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

وقال آخر :

وإذا يقال أتيتم لم يبرحوا حتى تقيم الخيل سوق طعام(١)

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١ / ١٤٣ وما بعدها ومفردات الراغب

وينفقوا — نفق الشيء مضى ونفد ينفق إما بالبيع نحو نفق البيع نفاقا ونفق القوم إذا نفق سوقهم وإما بالموت نحو نفقت الدابة نفوقا والإنفاق قد يكون فى المال وفى غيره وقد يكون واجبا وتطوعا كما فى قوله تعالى — وأنفقوا مما رزقناكم — وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم وقد يطلق الإنفاق على الإقتار نحو قوله — قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق — فالإنفاق هنا نظير الإملاق فى قوله تعالى — ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق — .

والنفقة اسم لما ينفق — وما أنفقتم من نفقة — .

والنفق الطريق النافذ والسرب فى الأرض — فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض — .

ومنه نافقاء اليربوع ومنه النفاق وهو الدخول فى الشرع من باب والخروج عنه من باب وعلى ذلك نبه بقوله — إن المنافقين هم الفاسقون — أى الخارجون من الشرع .

مما رزقناهم — الرزق يقال للعطاء الجارى دنيويا كان أم أخرويا وللنصيب ولما يصل إلى الجوف ويتغذى به . فقوله تعالى — وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت — أى أنفقوا من المال والجاه والعلم ويطلق الرزق على المطر لأنه سببه كما فى قوله — وفى السماء رزقكم — وقيل إنه إشارة إلى مكان تقسيم الأرزاق .

ويطلق الرزق على الطعام كما فى قوله — فليأتكم برزق منه — أى بطعام يتغذى به .

وقوله تعالى فى النخل — والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد — .

فالرزق يطلق على جناها الذى يتغذى به وعلى ما يؤخذ منها ويدخل فى الصناعات .

وأما الرزق الذى هو العطاء الأخروى فكقوله عن الشهداء — ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون — .

والرازق هو الله تعالى ويقال ذلك للإنسان الذى يصير سببا فى وصول الرزق — وهو خير الرازقين — أى الله الخالق للرزق والمعطى والمسبب ويقال ارتزق الجند أخذوا أرزاقهم — .

سرا وعلانية . الإسرار خلاف الإعلان ويستعمل فى الأعيان والمعانى والسر هو الحديث المكتم فى النفس قال تعالى — فإنه يعلم السر وأخفى — .

وأسررت إلى فلان حديثا أفضيت إليه فى خفية — والإسرار إلى الغير يقتضى الإظهار من وجه والإخفاء من وجه . فالإظهار لمن تفضى إليه بالسر والإخفاء يكون عن غيره ولذلك فسر قوله تعالى — تسرون إليهم بالمودة — بالإطلاع والإظهار .

وقوله تعالى — ولكن لا تواعدوهن سرا — فإن السر تجوز به عن الوطء كما يتجوز بالسر عن العقد والمصحح للأول الملازمة والثانى المسببية فهو من باب المجاز المبنى على المجاز .

ومنه سرة البطن لاستتارها بعكن البطن بعد قطعها .

وأسرة الراحة وأسارير الوجه لغضونها والسرار اليوم الذى يستتر فيه القمر آخر الشهر .

والسرور ما ينكتم من الفرح — ولقاهم نضرة وسرورا — .

والسرير الذى يجلس عليه من السرور إذ كان ذلك لأولى النعمة وجمعه أسرة وسرر — فيها سرر مرفوعة — .

وسرير الميت تشبيها به فى الصورة وللتفاؤل بالسرور الذى يلحق الميت برجوعه إلى جوار ربه وخلاصه من سجنه المشار إليه بقول رسولنا عليه الصلاة والسلاة — الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر — .

وأكثر ما يقال الإعلان فى المعانى كما فى قوله تعالى — أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا — ويقال — علوان الكتاب اعتبارا بظهور المعنى الذى فيه لا بظهور ذاته يوم — اليوم يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها وقد يعبر به عن مدة من الزمان أى مدة كانت كما قال تعالى — إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان — .

بيع — البيع إعطاء المثمن وأخذ الثمن والشراء إعطاء الثمن وأخذ المثمن ويقال للبيع الشراء وللشراء البيع وذلك بحسب ما يتصور من الثمن والمثمن ومنه قوله — وشروه بثمن بخس دراهم معدودة — .

وقال عليه الصلاة والسلام — لا يبيعن أحدكم على بيع أخيه — أى أى لا يشترى على شراه.

ومنه البيعة والمبايعة وهى بذل الطاعة للسلطان .

خلال . الخلل فرجة بين الشيئين وجمعه خلال كخلل الدار والسحاب والرماد وغيرها قال تعالى فى صفة السحاب — فترى الودق يخرج من خلاله — فجاسوا خلال الديار — .

وقال الشاعر :

أرى خلل الرماد وميض جمر

والخلال لما تخلل به الأسنان وغيرها .

والخلل فى الأمر كالوهن فيه تشبيها بالفرجة الواقعة بين الشيئين .

والخلة الطريق فى الرمل لتخلل الوعورة أى الصعوبة فيه .

والخلة الخمر الحامضة لتخلل الحموضة إياها .

والخلة الإختلال العارض للنفس إما لشهوتها وإما لحاجتها ولذلك فسرت بالحاجة .

والخلة : المودة إما لأنها تتخلل النفس أى تتوسطها وإما لأنها تخل النفس فتؤثر فيها تأثير السهم فى الرمية وإما لفرط الحاجة إليها .

يقال : خاللته مخالة وخلالا فهو خليل كقوله تعالى — واتخذ الله إبراهيم خليلا — قيل سماه بذلك لافتقاره إليه سبحانه فى كل حال الافتقار المعنى بقوله تعالى — إنى لما أنزلت إلى من خير فقير — ولذلك قيل فى الدعاء — اللهم اغننى بالإفتقار إليك ولا تفقرنى بالاستغناء عنك .

حول نظم الآية :

بعد أن لفت الحق تبارك وتعالى الأنظار إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا له أندادا وأحلوا قومهم دار البوار وتوجه إليهم بالتهديد والوعيد فى الدنيا بأن متاعهم مهما كثر قليل وفى الآخرة بأن مصيرهم إلى جهنم وبئس المصير . جاءت هذه الآية أمراً موجها لعبادة المؤمنين بلزوم طاعته وإقامة عمودى الإسلام الصلاة والزكاة وذلك على طريق الإستئناف الذى نشأ عن ذكر حال الفريق الذى حقت عليه كلمة العذاب ولذلك لم يعطف على سابقة إشارة إلى تباين الحالين وبذلك تكتمل

الصورتان . صورة الذين تمثلوا الكلمة الطيبة فعلا وقولا وصورة الذين تمثلوا الكلمة الخبيثة فعلا وقولا . وهذه المقابلات الأسلوبية هى التى تثرى المعانى وتزيد من ترابط الآيات وتثر الموعظة الحسنة على الأسماع . مرة بالتنفير والتحذير من مسالك الكافرين وأفعالهم المنكرة والتعجيب من أحوالهم الخبيثة وأخذ الحذر والحيطة من الركون إلى متاعهم وتهديدهم بنار الآخرة فإن العبرة بأحوال المشركين أولى والحذر منها مقدم على التحلى بضدها ولذلك ابتدىء بذكرها وثنى بأحوال المؤمنين ومرة أخرى بالتأنيس والتشريف والدوام والثبات على الإيمان وأركان الإسلام وبذلك يلتقى الأسلوبان عند هدف واحد وهو الإستقامة على منهج الله عز وجل .

وقد بدأت الآية بالأمر الصريح — قل — وهو أمر للرسول عليه الصلاة والسلام ولكل من يحمل شرف تبليغ الدعوة بعده صلى الله عليه وسلم ثم اتصل الأمر عن طريق اللام الجارة إلى — عبادى — وهم الذين تنازلوا عن اختيارهم لاختيار الله ومراده وترفعوا عن عبادة الدنيا والشيطان إلى عبادة الواحد الديان وقد خصهم بالإضافة إليه تعالى رفعا لهم وتشريفا لقدرهم وتنبيها على أنهم المقيمون لوظائف العبودية الموفون بحقوقهم ولم يقل — عبيدى — لأن جميع الناس من حيث الخلق عبيد الله كافرهم ومؤمنهم فى ذلك سواء .

ثم أعقب ذلك بالوصف الذى صاروا به عبادا لله وهو الإيمان وقد جاء حيز جملة الصلة إشارة إلى أن هذا الوصف وهو الإيمان معلوم فيهم وهو عنوان لهم يعرفون به وإذا ذكر انصرف إليهم وقد جاء بصيغة الماضى للدلالة على أنه حقيقة واقعة لا ريب فيها وبعد الأمر بـ — قل — والتأنيس والتشريف بأحب صفاتهم إلى الله وهى العبودية

والإيمان جاء المأمور به وهو — إقامة الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى — يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم —

والفعلان — يقيموا — ينفقوا — مجزومان عند أكثر المتأخرين فى جواب — قل — وذهب المبرد إلى أن التقدير — قل لهم أقيموا يقيموا فقيموا المصرح به جواب أقيموا المحذوف ولم يسلم له ذلك .

وقال ابن عطية يحتمل أن يكون يقيموا جواب الأمر الذى يعطينا معناه قوله قل وذلك أن تجعل — قل — فى هذه الآية بمعنى بلغ وأد الشريعة يقيموا الصلاة .

وذهب الفراء إلى أن جواب الأمر معه شرط مقدر أى إن تقل لهم أقيموا يقيموا كما فى قولك أطع الله يدخلك الجنة أى إن تطعه يدخلك الجنة .

وذهب الكسائى والزجاج وجماعة إلى أن معمول — قل — هو قوله — يقيموا وهو أمر مجزوم بلام الأمر المحذوفة ....

وإنما جاز حذف اللام لأن الأمر الذى هو — قل — عوض عنه ولو قيل يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداء بحذف اللام لم يجز .

ومتعلق القول الملفوظ به أو المقدر فى هذه التخاريج هو الأمر بالإقامة والإنفاق إلا فى قول ابن عطية فمتعلقه الشريعة ....

وحذف لام الأمر وإبقاء عملها على ثلاثة أضرب .

١ — كثير مطرد وهو حذفها بعد أمر بقول مثل الآية التى معنا .

٢ — وقيل جائز فى الإختيار وهو حذفها بعد قول غير أمر كقول الشاعر :

قلت لبواب لديه دارها تيذن فإنى حموها وجارها

فاصله لتيذن فحذف اللام وأبقى عملها وليس مضطرا لتمكنه من أن يقول ايذن .

٣ — وقيل مخصوص بالاضطرار وهو الحذف دون تقدم يقول بصيغة أمر ولا بخلافه كقول الشاعر :

محمد تفد نفسك كل نفس إذا ما خفت من أمر تبالا

والأصل — لتفد — فحذف لام الأمر وأبقى عملها (١) .

وبعد هذه التقريرات الإعرابية مامعنى الأمر بإقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله ؟ .

بالنظر فى صياغة الآية ندرك أن المأمورين بالإقامة والإنفاق قد اتصفوا بصفتين عظيمتين وهما العبودية والإيمان ومعلوم أن هاتين الصفتين يدلان على أن المتصف بهما لا بد أن يكون من المقيمين الصلاة والمنفقين وذلك يدل على أن المقصود بالأمر هنا الدوام والثبات والزيادة ولعل ذلك يرجع اختيار الفعل المضارع — يقيموا — مع تقدير لام الأمر دون صيغة فعل الأمر لأن المضارع دال على التجدد فهو مع لام الأمر يلاقى حال المتلبس بالفعل الذى يؤمر به بخلاف صيغة — افعل — فإن أصلها إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن متلبسا به .

وهذه هى نكتة وورود مثل هذا التركيب فى مواضع وروده كما فى

---

(١) ينظر البحر المحيط ٤٢٥/٥ والأشمونى ٤/٤ .

هذه الآية وفى قوله — وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن — فى سورة الإسراء أى قل لهم ليقيموا وليقولوا — فحكى بالمعنى (١).

وذلك يقوى ما ذهب إليه الكسائى والزجاج وابن مالك فى شرح الكافية.

كما أن ابن المنير قد استشكل على القول بأن المقول محذوف أى أقيموا وأنفقوا — فقال — وفى هذا الإعراب نظر لأن الجواب حينئذ يكون خبرا من الله تعالى بأنه إن قال لهم هذا القول امتثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا لكنهم قد قيل لهم فلم يمتثل كثير منهم وخبر الله تعالى يجل عن الخلف وهذه النكتة هى الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الإعراب مع تبادره إفيما ذكر بادى الرأى ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الإستغراق ويقوى بوجهين لطيفين.

أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالإيمان الحق المنوه بإيمانه عند الأمر كهذه الآية وكقوله تعالى — وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن. و — قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم — وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن —

الثانى : تكرر مجيئة للموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بإضافتهم إلى اسم الله وقد قالوا . إن لفظ العباد لم يرد فى الكتاب العزيز إلا مدحة للمؤمنين وخصوصا إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف فالحاصل من ذلك أن المأمور فى هذه الآى من هو بصدد الإمتثال وفى حين

(١) التحرير والتنوير ٢٣٢/١٣ .

المسارعة للطاعة فالخبر فى أمثالهم حق وصدق إما على العموم إن أريد أو على الغالب (١) .

وقيل إن المقول لهم هم الخلص وهم متى أمروا امتثلوا وفى ذلك إيذان بكمال مطاوعتهم وغاية مسارعتهم إلى الإمتثال .

والواقع أنه يحسن أن يقال إن الأمر منه ما هو أمر تشريع ومنه ما هو أمر تكوين . فالأمر التشريعى مثل الأمر بإقامة الصلاة وفعل سائر أركان الإسلام وفعل هذه الأمور موكول إلى البشر فإن فعلوها وقاموا بأدائها فذلك هو جوهر الطاعة وغاية الإمتثال فإن اتصفوا بمضمونها وساروا على نهجها فإن مطالبتهم بها مرة أخرى تدل على الدوام والاستزادة .

وإن لم يفعلوها بادىء الأمر فليس الخلف أو النقص فى خبر الله وإنما النقص والخلف فى المكلفين بالأداء ولم يؤدوا .

وأما خبر التكوين فليس للبشر فيه مدخل ولذلك فهو يجل عن الخلف ولا يعتريه النقص أو الخلل كما فى قوله تعالى — والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون(٢) . وكذلك سائر المظاهر الكونية التى هى فوق الطاقة البشرية .

---

(١) الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال على هامش الكشاف ٢ / ٣٧٨ .

(٢) يس ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

وإقامة الصلاة .

ذكر الزمخشرى لها أربعة معان وهى : (١) .

١ — تعديل أركانها وحفظها .

٢ — الدوام عليها والمحافظة عليها .

٣ — التجلد والتشمر لأدائها بأن لا يكون فى مؤديها فتور عنها ولا توان .

٤ — آداؤها .

فقوله — يقيموا — على الأولين استعارة تبعية مأخوذة من أقام العود إذا قومه أى سواه وأزال اعوجاجه فصار قويماً يشبه القائم ثم استعيرت الإقامة من تسوية الأجسام فانه حقيقة فيها لتسوية المعانى كتعديل أركان الصلاة على ماهو حقها لامن تحصيل هيئة القيام فيها مراعاة لزيادة المناسبة بين المعانى .

أو مأخوذة من قامت السوق إذا نفقت ونفاق السوق كانتصاب الشخص فى حسن الحال والظهور التام فاستعمل القيام فيه والإقامة فى إنفاقها أى جعلها نافقة ثم استعيرت منه للمداومة على الشىء فإن كلا منهما يجعل متعلقه مرغوبا إليه متنافسا فيه . فإذا حوفظ عليها كانت كالشىء النافق الذى تتوجه إليــه الرغبات ويتنافس فيه المحصلون وإذا عطلت وأضيعت كانت كالشىء الكاسد الذى لايرغب فيه .

وعلى الآخرين مجازمرسل . مأخوذ من — قام بالأمر — أى اجتهد فى تحصيله وتجلد فيه بلا توان، وحقيقته قام متلبسا بالأمر والقيام له يدل

---

(١) ينظر الكشاف ١٢٩/١ .

على الاعتناء بشأنه ويلزمه التجلد والتشمر فأطلق القيام على لازمه ومنه قامت الحرب على ساقها — إذا التحمت واشتدت كأنها قامت وتشمرت لسلب الأرواح ولتخريب الأبدان .

أو عبر عن الأداء بالإقامة لأن القيام بعض أركانها وذلك من باب التعبير بالجزء عن الكل .

وأما لفظ — الصـــلاة — فقد مضى تحليله اللغوى وهى فى الشرع أقوال وأفعال وهيئات مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

وهى حقيقة فى الدعاء مجاز لغوى فى الهيئات المخصوصة . وقيل إن صلى مأخوذة من الصلاة على معنى حرك الصلوين وهما العظمان الناتئان فى أعلى الفخذ يقال ضرب الفرس صلويه بذنبه أى إما عن يمينه وشماله ثم استعمل بمعنى فعل الهيئات المخصوصة مجازاً لغويا لأن المصلى يحرك صلويه فى ركوعه وسجوده . وكذلك إطلاق الصلاة على القراءة أو الدعاء فإنه من باب المجاز كما فى قوله تعالى — ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » .

والمراد بالصلاة ما يعم كل صلاة فرضا كانت أو تطوعا وهو المناسب لمقام الآية إذ هى أمر موجه إلى الخلص من عباد الرحمان الذين وصلوا إلى مرتبة العبودية .

وبعد ذكر الأساس الأول للعبودية وهو العبادة البدنية التى تعتبر الواجهة الأولى للإيمان جاء التعبير عن الأساس الثانى وهو الإنفاق من رزق الله وهو العبادة المالية فالعبادة البدنية أولا والمالية ثانيا ولعل ذلك يرجع إلى الترتيب الوجودى فالصلاة فرضت ليلة الإسراء والمعراج فى مكة وأما الزكاة فقد فرضت فى السنة الثانية من الهجرة فى المدينة المنورة فالتقديم والتأخير للسبق الوجودى فى زمان التشريع .

كما أن الصلاة هى عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين فهى العبادة التى تزكى النفس وتطهر الذات وتتولد عنها جميع الخيرات فهى داعية الإشراق الذاتى الذى يجعل النفس تفيض بالعطاء على الآخرين وكأن الآية تدعو إلى نقاء المصدر أولا وذلك من باب ابدأ بنفسك ثم بمن تعول ومن الطبيعى أن يمتد هذا الإشراق إلى المحيطين . فالصلاة كالأم التى يتولد عنها أركان الإسلام بل يصح إيمان المرء بها فقط فقد لايملك الإنسان نصاب الزكاة فلاتجب عليه ولايستطيع الصوم فيسقط عنه وكذلك الحج . إذن فالصلاة هى الأم وعليها المعول وهى المعيار فى الحكم على إيمان الإنسان .

ثم فى الجمع بينهما أى الصلاة والإنفاق فى هذه الآية وفى كثير من الآيات كما فى قوله تعالى — وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة — جزء آية من البقرة — ٢٧٧ — والمقيمين الصلاة . والمؤتون الزكاة — جزء آية من النساء — ١٦٢ — الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون — الأنفال — ٣ — وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا — مريم — ٣١ ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون — جزء آية من البقرة ٣ — إلى غير ذلك . لأنهما فرع الوقت فالصلاة شغل للوقت بطريق مباشر وأما الزكاة فشغل للوقت بطريق غير مباشر لأن الزكاة مسببة عن المال وهذا المال إنما يجىء عن طريق العمل والعمل هو شغل للوقت . وهما كذلك أمان لسائر العبادات البدنية والمالية .

ولذلك كان قوله : ـ وينفقوا مما رزقناهم ـ فى غاية الإحكام والدقة والبلاغة بعد قوله ـ ويقيموا الصلاة ـ.

وقد علمنا أن أصل مادة ـ الإنفاق ـ ومثله الإنفاد ـ تدل على المضى والخروج والذهاب وهذا يشير إلى الإقبال والمسارعة على البذل والعطاء على حد قول الشاعر :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا
لكن يمر عليها وهـــو منطلق

وهذا المعنى يدل بمفهومه على أنهم يعيدون عن منازع البخل والشح - ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون -

وقوله - مما معمول الفعل وهو جار ومجرور مفعول به فى المعنى وأما بحسب اللفظ فيقدر هناك موصوف أى شيئاً مما رزقناهم .

وأصل - مما - من ما - كتبت متصلة بما محذوفة النـــون لأن الجار والمجرور كشىء واحد وقد حذفت النون لفظا فناسب حذفها فى الخط(١) و - من - هنا تبعيضية وهذا المعنى هو المناسب لمقام الحديث عن عباد الرحمان الذين يصونون أنفسهم عن مذمة الإسراف والتبذير المنهى عنه بقوله تعالى - وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً - وقوله تعالى - والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما - .

وفائدة إدخالها . إن قلنا المراد بالإنفاق الزكاة المفروضة كما يرى ابن عباس فالأمر واضح لأن الزكاة المفروضة لا تكون لجميع المال ولو كان المراد بالإنفاق العموم - الفرض والتطوع - فإنها تشير إلى أن إخراج بعض المال يكفى فى اتصاف المنفق بالعبودية والإيمان وأن هذا البعض الذى يعتد به فى الإنفاق هو ما كان حلالا . وقليل يدوم خير من كثير ينقطع .

والأولى أن يحمل هذا الإنفاق على صرف المال فى سبل الخير والبذل من النعم الظاهرة والباطنة وعلم لا يقال به كـكنز لا ينفق منه كما يقال

---

(١) روح المعانى ١١٩/١ .

ثم بينت الآية المنفق منه وهو الرزق — رزقناهم — والرزق كما سبق العطاء الجارى من المال والجاه والعلم وهذا العموم هو المناسب للتحدث عنهم فى الآية ولمعنى الإنفاق السابق .

وقيل : إن الرزق هو إخراج حظ إلى آخر لينتفع به ثم شاع استعماله عرفا وشرعا على إعطاء الله تعالى الحيوان ما ينتفع به ويستعمل بمعنى المرزوق فتارة يراد به ما أعطاه الله تعالى عبده ومكنه من التصرف فيه وبهذا المعنى يمكن أن ينفق بعضه أو كله وأخرى يراد به ماهو لقوامه وبقائه خاصة فلا يتصور فيه إنفاق على غيره .

وقد أسند الرزق إلى نفسه عز وجل بضمير العظمة دلالة على أن كل عطاء يبذله الإنسان إنما هو من نفحات الحق تبارك وتعالى وبقوته ومشيئته . وإذا كان الأمر كذلك فلا ينبغى أن ينفق إلا الحلال الطلق : أى الطيب الخالص الذى يستحق أن يضاف إلى الله تعالى ويسمى رزقا منه .

ولا خلاف بين الجماعة والمعتزلة فى أن المراد بما رزقناهم هو الحلال إلا أن الجماعة لما سموا الحرام رزقا وأسندوا الأشياء كلها إلى الله تعالى تمسكوا فى ذلك بأن المدح إنما يكون بالإنفاق من الحلال وبأن الإسناد إلى الله تعالى عند الإطلاق منصرف إلى ما هو أفضل وأكمل وأما المعتزلة فلا يسمون الحرام رزقا لأنه ليس برزق لغة ولا يجوزون إسناده إلى الله تعالى لتعاليه عن القبائح . فلفظ الرزق وإسناده إلى الله تعالى دليلان لهم على أن المنفق هنا هو الحلال الطلق (١) .

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف ١/١٣٢ .

وقوله — سرا وعلانية — منتصبان على المصدرية والأصل إنفاق سر وإنفاق علانية فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامة فانتصب انتصابه ويجوز أن يكون الأصل إنفاقا سرا وإنفاقا علانيا فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه وجوز أن يكونا منتصبين على الحالية إما على التأويل بالمشتق أو على تقدير مضاف أى مسرين ومعلنين أوذوى سر وعلانية أو على الظرفية أى فى سر وعلانية .

والمقصود من الجمع بين السر والعلن هو تعميم الأحوال فى طلب الإنفاق لكيلا يظنوا أن الإعلان يجر إلى الرياء كما كان الحال فى الجاهلية أوأن الإنفاق سرا يفضى إلى إخفاء الغنى نعمة الله فيجر إلى كفران النعمة فربما توخى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق فى الحال الآخر فتعطل نفع كثير وثواب جزيل فبين الله أن الإنفاق بر لا يكدره مايحف به من الأحوال — إنما الأعمال بالنيات .

وقيل المقصود من السر الإنفاق المتطوع به ومن العلانية الإنفاق الواجب .

وتقديم السر على العلانية تنبيه على أنه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء ولأن فيه استبقاء لبعض حياء المتصدق عليه (١) .

ثم كان عجز الآية توكيدا وحثا وإستدامة للأمر فى صدرها بإقامة الصلاة وبالإنفاق ولذلك قال — من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال وقوله — من — لابتداء الغاية وهى و — من — التبعيضية السابقه متعلقتان بالفعلين السابقين — يقيموا — وينفقوا — ودخول — من — على اسم الزمان — قبل — لتأكيد القبلية ليفهم معنى المبادرة (٢).

---

(١) التحرير التنوير ٢٣٣/١٣   (٢) المصدر السابق

وتنكير — يوم — للدلالة على أنه يوم عظيم يجعل الولدان شيبا وأنه يوم يأتى بغتة فهو يوم غير معلوم إلا لله تعالى ولذلك كان تنكيره من صفاته الشرعية . وقد عبر عن مجيئه بالإتيان لأن الإتيان مجىء بسهولة وسهولته فى — كن فيكون .

ويزيد من هول هذا اليوم وخطره أنه — لا بيع فيه ولا خلال — فيبتاع المقصر فيه ما يتلاقى به تقصيره أو يفتدى به نفسه والمقصود كما قال بعض المحققين — نفى المعاوضة بالمرة والنص على البيع بالذات لأنه أحب إلى النفس من الشراء وللمبالغة فى نفى العقد ولأنه يلزم من نفيه نفى الشراء فكأنه قال لا بيع فيه ولا شراء فالاقتصار على لفظ واحد — البيع — للإيجاز وقيل إن البيع يستعمل فى معنى الشراء كما مر فى التحليل اللغوى .

وبعد أن نفى النفع الذاتى عن طريق المعاوضة نفى ما يمكن أن ينتفع به عن طريق الخالة أى المودة والصداقة والمراد نفى أن يكون هناك خليل ينتفع به بشفاعة أو مساعة بالفداء . فالنفى واقع على البيع والخلال فى الآخرة ويحتمل أن يكون المعنى من قبل أن يأتى يوم لا إنتفاع فيه لما لهجوا بتعاطيه من البيع والخالة ولا إنتفاع بذلك وإنما الإنتفاع والإرتفاق فيه بالإنفاق لوجه الله تعالى . وذلك من أقوى الدواعى إلى الإتيان بما تبقى عوائده وتدوم فوائد من الإنفاق فى سبيل الله تعالى وهذا هو معنى التأكيد والحث على الإنفاق لميل النفس إلى المال وكونها مجبولة على حبه وعلى الأمر بإقامة الصلاة لأن تركها كثيراً ما يكون للإشتغال بالبياعات والخالات كما فى قوله تعالى — وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها — فالنفى فى عجز الآية هو تأكيد للأمر فى صدرها ولذلك قال الزمخشرى . فإن قلت . كيف طابق الأمر بالإنفاق وصف اليوم بأنه — لا بيع فيه ولا خلال — ؟ قلت من قبل أن الناس

يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات فيعطون بدلا ليأخذوا مثله وفى المكارمات ومهادات الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها وأما الإنفاق لوجه الله خالصا كقوله — وما لأحد عنـــده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى — فلا يفعله إلا المؤمنون الخلص فبعثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا بيع فيه ولا خلال أى إنتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالة ... (١) .

وهذا كناية عن الإنتاع بما يقابلها وهو ما أنفق لوجه الله تعالى وقد اقتصر الزمخشرى على تأكيد أمر الإنفاق ولكنه كما علمت يعم أمر الإنفاق والصلاة . وفى حث المؤمنين على العمل فى إطار هذين العبادتين الفوز بثوابهما فى الآخرة والإغتباط بذلك فى هذا اليوم المشهود والتأكيد على أن حرمانهم فى الدنيا يعقبه فى الآخرة عطاء غير مجذوذ وفى ذلك تعريض بالكافرين الذى تمتعوا فى الدنيا بالمكارمات واتخاذ الأصدقاء وتبادل الهدايا ولكن كل ذلك يبور فى الآخرة ولا يجدون له أثراً من ثواب إلا جهنم وبئس المهاد لأنهم لم ينطلقوا من منطلق العبودية والإيمان بالله تعالى — وبذلك تظهر المضادة بين الفريقين وبين ما ينفع عاجلا وآجلا .

ويلاحظ أن الآية ركزت على ثلاثة أمور هى قمم العبودية وهى — الإيمان والصلاة والإنفاق وقد قدم الأهم فالأهم فالأعمال القلبية هى أهم الأعمال وأعظمها وهى لازمة للمكلف فى كل وقت ثم الأعمال القالبية وهى الصلاة اللازمة فى أكثر الأوقات ثم الأعمال المالية وهى النفقة ولا تكون إلا فى بعض الحاجات .

---

(١) الكشاف ٣٧٨/٢ وروح المعانى ٢٢٢/١٣

وليس هناك تعارض بين نفى الخالة هنا وبين إثباتها فى قوله تعالى — الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين — لأن المراد نفى الخالة النافعة بذاتها فى تدارك ما فات ولم يذكر فى تلك الآية أن المتقين يتدارك بعضهم لبعض ما فات(١) . أى فليست هناك آثار تترتب على الخالة وإنما هى مجرد صحبة ومودة ثابتة بينهم فى الدار الآخرة وحيث إنتفت الخالة — ولا خلال — انصب النفى على الآثار وهى حصول المنافع .

كما أن قوله تعالى فى سورة البقرة — يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون — ٢٥٤ — قد إقتصر الأمر فيه على الإنفاق وأما فى هذه الآية فقد تناول الأمر الصلاة والإنفاق .

وهذا يرجع إلى أن الأول خطاب عام فكان الحث فيه على الانفاق مطلقاً وتصوير أن الإنفاق نفسه هو المطلوب فليغتنم قبل أن يأتى يوم لا تقدرون فيه على تدارك ما فاتكم من الإنفاق لأنه لا بيع حتى تبتاعوا ما تنفقونه ولا خلة حتى يسامحكم أخلاؤكم به ولا إنتفاع بشفاعة الشافعين ولذلك سد عنهم كل منافذ الإنتفاع لأن من فى ذمته . حق إما أن يأخذ بالبيع ما يؤديه به وإما أن يعينه أصدقاؤه وإما أن يلتجىء إلى من يشفع له فى حطـــه ، والكل منتف ولا مستعان إلا بالله تعالى ولذلك قال — لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة — فزاد نفى الشفاعة تميما لنفى كل أبواب الإنتفاع حثاً لهم على تحصيل أصل الفعل .

وأما فى هذه الآية . فقد اختص الأمر بالخلص من عباد الله المؤمنين

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٢٢/١٣

ومعلوم أنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فكان الموافق لمقتضى الحال أن يؤمروا بالمداومة على ما هم عليه من الصلاة والإنفاق وقد إكتفى فى خطابهم بنفى البيع والخالة — لا بيع فيه ولا خلال .

ولم يذكر هنا — ولا شفاعة — لأن الشفاعة نوع من المخالة كما أن فى عدم نفيها ما يطمعهم فى شفاعة المصطفى ﷺ فهو الشفيع المشفع — يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا — ٢٠/١٠٩ رزقنا الله شفاعته . وهذا من باب الملاطفة فى خطاب عباده المؤمنين إذ لم يقطع أملهم فى شفاعة نبيهم عليه الصلاة والسلام .

واقتصر النفى على النفع الذاتى والنفع الغيرى وهما البابان الرئيسيان فى الإنتفاع وهما كناية عنه .

وقرأ أبو عمرو وابن كثير ويعقوب — لا بيع فيه ولا خلال — بفتح الإسمين دلالة على العموم وأما الرفع فلمناسبة الجواب مع حصول العموم فى الجملة وتقدير الكلام . هل فيه بيع أو خلال ؟ فقيل — لا بيع فيه ولا خلال وحذف الخبر من الثانى وهو — فيه — لدلالة الأول عليه .

المعنى الإجمالى للآية :

يأمر الحق تبارك وتعالى عباده المؤمنين الذين تشرفوا بالانتساب إليه والركون إلى ركنه الشديد بأن يداوموا على أهم عبادتين يتميز بهما الذى صعد إلى درجات العبودية الخالصة لله رب العالمين وهما الصلاة والانفاق .

أما الصلاة فهى عمود الدين ومعراج الموحدين ومحفل المخلصين ونهج المتبتلين وطريق العابدين والأم التى يتشعب منها سائر الخيرات والمبرات

وتفتح بها المغاليق ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام — وجعلت قرة عيني في الصلاة — كما أطلق عليها الله تعالى الإيمان في قوله تعالى — وما الله ليضيع إيمانكم — وهي القرآن في قوله — وقرآن الفجر — والقيام — قم الليل إلا قليلا — والركوع — واركعوا مع الراكعين — والسجود — ومن الليل فاسجد له — والذكر — ولذكر الله أكبر — والقراءة والدعاء — ولا تجهر بصلاتك — ولذلك أسند إليها النهي عن الفحشاء والمنكر — إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر — وهي أول مرشحات الفلاح — قد أفلح المؤمنون — الذين هم في صلاتهم خاشعون ثم أمرنا ربنا بالمداومة عليها والمحافظة — الذين هم على صلاتهم دائمون — والذين هم على صلواتهم يحافظون .

وأما الإنفاق والبذل والعطاء فهو اكسير الحياة ودم القلوب وحياة الأرواح وبقاء الأمم والشعوب به تحيا وتقوى وتسعد بحياة أفضل وعالم أمثل .

فإذا بذل أصحاب المـــال للفقراء والمحتاجين منعوهم من تكفف النـــاس وحفظوا عليهم ماء وجوههم من ذل السؤال فالأمر كما قال الشاعر :

لا تحسبن الموت موت البلى ... وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا ... أشد من ذاك على كل حال

وهكذا يدخل السرور على القلوب المكلومة ويذوب الحقد وتنقشع عداوة البغض من نفوسهم وتظلل الجميع راية الأمن والسلم والعدل والوئام . وليس هذا على المستوى المحلي فحسب وإنما يشمل المستوى العالمي كذلك .

فالدول الغنية عليها أن تبذل من مال الله فيها للدول الفقيرة فالمال هو مال الله والأغنياء وكلاؤه والفقراء عيـــاله فان بخل وكلاؤه على عياله أذاقهم وباله ولم يبال كما ثبت فى الحديث وهذا هو واجب الدول المسلمة اليوم فقد اتسعت الهوة الاقتصادية بين أفرادها وبات الناس فى رغد من العيش وبلهنية من النعيم المادى وصل إلى حد الإسراف القاتل والإدمان المميت .

وبات آخرون خاوية بطونهم خائرة عظامهم عارية أجسامهم شاخصة أبصارهم إلى رغيف الخبز يقولون — متى نصر الله ... ألا إن نصر الله قريب .

وإذا بذل العلماء كل فى ميدان تخصصه لارتفعت غشاوة الجهل الذى ران على قلوب الكثيرين ولأصبح المنهج العلمى هو الذى يقود المجتمعات إلى خير السبل وأفضل الطرق إلى ما يسعدها عاجلا وآجلا :

فمن كتم علماً ألجمه الله بلجام من نار . وقال تعالى : — إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ٢ / ١٥٩

وعلى الجانب المقابل نجد أنه تعالى قد أعلى كفة العلماء المخلصين الذين لا يفترون عن العطاء ولا يكلون عن النصيحة ولا يتوانون عن التنقيب والبحث والدرس وتقديم الفكر خالصاً سائغاً للشاربين ابتغاء وجه الله فجعلهم ثالث من شهد بكلمة التوحيد بعد الله وملائكته : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط — ٣ / ١٨

وجعلهم على قمة من يخشى الله — إنما يخشى الله من عباده العلماء — ٣٥ / ٢٨

وجعلهم مرفوعى الدرجات — يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين

أوتوا العلم درجات كما أشاد المصطفى ﷺ بفضل العلماء بل و بفضل طلاب العلم فى أحاديث كثيرة منها قوله — من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع — رواة الترمذى .

وقوله : الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلما — رواه الترمذى .

وقوله — إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلمى الناس الخير —

ويجمع بين المال والعلم بقوله — لا حسد إلا فى اثنتين . رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها —

وكذلك البذل من الجاه والمناصب الإدارية والقيادة بمعنى تسخيرها لمصالح الناس وخدمة الجماهير من باب — إنما المؤمنون إخوة — وحب لأخيك كما تحب لنفسك — ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدمه على الصراط يوم تزل فيه الأقدام — ؛

إلى غير ذلك من التوجيهات القرآنية والنبوية التى تجعل السائر عليها

والمتعهد لها بالفعل والمداومة يصعد إلى الدرجات العليا فى سلم العبودية الخالصة لله تعالى وبذلك يجنى الثمرة يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة . أظلنا الله بظله فى هذا اليوم الذى لا ظل إلا ظل الرحمن .

فالمال والعلم والجاه أرزاق يسوقها الله لمن يشاء من عباده والمسلمون مطالبون بأن ينفقوا من هذه الأرزاق والانفاق منها يعتبر شكرا لله

وهذا الشكر هو سبب زيادتها وبقائها كما قال — لئن شكرتم لأزيدنكم —
وأما عدم الإنفاق فهو سبب محقها وزوالها ،

قال الله تعالى : الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار —٣٢— وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار — ٣٣ ... وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار — ٣٤ —

التسخير سوق الشيء إلى الغرض المختص قهراً والمسخر هو المقيض للفعل والسخرى هو الذى يقهر فيتسخر بإرادته كما قال ليتخذ بعضهم بعضا سخريا — .

تجرى — الجرى المر السريع ويقال للحوصلة جرية إما لانتهاء الطعام إليها فى جريه أو لأنها مجرى الطعام والإجريا العادة التى يجرى عليها الإنسان والجرى الوكيل والرسول الجارى فى الأمر وهو أخص من لفظ الرسول والوكيل وقوله ﷺ

— لا يستجرينكم الشيطان — أى لا يحملنكم أن تجروا فى ائتماره وطاعته ويصح أن تجعله من الجرى أى الرسول والوكيل أن لاتتولوا وكالة الشيطان ورسالته كما قال — فقاتلوا أولياء الشيطان —

البحر . أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير . هذا هو الأصل وقد تعتبر سعته المعاينة فيقال . بحرت كذا أو سعته سعة البحر تشبيها به ومنه بحرت البعير . شققت أذنه شقا واسعا ومنه سميت البحيرة — ماجعل الله من بحيرة — إذا ولدت عشرة أبطن وسموا كل متوسع فى شيء بحرا فقالوا فرس بحر باعتبار سعة جريه .

ومنه قوله ﷺ فى فرس ركبه — وجدته بحرا والمتوسع فى علمه بحر .

وقد تعتبر ملوحته تارة أخرى فيقال ماء بحرانى أى ملح .

وقال بعضهم البحر يقال فى الأصل للماء الملح دون العذب وقوله:

— وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج — ٢٥ / ٥٣ من باب التغليب .

وبنات البحر : السحاب الذى كثر ماؤه .

الأنهار: جمع نهر وهو مجرى الماء الفائض .

ومنه النهار الذى ينتشر فيه الضوء من طلوع الفجر حتى غروب الشمس والنهار فرخ الحبارى وأما النهر والانتهار فالزجر بغلظة ولذلك قال .وأما السائل فلا تنهر — فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما —

الشمس : يقال للقرصة وللضوء المنتشر عنها وجمعها شموس [؟]. ويقال شمس يومنا وأشمس صار ذا شمس وشمس فلانا شماسا إذا إند ولم يستقر تشبيها بالشمس فى عدم الاستقرار .

القمر : هو قمر السماء يقال عند الامتلاء وذلك بعد الثالثة وسمى بذلك لأنه يقمر ضوء الكواكب ويفوق به .

دائبين — الدأب إدامة السير والعادة المستمرة دائما على حالة كما قال تعالى — كدأب آل فرعون — أى كعادتهم التى يستمرون عليها .

سألتموه — السؤال إستدعاء معرفة أو ما يؤدى إلى المعرفة وإستدعاء مال أو ما يؤدى إلى المال . والسؤال إما حقيقة وإما مجاز .

فإذا كان السائل جاهلا بالحكم كان سؤاله من باب الحقيقة وإن كان

طالما كان سؤاله لمعنى من المعانى المجازية التى نص عليها البلاغيون فى باب الإستفهام .

والسؤال إذا كان للمعرفة تعدى إلى المفعول الثانى تارة بنفسه وتارة بالجار — عن — تقول سألته كذا وعن كذا — ويسألونك عن الروح — ويسألونك عن ذى القرنين — وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب .

وإذا كان السؤال لاستدعاء مال فإنه يتعدى بنفسه أو بمن — واسألوا الله من فضله — وإذا سألتموهن متاعا فسألوهن من وراء حجاب .

ويعبر عن الفقير إذا كان مستدعياً لشىء بالسائل — للسائل والمحروم .

تعدوا — العد هو ضم الأعداد بعضها إلى بعض قال تعالى — فأسأل العادين — أى أصحاب العدد والحساب .

ويقال للقليل والمحصور — هذا شىء معدود — وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ... أى قليلة .

ويقال للكثير — جيش عديد — وإنهم لذو عدد أى هم بحيث يجب أن يعدوا كثرة . وقوله — فى الكهف سنين عددا — يحتمل الأمرين .

والعدة للمرأة وهى الأيام التى تعتد فيها ليحل لها التزوج .

تحصوها — الإحصاء التحصيل بالعدد وذلك من لفظ الحصى حيث كانوا يعتمدونه فى العد — وأحصى كل شىء عدداً — أى حصله وأحاط به .

نظرات فى نظم الآيات :

بعد أن بين الحق تبارك وتعالى أحوال الكافرين وحيثيات كفرهم من تبديل نعمة الله كفراً وجعلهم لله أندادا وهددهم وتوعدهم بأن مصيرهم إلى النار وبين أحوال عباده المؤمنين وأمرهم بالمداومة على إقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله وأكد هذا الحث بفعل هذه الأوامر قبل مجىء اليوم الذى لا بيع فيه ولا خلال . أراد سبحانه وتعالى أن يلفت أنظار الفريقين إلى نعمه الكونية العامة التى تعطى الكافر والمؤمن على حد سواء تقريعا وتوبيخا للكافرين على كفرهم وتثبيتا للمؤمنين على إيمانهم ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة . فقال جل شأنه — الله الذى خلق السموات والأرض... بادئا بلفظ الجلالة — الله — لأن الألوهية هى محط الكفر من الكافرين ومحط الإيمان من الموحدين ولذلك كان ذكره وتعينه هو الغرض الأهم فى قضايا الكفر والإيمان فتقديمه لإفادة التخصيص ولتقوية الحكم — من أجل أنه لا يؤتى بالإسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى اسناده إليه وإذا كان كذلك فإذا قلت — عبد الله — فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا قام أو قلت خرج أو قلت قدم فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به وقبله قبول المتهىء له المطمئن إليه وذلك لامحالة أشد لثبوته وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشىء بغتة مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له لأن ذلك يجرى مجرى تكرير الإعلام فى التأكيد والإحكام(١) .

---

(١) دلائل الإعجاز ١٠٩

ثم أخبر عن هـذا المبتدأ — الله — بالموصول لأن الصلة معلومة الإنتساب إليه والثبوت له — ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله — .

وفى — خلق — ضمير يعود على لفظ الجلالة — الله — وبذلك أحكم اسناد الجملة إليه مرتين . مرة عن طريق الإسناد إلى الظاهر وأخرى عن طريق الإسناد إلى ضميره وتقديم السموات على الأرض باعتبار الأشرفية ومفرد السموات سماء وأما جمع الأرض فلم يرد فى القرآن الكريم .

وتقديم ذكرهما على غيرهما لأنهما الأصلان اللذان يتفرع عنهما سائر ما يذكر بعدهما من النعم وكأنهما أمان لباقى النعم السماوية والأرضية ولما كان خلقهما من أجل التعمير فقد ثنى بأول نعمه على خلقه وهى إنزال الماء من السحاب — وأنزل من السماء ماء — وكل ما علاك سماء وأطلق على السحاب سماء لعلوه وقال بعضهم إن معنى نزول المطر من السماء نزوله بأسباب ناشئة منها .

ولعل البدء بذكر إنزال الماء لأنه سبب حياة الأرض والنبات والحيوان والإنسان — وجعلنا من الماء كل شىء حى — .

و — من — ابتدائية وهى متعلقة — بأنزل — وتقديم المجرور على المنصوب إما باعتبار كونه مبتدأ لنزوله أو لتشريفه كما فى قولك — أعطاه السلطان من خزائنه ما لا أو للتشويق إلى المؤخر(١) .

وتنوين — ماء — للبعضية وقد خصه الله بالنزول من السماء فى كثير من الآيات تنويها بشأنه لكثرة منفعته ومزيد بركته .

ثم ذكر أثر هذا الماء على النبات فقال — فأخرج به من الثمرات

---

(١) روح المعانى ٢٢٣/١٣

رزقا لكم — والرزق هو كل ما ينتفع به فيشمل المطعوم والملبوس ونصب على المفعولية لأخرج و — من الثمرات — فى موضع الحال منه و — من — بيانيه . ولكم صفة لرزق . وفى تقديم البيان على المبين خلاف جوزه الزمخشرى ومنعه صاحب الدر المصون .

ويجوز أن تكون — من — تبعيضيه على الإعراب السابق ويجوز أن يكون البعض مفعول أخرج ورزقا حال منه فهو بيان للمراد من بعض الثمرات لأن منها ما ينتفع به فهو رزق ومنها ما ليس كذلك ويجوز أن يكون — رزقا — باقيا على مصدريته مفعول له أى أخرج به ذلك لأجل الرزق والإنتفاع به أو مفعول مطلق لأخرج لأن أخرج بعض الثمرات فى معنى رزق فيكون فى معنى قعدت جلوسا . و — لكم — مفعول به إن أريد بالرزق المصدر كأنه قيل — رزقا إياكم — .

والباء فى قوله — به — للسببية أى ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا وجعل الأسباب محل حكمته فى أمره الدينى الشرعى وأمره الكونى القدرى ومحل ملكه وتصرفه فمعنى كون الإخراج بسببه أن الله تعالى أودع فيه قوة مؤثرة ولكن بإذنه تعالى حسبما جرت حكمته الباهرة مع غناه الذاتى عن الإحتياج إليه فى الاخراج فإذا لم يأذن لهذه القوة بالظهور عطلها وحال بينها وبين التأثير كما قال تعالى — يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم — .

وقوله — الثمرات — جمع ثمرة وجمعها جمع كثرة مطرد على — فعال — قال ابن مالك :

وفعل أيضا له فعال
ما لم يكن فى لامه اعتلال

أو يك مضعفا ومثل فعل

ذو التاء وفعل مع فعل فاقبل

أى اطرد أيضا : فعال فى فعل وفعله مثل جمل وجمال وثمرة وثمار .

واطرد أيضا فعال فى فعل وفعل — ذئب وذئاب ورمح ورماح(١) .

وكان المناسب لهذا الموضع هو جمع الكثرة لأن المقام مقام تعديد النعم التى لا تحصى على الخلق ولكنه أتى بجمع القلة للدلالة على أن هذه الثمار مهما كثرت وتنوعت فى الدنيا فهى بالنسبة لما أعده الله فى الجنة تعتبر قليلة بل أقل من القليلة وحسبك أنها فانية وزائلة ومتاع الدنيا مهما كثر قليل لزواله وانقطاعه أو لأن الجموع يتعاور بعضها موقع بعض .

واستظهر الرضى تبعا لابن خروف أن جمعى التصحيح لمطلق الجمع من غير نظر إلى قلة أو كثرة وقيل إن جمع القلة إن اقترن بأل الداله على الاستغراق أو أضيف إلى ما يدل على الكثرة انصرف بذلك إلى الكثرة كقوله تعالى — إن المسلمين والمسلمات — (٢) .

ومعلوم مما سبق أن الرزق هو العطاء الجارى والمقام خصه هنا بعطاء الدنيا .

ثم ذكر بعد ذلك وسيلة نقل هذا الرزق إلى أنحاء الأرض بقوله — وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره — ليكمل الإنتفاع بما ينبت من الأرض لأنه تعالى خص كل طرف من أطراف الأرض بنوع آخر من أنعمه حتى إن نعمة هذا الطرف إذا نقلت إلى الجانب الآخر من الأرض وبالعكس كثر الربح فى التجارات وهذا النقل لا يكون إلا بسفن البر وهى الجمال وسفن البحر وهى الفلك المذكور فى هذه الآية .

---

(١) شرح ابن عقيل ٤ / ١٢٥

(٢) ينظر الأشمونى ٤ / ١٢١

والتسخير حقيقة فى التذليل والتطويع ومجاز فى جعل الشىء قابلا لتصرف غيره فيه .

والفلك جماد ولكنه لما كان يتحرك على وجه الماء تبعاً لإرادة الملاح صار كأنه حيوان مسخر له .

وإضافة التسخير لله مع أن صناعتها لخلقه بالنظر لأجزائها الأصلية فهو تعالى الذى خلق الأشجار الذى تتخذ منه الألواح وخلق الحديد الذى يتخذ منه المسمار وخلق الماء على صفة الاستطراق والسيولة لتتمكن السفن من الجرى وخلق الرياح وأودع فيها من الحركات القوية ماجعلها قادرة على دفع السفن الضخمة . وخلق البحار والأنهار على نحو متسع وعميق يمكن السفن من الاجتياز .

وقال أبو حيان ـ وانطوى فى تسخير الفلك تسخير البحار والرياح (١) و ـ بأمره ـ أى بإذنه ومشيئته تعالى .

وبعد ذكر القوت وشيوعه فى أرجاء الأرض ذكر ما يحتاج إليه الإنسان بعد المطعم وهو الشرب فقال : — وسخر لكم الأنهار — إن أريد بها المياه العظيمة فتسخيرها جعلها معدة للشرب والسقى وإن أريد بها المكان فتسخيرها يعنى تيسيرها لتجرى فيها المياه .

ثم ذكر ماهو سبب فى مياه البحار والأنهار وهو الشمس عن طريق الحرارة وترفع البخار إلى طبقات الجو العليا مكوناً السحاب الذى يتساقط مطراً كما أنها سبب فى وجود الأكسجين اللازم لحياة الإنسان والحيوان وذلك عن طريق عملية التمثيل الضوئى مع النبات ولولا الشمس ماحصلت الفصول الأربعة .

---

(١) البحر المحيط ٤٢٨/٥

ولعل هذا هو سر تقديمها على القمر أى التقديم للأهمية وعظم النفع ثم إن الشمس ضياؤها ذاتى وأما نور القمر فمكتسب منها كما قال الحق — وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة — وقال — هو الذى الشمس ضياءاً والقمر نوراً — والضياء أعظم من النور .

فالشمس هى التى تعطى القمر نوره ومن الأولى تقـــديم ما يعطى على ما يأخذ .

وإذا كانت الشمس آية النهار وسلطانه ناسب أن يقرن بهما آية الليل وسلطانه وهو القمر — فقال — وسخر لكم الشمس والقمر دائبين — أى دائمين فى الحركة لا يفتران ومستمرين على الوضع الذى تتحقق به مصلحة العباد والبلاد ثم ذكر زمان وجود هذين القمرين وهو الليل والنهار فقال — وسخر لكم الليل والنهار — فقدم الليل على النهار لسبقه فى الوجود ولمناسبته ذكر القمر قبله لأنه آية الليل .

وتسخير الليل والنهار أى جعلهما يتعاقبان لسباتكم ومعاشكم كما قال تعالى — وجعلنا الليل والنهار خلفة — وهو الذى جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ...

وقال المتكلمون تسخير الليل والنهار مجاز لأنهما عرضان والأعراض لا تسخر (١) .

والتعبير عن تصريف هذه الآيات الكونية لمنافع الإنسان بالتسخير فى المواضع الأربعة مجاز منبىء عن صعوبة المأخذ وعزة المنال والدلالة على

---

(١) المصدر السابق .

عظم السلطان وذلك يلفت الكافرين إلى عظيم نعم الله فى الكون لعلهم يرتدعون عن الغى واتخاذ الأنداد من دون الله ويزداد المؤمنون إيماناً مع إيمانهم . وبخاصة أنه تعالى جعل هذه الآيات الكونية كذلك لخدمة الإنسان كما يظهر من ذكر — لكم — ست مرات فى جملها المستقلة — وفى إبراز كل من هذه النعم فى جمل مستقلة تنويه لشأنها وتنبيه على رفعة مكانها وتنصيص على كون كل نعمة جليلة مستوجبة للشكر .

وقد رتبت هذه النعم العشر على هذا الترتيب المحكم وهذا النظم الجميل ، إذ بدأ بالسموات والأرض لأنهما أصلان للكون والغلاف المحيط به من جهة العلو والسفل وثنى بالماء النازل من السماء إلى الأرض ليخرج به من الثمرات رزقا للعباد وذلك من باب التعجيل بالمسرة لشدة تعلق النفوس بالقوت ثم إن هذه الأقوات تتنوع من مكان إلى آخر فلا بد من تناقلها بين ربوع الأرض فجاء ذكر وسيلة النقل وهى الفلك وذكر طريقها وهو البحر ومعلوم من ذلك ضمنا القـــوة التى تدفعها وهى الرياح وكون قوة الرياح هى الدافعة للفلك قديماً فإن ذلك لا يعنى أن هذا التعبير لم يعد له وجود فى الحياة بعد التطور الهائل فى صناعة للسفن ووسائل المواصلات والنقل الخفيف والثقيل بل إن التعبير القرآنى عن هذه القوة فى منتهى الإعجاز حيث طابق مدلوله القديم وينطبق تمام الانطباق على المعنى الحديث إذ أن وسائل النقل فى البر والبحر والجو إنما تسير بهذه القوة عن طريق بخار الماء أو احتراق البنزين فى الموتور .

ولعل عدم النص على هذه القوة فى الأسلوب ليأخذ كل جيل المفهوم المناسب لها فى عصره فالقدماء عرفوا أنها قوة الرياح الطبيعية ومن يعيش فى عصر التكنولوجيا يعرفون أنها قوة الإحتراق الداخلى . وهكذا يتجدد عطاء القرآن لكل جيل .

وبعد القوت ذكر ما يلزم الإنسان والحيوان وهو الشرب فذكر — الأنهار — وهى تتجمع من المطر الساقط من السحاب المتكون من بخار الماء بفعل حرارة الشمس فجاء ذكر الشمس وهى سبب الماء النازل من السحاب فى البحار والأنهار ثم قرنت بالقمر لأنها سلطان النهار وهو سلطان الليل ومرتبطان بنافع العباد كما قال — لتعلموا عدد السنين والحساب — والشمس والقمر بحسبان — ثم ختم هذه النعم بالزمن الذى يعمها والناشىء عن حركة الأرض حول الشمس فذكر — الليل والنهار — وقدم الليل لسبقه فى الوجود ولمناسبته ما ينيره وهو القمر فجاء الترتيب على غاية من الإحكام والجمال فلا يقال إن تسخير الشمس والقمر كان يناسب ذكره بعد السموات لأنهما آيتان سماويتان لأن ذكر السموات استتبع ذكر الأرض لأنها جزء منها كما قال الحق — أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون — والحديث عن الأرض استتبع ما يخرج منها من الأرزاق وسببه وهو الماء النازل من السماء . والفلك الذى يجرى فيه وهكذا تفضى كل نعمة إلى ما يليها .

فلو ذكرت الشمس والقمر مع السموات لربما يتوهم أن الكل نعمة واحدة ولكن المقصود تعديد النعم على وجه الإستقلال ويلاحظ أنه تعالى ذكر عنصر الماء أكثر من مرة فهناك — الماء — النازل من السماء وهناك الماء المتجمع فى البحار والأنهار وأما الجزء اليابس وهو الأرض فلم يذكر إلا مرة واحدة ولعل هذا يشير إلى قلة نسبة اليابس إلى كثرة نسبة الماء على سطح الكرة الأرضية وهذا يؤكده الواقع فنسبة اليابس ٢٤ ٪ والماء ٧٦ ٪ .

وبعد ذكر هذه النعم العظيمة التى لم نسألها بين الحق أن إنعامه لم يقتصر على هذه النعم وإنما أعطى عباده من النعم بعض ما سألوه فقال —

وآتاكم من كل ما سألتموه — ومن رحمة الله بنا أنه لم يعطنا جميع ما نسأله لأن الإنسان قد يطلب شيئا فيه مضرة فلا يعطه الله له كالدعاء على ولده مثلا وقال — وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون —

فالمعنى — أعطاكم بعض جميع ما سألتموه حسبما تقتضيه مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة — فـ — من — تبعيضية — و — من كل — مفعول ثان لآتى .

وقرىء — من كل — بالتنوين — وما سألتموه — ما — نافية والمفعول الثانى — من كل — والجملة المنفية فى محل نصب حال أى آتاكم من كل غير سائليه ويجوز أن تكون ما — موصولة والضمير المنصوب فى — سألتموه — عائد عليها والتقدير — من كل الذى سألتموه إياه وأن تكون مصدرية والضمير لله تعالى والمصدر بمعنى المفعول أى مسؤلكم .

والقراءة على الإضافة أولى لأن القراءة الثانية تعنى أنهم لم يسألوه والأولى تعنى أنهم سألوه فبينهما تناف والأصل توافق القراءات .

وذهب بعضهم إلى تعميم الآية لأن السؤال كما يكون بالمقال يكون بدلا له الحال كالإحتياج والتطلع إلى المرغوب دون سؤاله والتقدير وآتاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه . لحذف الثانى لدلالة الأول عليه .

وعلى كل فهى تقرر كثرة نعم الله الواصلة إلى خلقه ولذلك أتبعها بقوله — وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها — وهو تأكيد وزيادة فى التعميم تنبيها على أن ما آتاهم الله كثير منه معلوم وكثير منه لا يحيطون بعلمه أولا يتذكرونه عند إرادة تعداده(١) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٦/١٣ .

وقد وضع النظم على وضع يحقق عدم المقدرة على العد فصدر به — إن — الدالة على الشك والتردد دون — إذا — الدالة على القطع والوجوب مع أن عدم العد مقطوع به وذلك نظراً إلى توهم أنه يطاق فإنهم لن يستطيعوا أن يعدوا نعمة واحدة إجمالا فضلا عن التفصيل .

ومعنى — لا تحصوها — أى لا تطيقوا حصرها ولو إجمالا لأنها غير متناهية .

وقد استخدمت الأفعال الدالة على العد وهى - تعدوا - تحصوها - لأن أصل الإحصاء العد بالحصى كما قال الأعشى :

ولست بالأكثر منهم حصى وإنما العـزة للكاثر

ثم استعمل لمطلق العد .

أى أن هناك إنسجاما تاما بين اللفظ ومعناه وموضوع استخدامه وهذا هو الجمال بين اللفظ والمعنى المقصود فى البلاغة القرآنية .

ثم كان ختام هذه النعم تقريرا كاملا ودقيقا عن حالة الإنسان المتلقى لهذه النعم الكثيرة إن الإنسان لظلوم كفار — وسواء كانت هذه الجملة من باب الإستئناف البيانى كأنه قيل — لم يراعوا حقها ؟ ولم حرمها بعضهم ؟ أو كانت من باب التأكيد على ذم الذين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا لله أندادا .

فقد حشدت بألوان من المؤكدات — إن — واسمية الجملة واللام الواقعة فى الخبر — لظلوم — وتتابع الصفات على صيغة المبالغة — ظلوم — كفار — وذلك من منطلق كثرة النعم فكلما كثرت النعم كثر كفر الكافرين بها والظالمين لها .

أى يظلم النعمة بإغفال شكرها وكفار أى شديد الكفران لها

وقيل ظلوم فى الشدة يشكو ويجزع وكفار فى النعمة يجمع ويمنع (١) .

ويلاحظ أن الفاصلة هنا فى قوله ـ وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار — قد اختلفت عنها فى قوله تعالى فى سورة النحل — وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم — وذلك لاختلاف المقام . فالمقام فى سورة إبراهيم هو تسجيل الظلم والكفران على الذين بدلوا نعمة كفرا وأحلوا قومهم دار البوار وجعلوا لله أندادا فناسب هذه القبائح والمناكر أن تختم بذم من وقع ذلك منه فختمت الآية بقوله سبحانه — إن الإنسان لظلوم كفار —

وأما فى سورة النحل فالمقام ذكر تفضلات أطنب الحق فى بيانها من ذكر خلق السموات والأرض وخلق الناس من نطفة وخلق الأنعام ومافيها من جمال وخلق وسائل المواصلات البدائية منها والحديثة وإنزال الماء من السماء وإنبات الزروع المختلفة وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وتسخير البحر ومافيه والأرض ومافيها وما عليها ثم قال — أفمن يخلق كمن لا يخلق — أى من أوجد هذه النعم السابق ذكرها ليس كمن لا يقدر على الخلق وذكر من تفضلاته أنه متصف بالغفران والرحمة تحريضا على الرجوع إليه سبحانه وأن هاتين الصفتين هو جل وعلا متصف بهما كما هو متصف بالخلق فنى ذلك اطماع لمن آمن به تعالى وانتقل من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق تبارك وتعالى إنه يغفر زللة السابق ويرحمه وكذلك أنه لما ذكر أنه تعالى هو المتفضل بالنعم على الإنسان ذكر ما حصل من المنعم ومن جنس المنعم عليه فحصل من المنعم ما يناسب حالة عطائه وهو الغفران والرحمة إذ لولاهما لما أنعم عليه وحصل من جنس المنعم عليه ما يناسب حالة الإنعام عليه ويقع معها فى

---

(١) تفسير الرازى ١٣٠/١٩ .

الجملة وهو الظلم والكفران فكأنه قيل إن صدر من الإنسان ظلم فالله تعالى غفور أو كفران فالله تعالى رحيم لعلمه بعجز الإنسان وقصوره (١) .

فالآيتان متكاملتان وليستا من باب التكرار فالنعم من حيث الكم كثيرة ومن حيث المعطى أنه غفور رحيم ومن حيث الآخذ أنه ظلوم كفار .

ولهذا المعنى السابق خولف بين كتابة النعمة فى الموضعين حيث كتبت بالتاء المفتوحة فى سورة إبراهيم وبالتاء المربوطة فى سورة النحل لأنها فى الأولى كانت فى موضع التغيير عن مكانها الأصلى فقد بدلوا شكرها كفرا فاقتضى ذلك أن يكون رسمها فى المصحف على خلاف الأصل فى الكتابة .

وأما فى سورة النحل فقد كتبت على الأصل لأنها فى مقام ورودها الأصلى من قبل الله عز وجل المتفضل بها على خلقه .

المعنى الإجمالى للآيات :

وضحت الآيات المباركات النعم العامة التى أفاض الحق بها على خلقه وهى تلك النعم الكونية التى بدأت بخلق السموات والأرض وكيف رفعت السموات بغير عمد ومدت الأرض على وضع يهيء للإنسان أن ينتفع بها بوساطة الماء النازل من السحاب فيخرج به الزرع مختلف ألوانه تحقيقا لقوله تعالى — وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج —

---

(١) روح المعانى ٢٢٩/١٣ والبحر المحيط ٤٢٩/٥ .

وبحركة الشمس الذاتية وبحركة الأرض حولها تتنوع الفصول ويختلف المناخ من بيئة إلى أخرى وذلك يستدعى تنوع الغذاء والحاصيل والثمار من مكان إلى آخر فكان من رحمة الله بالإنسان وتحقيقا لعدله عز وجل أنه ألهمه صناعة الفلك وسخر له الرياح والبحار لينتقل بهذه الثروة من مكان إلى آخر كما وفر له الماء العذب ليشرب ويسقى أنعامه التى ينتفع بها فى الحياة فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن .

وبدوران الأرض حول نفسها تتنوع الظلمة والنور ويأتى الليل والنهار خلفة ويتقاسم الإنسان الزمن على سطح الكرة الأرضية فيعمل ويكد لمعاشه بالنهار ويأوى إلى مسكنه للراحة والهدوء بالليل — وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا — وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا — ولم تقتصر نعمه على هذه الآيات الكونية العظيمة بل أعطى الإنسان ما يسأله وكم كان رحيما بنا عندما حثنا على السؤال فقال — وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان — وقال النبى الصلاة والسلام — من لم يسأل الله يغضب عليه — وقال الشاعر :

الله يغضب إن تركت سـؤاله
وبنى آدم حين يسـأل يغضب

وكم كانت رحمته بنا أكثر فى قضاء البعض دون البعض الآخر لأن الإنسان قد يدعو على ولده أو يطلب إثما أو يدعو بقطيعة رحم ولذلك كانت كلمة من فى قوله — من كل ما سألتموه — لها دلالتها ومغزاها فى النظم القرآنى . وقال رسول الله ﷺ — ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخر له وإما أن يكف عنه من السوء مثلها —

ونعم الله على العباد كثيرة ولا يطيق الإنسان أن يحصرها على وجه الإجمال فضلا عن التفصيل . بل لو سئلت كيف ترى وتسمع وتتذوق لما عرفت حقيقة ذلك فاستمع إلى العلم يحدثك — فى هذا المخ يوجد ألف مليون خلية عصبية ومن كل هذه الخلايا تخرج أسلاك تنتشر فى سائر الجسم وتسمى هذه الأسلاك بالأنسجة العصبية وفى هذه الأنسجة يجرى نظام استقبال وارسال للأخبار بسرعة سبعين ميلا فى الساعة وبوساطة هذه الأنسجة نتذوق ونسمع ونرى ونباشر سائر أعمالنا بل إن هنالك ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة وتسمى Taste Buds — ولكل منها سلك عصبى خاص متصل بالمخ وبوساطة هذه الشعيرات يحس بالمذاقات المختلفة وتوجد فى الأذن عشرة آلاف خليـــة سمعية ومن خلال نظام معقد يسرى من هذه الخلايا يسمع مخنا وفى كل عين مائة وثلاثون مليونا من الخلايا الملتصقة للضوء Light Recep Tars وتقوم بمهمة إرسال المجموعة التصويرية إلى المخ وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا فإذا قربنا إلى الجلد شيئا حارا فإن ثلاثين ألفا من الخلايا الملتصقة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فورا إلى المخ وإذا قربنا إلى الجلد شيئا باردا فان ربع مليون من الخلايا التى تلتقط الأشياء الباردة تحس به وعندئذ يمتلىء المخ بأثرها، ويرتعد الجسم وتتسع الشرايين الجلدية فيسرع مزيد من الدم اليها ويزودها بالحرارة وإذا أحست هذه الخلايا بالحرارة الشديدة فان مخابرات الحرارة توصلها إلى الدماغ وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية تلقائيا عرقا باردا إلى خارج الجسم والنظام العصبى يشتمل على عدة فروع منها — الفرع المتحرك ذاتا — ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا فى الجسم كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب ويندرج تحت هذا الفرع نظامان :

أحدهما — النظام الخالق للحركة :

والآخر — النظام المانع للحركة :

ولا بد من التوازن الدقيق بين النظامين وإلا لو زاد النظام الأول لزادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه.

ولو ترك الأمر للنظام الثانى لتوقفت حركة القلب تماما .

فلا بد من الدقة الفائقة والتوازن التام ولكن هناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين .

فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة وعندئذ تزيد سرعة القلب والرئة .

والنظام الثانى يتغلب عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية . وصدق الله العظيم الذى قال — وفى أنفسكم أفلا تبصرون(١)

وعن نعمة اللقمة يقول الرازى — إذا أخذت اللقمة الواحدة لتضعها فى الفم فانظر إلى ماقبلها وإلى مابعدها . أما الأمور التى قبلها فاعرف أن تلك اللقمة من الخبز لا تتم ولا تكمل إلا إذا كان هذا العالم بكليته قائما على الوجه الأصوب لأن الحنطة لا بد منها وأنها لا تنبت إلا بمعونة الفصول الأربعة وتركيب الطبائع وظهور الرياح والأمطار ولا يحصل شىء منها إلا بعد دوران الأفلاك واتصال بعض الكواكب ببعض على وجوه مخصوصة فى الحركات وفى كيفيتها فى الجهة والسرعة والبطء .

ثم بعد أن تكون الحنطة لابد من آلات الطحن والخبز وهى لا تحصل إلا عند تولد الحديد فى أرحام الجبال ثم إن الآلات الحديدية لا يمكن

---

(١) الإسلام يتحدى ٨١

إصلاحها إلا بآلات أخرى حديدية سابقة عليها ولا بد من انتهائها إلى آلة حديدية هي أول هذه الآلات فتأمل أنها كيف تكونت

على الأشكال المخصوصة ثم إذا حصلت تلك الآلات فانظر أنه لابد من اجتماع العناصر الأربعة وهي الأرض والماء والهواء والنار حتى يمكن طبخ الخبز من ذلك الدقيق فهذا هو النظر فيما تقدم على حصول هذه اللقمة ،

وأما النظر فيما بعد حصولها فتأمل في تركيب بدن الحيوان وهو أنه تعالى كيف خلق الأبدان حتى يمكنها الإنتفاع بتلك اللقمة وأنه كيف يتضرر الحيوان بالأكل وفي أي الأعضاء تحدث تلك المضار ولا يمكنك أن تعرف القليل من هذه الأشياء إلا بمعرفة علم التشريح وعلم الطب بالكلية .

والعقول قاصرة عن إدراك ذرة من هذه المباحث فظهر بهذا البرهان القاهر صحة قوله تعالى — وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها (١)

ومع ذلك لم يقدر الإنسان هذه النعم الظاهرة والباطنة حق قدرها .

ونسي الطين ساعة أنه طين فصال تيها وعربد

إن الإنسان لظلوم كفار .

قال الله تعالى — وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ٣٥ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ٣٦ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة

---

(١) تفسير الرازي ١٣٠/١٩

من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ٣٧ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ٣٨ — الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء ٣٩ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ٤٠ ربنا أغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ٤١

رب . الرب فى الأصل التربية وهو إنشاء الشىء حالا فحالا إلى حد التمام يقال ربه ورباه وربيه فالرب مصدر مستعار للفاعل .

ولا يقال الرب مطلقا إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات نحو قوله — بلدة طيبة ورب غفور .

وبالإضافة يقال له ولغيره نحو قوله — رب العالمين — ويقال رب الدار ورب الفرس لصاحبهما وعلى ذلك قوله تعالى — اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه — وقوله — قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى — قيل عنى به الله تعالى وقيل عنى به الملك الذى رباه والأول أليق .

وجمعه أرباب قال تعالى — أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ولم يكن من حق الرب أن يجمع إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا الله تعالى لكن أتى بلفظ الجمع فيه على حسب اعتقادهم لا على ما عليه ذات الشىء فى نفسه .

والربيب والربيبة الولد من زوج سابق — وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن .

والرباب السحاب سمى بذلك لأنه يرب النبات وبهذا النظر سمى المطر درا

و — رب — لاستقلال الشىء ولما يكون وقتا بعد وقت — ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين .

والربوبية مصدر يقال فى الله عز وجل .

والربانى قيل منسوب إلى الربان أو منسوب إلى المصدر ، وهو الذى يرب العلم أو منسوب إلى الرب أى الله تعـالى فالربانى كقولهم إلهى وزيادة النون فيه كزيادته فى قولهم لحيانى وجسمانى .

والجمع — ربانيون — ومثله — الربى — قال تعالى — لولا ينهاهم الربانيون والأحبار — وقال — وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير .

أجنبى . أصل الجنب الجارحة وجمعه جنوب — تتجافى جنوبهم عن المضاجع ثم يستعار فى الناحية التى تليها كعادتهم فى استعارة سائر الجوارح لذلك نحو اليمين والشمال — والصاحب بالجنب أى القريب وقال تعالى — يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله — أى فى أمره وحده الذى حده لنا — والجار الجنب — أى البعيد .

وقوله — وأجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام — من جنبته عن كذا أى أبعدته وقيل هو من جنب الفرس . كأنما سأله أن يقوده عن جانب الشرك بألطاف منة وأسباب خفية .

وسميت الجنابة بذلك لكونها سبباً فى تجنب الصلاة فى حكم الشرع .

وبنى — جمع ابن ويقال فى جمعه أبناء وبنون وسمى بذلك لكونه بناء للأب فإن الأب هو الذى بناه وجعله الله بناء فى إيجاده ويقال لكل ما يحصل من جهة شىء أو من تربيته أو بتفقده أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره هو ابنه فيقال فلان ابن حرب وابن السبيل للمسافر وابن الليل وابن العلم وابن يومه إذا كان همة منصرفا إلى ذلك .

الأصنام . الصنم جثة متخذة من فضة أو نحـاس أو خشب كانوا

يعبدونها متقربين بها إلى الله تعالى وجمعه أصنام — لأكيدن أصنامكم .

وقال بعض الحكماء — كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم — وعلى هذا الوجه قال إبراهيم — واجنبني وبني أن نعبد الأصنام — فمعلوم أن إبراهيم مع تحققه بمعرفة الله تعالى واطلاعه على حكمته لم يكن ممن يخاف أن يعود إلى عبادة تلك الجثث التي كانوا يعبدونها فكأنه قال أجنبني عن الاشتغال بما يصرفني عنك .

الإتباع : هو اقتفاء الأثر والعصيان عدم الطاعة .

غفور : الغفر إلباس ما يصونه عن الدنس ، والغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب ويقال غفر له إذا تجافى عنه في الظاهر وإن لم يتجاف عنه في الباطن نحو — قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله .

والإستغفار طلب ذلك بالمقال والفعال نحو — استغفروا ربكم إنه كان غفارا — لم يؤمروا أن يسألوه ذلك باللسان فقط بل باللسان وبالفعال .

رحيم : الرحم رحم المرأة ومنه استعير الرحم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة والرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة. فإذا وصف بها البارى فليس يراد إلا الإحسان المجرد دون الرقة ، وعلى هذا روى أن الرحمة من الله إنعام وإفضال ومن الآدميين رقة وتعطف .

والرحمن لا يطلق إلا على الله الذي وسع كل شيء رحمة .

والرحيم: يستعمل فيه وفي غيره وهو الذي كثرت رحمته .

وقيل إن الله تعالى هو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة وذلك أن إحسانه فى الدنيا يعم المؤمنين والكافرين وفى الآخرة يختص بالمؤمنين .

أسكنت . السكون ثبوت الشىء بعد تحرك ويستعمل فى الاستيطان .

ويقال سكنته وأسكنته — قال تعالى — لتسكنوا فيه — أسكنت من ذريتى .

والسكين سمى لإزالته حركة المذبوح ويقال للعقل سكينة إذا سكن عن الميل للشهوات .

زرع — الزرع فى الأصل مصدر وعبر به عن المزروع والزرع هو الإنبات وحقيقته بالأمور الإلهية دون البشرية كما قال تعالى — أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون — فنسب الحرث إليهم ونفى عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه وإذا نسب إلى العبد فلكونه فاعلا للأسباب التى هى سبب الزرع .

أفئدة — الفؤاد كالقلب لكن يقال له فؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أى التوقد يقال . فأدت اللحم شويته ولحم فئيد مشوى .

وهب — الهبة أن تجعل ملكك لغيرك بلاعوض كما فى هذه الآية وفى غيرها وأما قول جبريل لمريم — لأهب لك غلاماً ذكيا — فقد نسب الهبة لنفسه لأنه سبب فى إيصالها وقرىء — ليهب لك .

لسميع : السمع قوة فى الأذن به يدرك الأصوات ويعبر تارة عن السمع بالأذن — ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم — وتارة عن فعله كالسماع — إنهم عن السمع لمعزولون — وتارة عن الفهم وعن الطاعة .

تقول — إسمع ما أقول لك ولم تسمع ما قلت وتعنى لم تفهم . وقالوا سمعنا وعصينا — أى فهمنا قولك ولم تطمع وقال تعالى ولا تكونوا

كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون — أى فهموا ولم يعملوا بموجب الفهم فكأنهم لم يسمعوا .

وكل موضع أثبت الله السمع للمؤمنين أو نفى عن الكافرين أو حثه على تحرية فالقصد به إلى تصور المعنى والتفكر فيه .

ووصف الله بالسمع يعنى علمه بالمسموعات وتحريه بالمجازاة بها .

نظرات فى نظم الآيات :

بعد أن ذكر الله عز وجل النعم العامة توبيخاً للكافرين الذين انصرفوا عنها وتثبيتاً للمؤمنين الذين اعتبروا بها ذكر فى هذه الآيات النعم الخاصة وقد كفروا بها كذلك وعصوا أباهم إبراهيم عليه السلام حيث أسكنهم مكة زادها الله تعالى شرفا لإقامة الصلاة واجتناب عبادة الأصنام والشكر لنعم الله تعالى وسأله أن يجعله بلداً آمنا ويرزقهم من الثمرات ويهوى قلوب الناس إليهم فاستجاب الله تعالى دعاءه وجعله حرما آمناً تجبى إليه ثمرات كل شيء فكفروا بتلك النعم العظام واستبدلوا دار البوار بالبلد الحرام وجعلوا لله أنداداً وفعلوا مافعلوا من القبائح الجسام . وكان حريا بهم أن ينظروا فى دين أبيهم إبراهيم ليعرفوا مخالفتهم لذلك الدين الخالص فيزدجروا ويرجعوا عنها . أى أنها تقرير لما حث عليه المؤمنين من الثبات على ملة أبيهم إبراهيم ودعوة للكافرين بلسان اللطف ليقلعوا عن ضلالهم وظلمهم(١) .

والنعم العامة لإثبات قدرة الله والنعم الخاصة لإثبات المحبوبية له تعالى .

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٣٣/١٣ والبحر المحيط ٤٣٠/٥

والواو فى — وإذا — واو العطف والمعطوف عليه إما جملة — ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ... فإنهم كما بدلوا نعمة الله كفراً أهملوا الشكر على ما بوأهم الله من النعم بإجابة دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام وبدلوا اقتداءهم بسلفهم الصالح اقتداء بأسلافهم من أهل الضلال وبدلوا دعاء سلفهم الصالح لهم بالإنعام عليهم كفراً بمفيض تلك النعم .

وإما جملة — الله الذى خلق السموات والأرض ... بأن انتقل من ذكر النعم العامة للناس التى يدخل تحت منتها أهل مكة بحكم العموم إلى ذكر النعم الخاصة بأهل مكة وغير الأسلوب فى الامتنان بها إلى أسلوب الحكاية عن إبراهيم لإدماج التنويه بإبراهيم عليه السلام والتعريض بذريته(١) من المشركين.

و — إذ — كما سبق — مفعول لفعل محذوف أى أذكر ذلك الوقت والمقصود التذكير بما وقع فيه .

وإيثار — إذ — لأنها للمضى وحدث القول ماضى — قال إبراهيم — فهنا تماثل بين الظرف والفعل فى الدلالة على الحدث الماضى . ثم بينت الآية ما قاله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام — رب اجعل هذا البلد آمناً — وقد بدأ دعاءه بلفظ — رب — المشعر بالتربية والفضل والإنعام ومضاف إلى ياء المتكلم وقد حذفت تخفيفاً وأما حذف حرف النداء فللإشارة إلى إلغاء الوساطة بينه وبين الله عز وجل «فإذا كان الله عز وجل قد رفع الوساطة بينه وبين عباده بقوله — وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب — فإن رفع هذه الوساطة بينه وبين خليله أولى وأوجب . وبعد الدخول إلى ساحة الفيوضات الإلهية كان الطلب — اجعل هذا البلد آمنا .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣٧/١٣

والبلد هي مكة شرفها الله تعالى وزادها تشريفاً في كل حين وهي بدل أو عطف بيان لإسم الإشارة وتعريفها للعهد لأنها معهودة بالحضور والمشاهدة ولذلك عرفها وأما ما ورد في سورة البقرة بالتنكير وهو قوله تعالى — رب اجعل هذا بلدا آمنا — لأنه كان مكانا منكوراً غير مشهور بالتميز فالتنكير فيه للنوعية ولذلك قال الخطيب الإسكافي : لم كان في هذه السورة — أي البقرة — نكرة وفي سورة إبراهيم معرفة؟

والجواب عن ذلك من وجهين :

أحدهما : أن يقال الدعوة الأولى وقعت ولم يكن المكان قد جعل بلدا فكأنه قال اجعل هذا الوادي بلدا آمنا لأن الله حكى عنه أنه قال — وبنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم — بعد قوله اجعل هذا الوادي بلداً ووجه الكلام فيه تنكير الذي هو مفعول ثان وهذا مفعول أول .

والدعوة الثانية وقعت وقد جعل بلداً فكأنه قال اجعل هذا المكان الذي صيرته كما أردت ومصرته كما سألت ذا أمن على من يأوي إليه فيكون البلد على هذا عطف بيان على مذهب سيبويه وصفة على مذهب أبي العباس المبرد وآمنا مفعولا ثانيا .

فعرف حين عرف بالبلدية ونكر حيث كان مكانا من الأمكنة غير مشهور بالتميز عنها بخصوصية من عمارة وسكنى الناس .

والجواب الثاني أن تكون الدعوتان واقعتين بعدما صار المكان بلداً وإنما طلب من الله أن يجعله آمنا والقائل يقول اجعل ولدك هذا ولدا أديبا وهو ليس يأمره بأن يجعله ولدا لأن ذلك ليس إليه وإنما يأمره بتأديبه فكأنه قال اجعله بهذه الصفة ،

وكما فى قولك — كان اليوم يوما حارا — فتجعل يوما خبر كان وحارا صفة له ولم تقصد أن تخبر عن اليوم بأنه كان يوما لأنه يصير خبرا غير مفيد وإنما القصد أن تخبر عن اليوم بالحر فكان الأصل أن تقول كان اليوم حارا وأعددت لفظ يوم لتجمع بين الصفة والموصوف فكأنك قلت كان هذا اليوم من الأيام الحارة .

فكذلك قوله — رب اجعل هذا بلدا آمنا — يجوز أن يكون المراد أجعل هذا البلد بلدا آمنا فتدعو له بالأمن بعدما قد صار بلدا على مامثلنا ويكون مثل قوله — اجعل هذا البلد آمنا — وتكون الدعوة واحدة قد أخبر الله عنها فى الموضعين .

فأما قول من يقول جعل الأول نكرة فلما أعيد ذكرها أعيد بلفظ المعرفة كما تقول — رأيت رجلا فأكرمت الرجل ، فليس بشىء .

وقال الزمخشرى ونقله الألوسى ، أنه عليه السلام سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون وفى الثانى أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن كأنه قال هو بلد مخوف فاجعله آمنا ، وتحقيقه أنك إذا قلت ، اجعل هذا خاتما حسنا فقد أشرت إلى المادة طالبا أن يسبك منها خاتم حسن وإذا قلت اجعل هذا الخاتم حسنا فقد قصدت الحسن دون الخاتمية وذلك لأن محط الفائدة هو المفعول الثانى لأنه بمنزلة الخبر وإلى هذا يرجع إلى ما قيل فى الفرق أن فى الأول سؤال أمرين البلدية والأمن وهنا سؤال أمر واحد وهو الأمن (١) .

أى أن قوله — آمنا — على وجه التنكير صفة للمفعول الثانى وعلى

---

(١) ينظر درة التنزيل وغرة التأويل ٣٠ وأسرار التكرار ٣٥ وروح المعانى ١٣/٢٣٣ والكشاف ٢/٣٧٩

وجه التعريف مفعول ثان ، فهنا دعا للبلد أن يكون آمنا وفى البقرة دعا للمشار إليه أن يجعله الله من نوع البلاد الآمنة .

وإنما كان طلبه الأمن أولا حتى يتمكن من عبادة الله عز وجل فنعمة الأمن أدخل فى استيجاب الشكر فذكره أنسب بمقام تقريع الكفرة على إغفاله وقد ضرب العلماء مثلا لتقديم نعمة الأمن على غيرها بأن الشاة المريضة تأكل رغم مرضها فإذا وضع بجوارها ذئب امتنعت عن الأكل .

ثم كان الدعاء الثانى — واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام — وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ثم استعمل فى البعد والمراد هنا على ما قال الزجاج طلب الثبات والدوام على ذلك أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام وإلا فالأنبياء معصومون عن الكفر وعبادة غير الله ، وإذا كان من المعلوم أن الله يثبت الأنبياء عليهم السلام على الإجتناب فما الفائدة فى سؤال التثبيت ؟

قال الرازى : والصحيح عندى فى الجواب وجهان .

الأول : أنه عليه السلام وإن كان يعلم أن الله تعالى يعصمه من عبادة الأصنام إلا أنه ذكر ذلك هضما لنفسه وإظهارا للحاجة والفاقة إلى فضل الله سبحانه وتعالى فى كل المطالب .

والثانى : أن الصوفية يقولون الشرك نوعان ، ظاهر وهو الذى يقول به المشركون وخفى وهو تعلق القلب بالوسائط والأسباب الظاهرة والتوحيد المحض قطع النظر عما سوى الله تعالى فيحتمل أن يكون مراده عليه السلام من هذا الدعاء العصمة عن هذا الشرك .

فإن قيل ما فائدة طلب العصمة عن ذلك والأنبياء عليهم السلام معصومون عنه ؟ قيل ، إن عصمة الأنبياء عليهم السلام ليست لأمر طبيعي فيهم بل بمحض توفيق الله تعالى إياهم وتفضله عليهم ولذلك صح طلبها وفي بعض الآثار أن الله سبحانه قال لموسى عليه السلام ، ياموسى لا تأمن مكرى حتى تجوز الصراط (١) .

وبعد أن طلب الثبات والدوام على التوحيد والإسلام لنفسه — اجنبني طلب ذلك لبنيه — وبني — فقد ترقى من نفسه إلى بنيه والمراد ببنيه هم أبناء صلبه وهم يومئذ إسماعيل وإسحاق فهو من إستعمال الجمع في التثنية أو أن هذا الدعاء مختص بالمؤمنين من أولاده ولذلك قال — فمن تبعني فإنه مني — وذلك يفيد أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه كما قال لنوح عليه السلام — إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح .

أو أنه عمم في الدعاء وأراد جميع نسله تعميما في الخير ولكن الله تعالى أجاب له في حق البعض دون البعض وذلك لا يوجب تحقير الأنبياء ونظيره قوله تعالى لإبراهيم عليه السلام — قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدى الظالمين — وعلى ذلك فلاعتراض يكون مشركي قريش عبدوا الأصنام .

ثم بين عليه السلام علة دعائه السابق بقوله — رب إنهن أضللن كثيرا من الناس — .

فأعاد النداء — رب — إستعطا فا لربه تعالى ورغبة في استجابته .

وإسناد الضلال إلى الأصنام لأنها سببه وذلك من باب المجاز العقلي وتأنيثها لأنها جمع ما لا يعقل يخبر عنه اخبار المؤنث .

---

(١) روح المعاني ٢٣٤/١٣

وتصدير الجملة بـ — إن — لتأكيد سببية الضلال إلى الأصنام وتقرير معنى التعليل للدعاء السابق والجملة تفيد معنى التحسر على ضلال كثير من الناس .

ثم فرع على ذلك قوله — فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم — أى فمن تبعنى منهم فيما أدعوا إليه من التوحيد وملة الإسلام فإنه منى — يحتمل أن تكون — من — تبعيضية على معنى التشبيه أى فإنه كبعضى فى عدم الإنفكاك ويحتمل أن تكون اتصالية كما فى قوله عليه الصلاة والسلام لعلى كرم الله وجهه — أنت منى بمنزلة هارون من موسى — وأصلها التبعيض المجازى أى فإنه متصل بى اتصال البعض بكله وتسميتها اتصالية لأنه يفهم منها اتصال شىء بمجرورها .

أى فإنه متصل بى لا ينفك عنى فى أمر الدين .

وقوله — ومن عصانى — أى من لم يتبعنى والتعبير عنه بالعصيان للإيذان بأنه عليه السلام مستمر على الدعوة وأن عدم اتباع من لم يتبعه إنما هو لعصيانه وليس لأن الدعوة لم تبلغه .

وقال أبو حيان — ومن عصانى هذا فيه طباق معنوى لأن التبعية طاعة — (١) .

وسئل عبد العزيز المكى ، لم لم يقل الخليل ومن عصاك ؟ فقال لأنه عظم ربه عز وجل وأجله من أن يثبت أن أحدا يجترىء على معصيته سبحانه وكذا أجله سبحانه من أن يبلغ أحد مبلغ ما يليق بشأنه عز شأنه من طاعته حيث قال — فمن تبعنى — (٢) .

---

(١) البحر المحيط ٤٣١/٥

(٢) روح المعانى ٢٥٩/١٣

والعصيان ذكر فى مقابلة اتباع إبراهيم عليه السلام فالمراد به الكفر كما قال ابن عطية أو الشرك فى الآية دليل على جواز غفران الشرك ولا إشكال فى ذلك بناء على ما قال النووى فى شرح مسلم من أن مغفرة الشرك كانت فى الشرائع القديمة جائزة فى أممهم وإنما امتنعت فى شرعنا .

واختلف القائلون بأن مغفرة الشرك لم تكن جائزة فى شريعة من الشرائع فى توجيه الآية فمنهم من ذهب إلى أن المراد غفور رحيم بعد التوبة ومنهم من ذهب إلى تقييد العصيان بما دون الشرك وقيل إن المعنى ومن عصانى بإقامته على الكفر فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بأن تنقله من الكفر إلى الإيمان أو المعنى ومن لم يتبعنى فيما أدعو إليه من التوحيد وأقام على الشرك فإنك قادر على أن تستر عليه وترحمه بعدم معاجلته بالعذاب ومنهم من قال إن الكلام على ظاهره وكان ذلك منه عليه السلام قبل أن يعلم أن الله سبحانه لا يغفر الشرك ولا نقص بجهل ذلك لأن مغفرة الشرك جائزة عقلا كما تقرر فى الأصول لكن الدليل السمعى منع ... والإمام لم يرتض أكثر هذه الأوجه وجعل هنا الكلام منه عليه السلام شفاعة فى إسقاط العقاب عن أهل الكبائر قبل التوبة ومتى ثبت ذلك فى حق أبينا إبراهيم عليه السلام فإنه يثبت فى حق نبينا محمد ﷺ لتبعيته له ولأنه أشرف المرسلين .

وعلى كل فإن قول إبراهيم — فإنك غفور رحيم — دال على مدى رحمته وحلمه بمن يعصى من ذريته فلم يقل ومن عصانى فعذبه عذاباً شديداً وإنما أفوض أمره إلى غفرانك ورحمتك وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم وخشية من عذاب الاستئصال الذى يجتاح العصاة من ذريته وكأنه عليه السلام يقدم المنفعة حتى للعصاة من الناس بقدر ما يستطيع كما قال تعالى — ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير —

وإذا كان قوله — فإنك غفور رحيم — تفويضاً لم يكن فيه دلالة على أن الله يغفر لمن يشرك به (١) .

وتقـــديم المغفرة على الرحمة لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة والسلامة مقدمة على الغنيمة إذ من المعلوم أن دره المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ثم يتابع إبراهيم دعاءه ويكرر النداء رغبة فى الإجابة والإلتجاء إليه وزيادة فى التضرع ، وأضيف الرب هنا إلى ضمير الجمع خلافا لسابقيه لأن الدعاء الذى افتتح به فيه حظ للداعى ولأ بنائه ولعل إسماعيل عليه السلام حاضر معه حين الدعاء .

والتعرض لوصف ربوبيته تعالى لهم أدخل فى القبول وإجابة المسئول والتأكيد لمزيد الإعتناء فيما قصده من الخبر وتصدير الجملة بـ — إن — إنى أسكنت — دلالة على أنه ممتلىء النفس بهذا الدعاء .

ومن — فى قوله — من ذريتى — بمعنى بعض وهى فى تأويل المفعول به أى أسكنت بعض ذريتى ويجوز أن يكون المفعول محذوفا والجار والمجرور صفته سدت مسده أى أسكنت ذرية من ذريتى ومن تحتمل التبعيض والتبيين والمراد بالبعض هنا هو إسماعيل وإسكانه حقيقة وأما إسكان أولاده فمجاز فمن لم يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز يرتكب لذلك عموم المجاز .

ثم ذكر موضع الإسكان — بواد غير ذى زرع — والوادى هو وادى مكة وإطلاق الوادى عليها لأنها أرض بين الجبال والصفة الأولى لهذا الوادى هو أنه — غير ذى زرع — وهو أبلغ من الوصف بكونه

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٠ .

غير مزروع لأن المعنى أنه ليس صالحاً للزرع لحجريته فإن كلمة — ذو — تدل على صاحب ما أضيفت إليه وتمكنه منه فإذا قيل — ذو مال — فالمال ثابت له وإذا أريد ضد ذلك قيل — غير ذى كذا — كقوله تعالى — قرآناً عربياً غير ذى عوج — أى لا يعتريه شىء من العوج .

وقال ابن عطية : وإنما لم يصفه عليه السلام بالخلو عن الماء مع أنه حاله إذ ذاك لأنه كان علم أن الله تعالى لا يضيع إسماعيل وأمه فى ذلك الوادى وأنه سبحانه يرزقهما الماء فنظر عليه السلام النظر البعيد . وقال أبو حيان بعد نقله وقد يقال إن انتفاء كونه ذا زرع مستلزم لانتفاء الماء إذ لا يمكن أن يوجد الزرع إلا حيث يوجد الماء فنفى ما يتسبب عن الماء وهو الزرع لانتفاء سببه وهو الماء .

وقال بعضهم إن طلب الماء لم يكن مهماً لأن الوادى مظنة السيول والمحتاج إلى الماء يدخر ما يكفيه وإنما المهم هو طلب الثمرات فوصف ذلك بكونه غير صالح للزرع بياناً لكمال الافتقار إلى المسئول وتمهيداً لطلب الثمرات .

والصفة الثانية لهذا الوادى هى — عند بيتك المحرم — وهذه العندية تفيد كون الإسكان لمحض التقرب إلى الله تعالى والالتجاء إلى جواره الكريم والطمع فى إجابة الدعاء والعصمة من كل سوء ينبىء عنه التعرض لعنوان الحرمة المؤذن بعزة الملجأ وعصمته من المكاره وقد قالوا فى معنى كون البيت محرماً أن الله تعالى حرم التعرض له أو التهاون به أو أنه لم يزل ممنعاً عزيزاً يهابه الجبابرة فى كل عصر أو لأنه منع منه الطوفان فإن لم يستول عليه ولذا سمى عتيقاً ولذلك استقر فى جميع النفوس تعظيمه وتوقيره — ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم — .

ثم بين عليه السلام علة الإسكان بهذا الوادى عند البيت المحرم بقوله

— ربنا ليقيموا الصلاة — أى لأن يقيموا الصلاة فاللام جارة والفعل منصوب بأن مضمرة بعدها والجـــار والمجرور متعلق — بأسكنت — وتكرير النداء وتوسيطه لإظهار كمال العناية بإقامة الصلاة فإنها عماد الدين ولهذا خصها بالذكر من بين سائر شعائره وزيادة فى التضرع والتأكيد على ترابط جمل الدعاء .

وقد أشار العلماء إلى أن سياق الكلام يؤدى إلى معنى الحصر أى ما أسكنتهم بهذا الوادى البلقع الخالى من كل مرتفق ومرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمروه بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك متبركين بالبقعة التى شرفتها على البقاع مستسعدين بجوارك الكريم متقربين إليك بالعكوف عند بيتك والطواف به والركوع والسجود حوله مستنزلين رحمتك التى آثرت بها سكان حرمك .

وهذا الحصر مستفاد من السياق فإنه عليه السلام لما قال — بواد غير ذى زرع — نفى أن يكون إسكانهم للزراعة ولما قال — عند بيتك المحرم — أثبت أنه مكان عبادة فلما قال — ليقيموا — أثبت أن الإقامة عنده عبادة وقد نفى كونها للكسب فجاء الحصر مع ما فى — ربنا — من الإشارة إلى أن ذلك هو المقصود(١) .

ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام عندما نفى كون إسكانهم للزراعة وأثبت كونه للعبادة إنما كان يعبر عن إحساسه بالواقع المشاهد وما تتوق إليه نفسه من كون ذريته مشغولة بالعبادة لله عند بيته المحرم إذن ليس هناك مخاطب كان يعتقد العكس حتى يمكن القول بأن إبراهيم قلب عليه اعتقاده أو كان يعتقد الشركة أو مترددا حتى يكون إبراهيم قد أفرد له المذكور أو عين له ما كان مترددا فيه . ثم إن المتوجه إليه بهذا الخطاب

---

(١) روح المعانى ٢٣٨/١٣

هو الله عز وجل وتعالى الله عن هذه الأحوال علواً كبيراً وإنما كان غرض إبراهيم عليه السلام أن يفردهم حسب متمناه بالعبادة لله تعالى وعلى ذلك يمكن القول بأن المعنى يؤول إلى القصر بالنفى والاستثناء قصراً إضافياً قصر إفراد وذلك بالنظر إلى حال المتكلم دون المخاطب وهذا يرجح أن مسألة المخاطب الذى علق عليه البلاغيون تقسيم القصر الإضافى إلى إفراد وقلب وتعيين هى مسألة اعتبارية أو افتراضية فى كثير من جوانبها وأن المخاطب قد يكون هو الإحساس الداخلى أو الواقعية المشاهدة التى تترجمها الأساليب(١) .

وقوله — ليقيموا — بإسناد الإقامة إلى واو الجماعة مع أنه لم يكن هناك إلا إسماعيل وأمه دلالة على أن الله تعالى أعلمه بأن هـذا الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل .

ثم طلب لهم التأنيس وتردد الزائرين عليهم فى هـذا المكان فقال — فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم — والأفئدة جمع فؤاد وهو القلب ولكنه خص الفؤاد بالذكر لأن مادته تدور حول التحرق والتوقد فيقال . فأد الخبز فى الملة يفأدها فأدا . شواها — والفئيد ماشوى وخبز على النار والتفؤد التوقد وكأنه عليه السلام يريد لهؤلاء الناس الذين يفيدون عليهم أن يكونوا مدفوعين بحرارة الشوق وتوقد المحبة فى قلوبهم حتى يتأتى لهم أن يتركوا أموالهم وأبناءهم وأوطانهم ويتركوا كل غال ومرتخص فى سبيل الوصول إلى هذه الأماكن المقدسة وتحقيقاً لهذا الإسراع القلبى وهذا الشوق والحنين المتوقد عبر عن المشى إليهم والذهاب إلى هذه الأماكن بـ تهوى — مضارع هوى أى سقط والمراد تسرع على طريق الاستعارة التبعية والفؤاد مجاز مرسل عن

---

(١) ينظر دلالات التراكيب ٦١ وما بعدها .

الإنسان ولما كان هو أساس الإنطلاق جعله كأنه هو الذي يقود الإنسان إلى هذه الأماكن وبذلك يتعاون المجازان المرسل والاستعارة على إبراز معاني الشوق والمحبة الجامحة التي تقود الوافدين إليهم . وقد عدي الفعل — تهوي — باللام دون على لأنه بمعنى تسرع .

و — من — في قوله — من الناس — قيل للتبعيض — ولذلك روى عن ابن جبير أنه قال لو قال عليه السلام : أفئدة النـــاس لحجت البيت اليهود والنصارى وذهب صاحب التحرير إلى أنها بيانية والمعنى فاجعل أناساً يقصدونهم بحبات قلوبهم وأن لفظ — الأفئدة — مقحم لإرادة أن يكون مسير الناس إليهم عن شوق ومحبة(١) .

وبعد ذكر ما يستأنسون به ذكر مايتقوتون به فقال — وارزقهم من الثمرات — ولم يخص عليه السلام الدعاء بالمؤمنين منهم كما في قوله — وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم واليوم الآخر — اكتفاء على ماقيل بذكر إقامة الصلاة .

وكان ذلك منه عليه السلام — لعلهم يشكرون — أي يكونون من الشاكرين لنعمه ومن المؤدين للصلاة وسائر العبادات فتحصيل هذه المنافع الدنيوية إنما كان لأجل الإنقطاع للطاعات والاستعانة بها على أداء العبادات .

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام دعاءه ويكرر النداء — ربنا — للمبالغة في الضراعة والابتهال والافتقار إلى عطاء الربوبية ولما كان غرضه عليه السلام إظهار عموم علم الله تعالى بجميع الملك والملكوت وأن يعلم أهله ذلك حتى يراقبوه في جميع الأحوال ويخلصوا النية له أضاف — رب —

(١) التحرير والتنوير ٢٤١/١٣

إلى ضمير جمع المتكلم تشريكا لغيره فى معرفة علم الله المحيط بجميع الكائنات ولذلك تابع صيغة العموم فيما بعده فلم يقل — تعلم ما أخفى وما أعلن — وإنما قال — ما نخفى وما نعلن — فالله تعالى قد علم مايخفيه هو وما يعلنه وما يخفيه غيره ومايعلنه ولذلك بعد أن ذكر العلماء من أن مراده عليه السلام ما نخفى من حب إسماعيل وأمه وما نعلن لسارة من الجفاء لهما أو ما نخفى من الوجد لما وقع بينها من الفرقة وما نعلن من البكاء والدعاء أو ما نخفى من كآبة الإفتراق وما نعلن مما جرى بيننا وبين هاجر عند الوداع من قولها . إلى من تكلنا ؟ وقولى لها ، إلى الله تعالى قالوا والظاهر العموم وهو المختار(١) .

و — ما — إما موصولة والعائد محذوف وإما مصدرية ، وتقديم — ما نخفى — على — ما نعلن — للدلالة على شرف المعلوم كما فى قوله تعالى — عالم الغيب والشهادة — فإن علم الغيبيات أشرف من المشاهدات ومنه — يعلم سركم وجهركم — ويعلم ما تسرون وما تعلنون —(١) .

أو للسبق فى الوجود لأن مرتبة السر والخفاء متقدمة على مرتبة العلن إذ مامن شىء يعلن إلا وهو قبل ذلك خفى فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى أقدم من تعلقه بحالته الثانية ، أو لتحقيق المساواة فى تعلق العلم بهما على أبلغ وجه إذ أن علمه تعالى ذاتى فلا يتفاوت بالنسبة إليه معلوم دون معلوم(٢) .

وجملة — وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء — تذييل يؤكد شمول علمه تعالى فبعد أن ذكر أنه تعالى يعلم ما يسرونه وما يعلنونه ذكر أنه تعالى لاتخفى عليه خافية لا فى الأرض ولا فى السماء .

---

(١) روح المعانى ١٣/٢٤٠ (٢) البرهان ٣/٢٥٣

وقدم الأرض على السماء باعتبار الإنتقال من القريب إلى البعيد .
و — من — فى قوله — من شىء — تفيد الاستغراق وهو المناسب لمعنى العموم المستفاد من تنكير كلمة — شىء — ووقوعها فى سياق النفى وهو — ما — وما يخفى — .

وإذا كان الله عز وجل عليما بما فى الأرض والسموات إلا تغرب عنه مثقال ذرة فإن مقصود سيدنا إبراهيم عليه السلام من إظهار هذه هذه الدعوات والتوجه بها إلى رب الأرض والسموات هو إظهار العبودية والتخشع لعظمة الله تعالى والتذلل لعزته وعرض الافتقار له والاستعجال لنيل أياديه وتعليم لذريته بأن لا يتوجهوا بالطلب إلا لله الواحد القهار فهو الركن الشديد والحصن المكين الذى يجب أن تهرع القلوب له وتعتمد عليه وتؤمن به وتستمر على الضراعة إليه وبينما هو عليه السلام يلهج ويتضرع إلى ربه بهـــذه الدعوات قد خطر بباله أن الله قد أنعم عليه بما كان يسأله فى حق نفسه وهو قوله — رب هب لى من الصالحين — فأجاب الله دعاءه وحقق مرغوبه ووهب له ولدين هما إسماعيل وإسحاق ولم يكن إسحاق معه فى مكة مما يدل على أن هذا الثناء بنعمة الولد كان بعد وجود إسحاق وأن الله حكى عنه هـذه الأحداث وقد وقعت فى أزمنة مختلفة . وكان شكره على هبة الولدين هو قوله — الحمد لله — أى الثناء على الله تعالى بصفات الكمال وهى تحمل فى مضمونها تنزيه تعالى عن صفات النقص أى أنها عامة فى دلالتها ففيها ثناء بإثبات صفات المدح وثناء بنفى صفات النقص ولذلك اختيرت دون التسبيح وقد مضى تحقيق الفرق بينها وبين كلمتى الشكر والمدح فى أنها تدل على استحقاقه الحمد سواء حمدوه أو لم يحمدوه وأنه الجدير بالثناء سواء وصلت نعمه أم لم تصل .

---

(١) روح المعانى ٢٤١/١٣

وفى مجيء جملة — الحمد لله — على هذا الوضع أى على الابتداء والإخبار مايدل على أن هذا الحمد له تعالى ثابت ومستمر وأن الهدف منها هو إظهار مدلول الحمد ولذلك قدم على الاسم الكريم لاقتضاء المقام مزيد اهتمام بالحمد لأنه شكر وثناء فى مقابلة ما أنعم الله به عليه .

والألف واللام فى — الحمد — للجنس فى أى فرد من أفراده وذلك لمناسبة العموم ، واللام فى — لله — دالة على الاختصاص أو الاستحقاق أو التعليل وقد اختير لفظ الجلالة — الله — بالذات لئلا يتوهم أنه يستحق الحمد على صفة دون أخرى . فلو قيل الحمد للقادر أو الحمد للرازق أو للخالق لتوهم أن الحمد لاتصافه بهذه الصفات فقط وأما اسم — الله — فهو اسمه الأعظم الذى يجمع سائر أسمائه وصفاته كلها . فالحمد له على كل حال .

وكأنه عليه السلام بهذه الجملة — الحمد لله — يرسم لذريته طريق شكر النعم . فكما أنه قال — الحمد لله — عندما أفاء الله عليه بنعمة الولد كذلك ينبغى أن يكون قول ذريته عندما يجيب الله دعاءه فى النعم السابقة — الحمد لله — بل سواء وصلت أم لم تصل عليهم أن يقولوها .

واسم الموصول — الذى — يتوصل به إلى سببية الحمد وهو هبة الولدين له واختير الفعل — وهب — دون غيره من الأفعال مثل أعطى لأن الهبة عطاء بلا عوض كما أنه عطاء لايتوقف على الأسباب البشرية بل يهبه الله لمن يشاء كما قال — يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما — وأعظم بها من نعمة إذا كانت من قبل العظيم ، ولذلك أسند الفعل — وهب — لله تعالى دلالة على عظمتها وعلى قدرة الله عز وجل الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ثم زاد من عظمتها وندرتها أنها وهبت له — على الكبر — ولذلك كانت مثار العجب والدهش والانبهار من امرأته —

حيث — قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشئ عجيب . قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد — هود — ٧٢ — ٩٣ — فالتقييد بكون الهبة كانت مع الكبر استعظاماً للنعمة وإظهاراً لشكرها .

فعلى بمعنى — مع — والاستعلاء مجـازى على طريق الاستعارة التبعية فى الحرف أى أنه قد تمكن من الكبر حتى صار كأنه مستعلياً عليه وهذا الكبر لم يقيد ولكن روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه وهب له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين سنة ووهب له إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة وقيل غير ذلك وعلى كل فقد وهب له وهو على الحالة التى لاتسمح طبقاً للأسباب البشرية أن يولد له ومن هنا كان جلال النعمة وعظم قدرها .

وترتيب إسماعيل وإسحاق طبقا للترتيب الوجودى فى الحياة ثم علل لحصول هذه النعمة بقوله — إن ربى لسميع الدعاء — وتأكيد الجملة بـ — إن — واسميتها ودخول اللام فى خبرها دلالة على أنه ممتلىء النفس والإحساس بمضمون هذا التعليل وأنه هو الذى يفتح له باب الأمل فى تحقيق الدعوات السابقة والإجابة إلى طلبها طالما أن شأنه تعالى أنه سميع الدعاء لأن السمع معناه القبول والإجابة فهو مجاز كما فى قولك سمع الله لمن حمده ولعل التعبير بالسمع عن الإجابة إشارة إلى أن الله عزوجل إنما يحب أن يسمع صوت عبده وأما الإجابة فوعده لا يتخلف فيها فإما أن يعجلها له وإما أن يدخرها له وإما أن يصرف عنه السوء بمثلها كما ورد فى الحديث وكما فى قوله — وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان ...

وقد جاء لفظ — السميع — على فعيل وهو من أمثلة المبالغة للدلالة على كثرة الإجابة من قبله سبحانه وتعالى — .

وفى إعماله خلاف فإن قلنا بإعماله فهو مضاف لمفعوله وجوز الزمخشرى أن يكون مضافا لفاعله المجازى فالأصل — سميع دعاؤه — بجعل الدعاء نفسه سامعا والمراد أن المدعو وهو الله تعالى سامع (١) .

وقد وحد عليه السلام الضمير فى — ربى — ولم يقل — ربنا — فأضافه إلى ياء المتكلم وإن كان قد تقدمه ذكر الولدين — إسماعيل وإسحاق — لأن نعمة الهبة فائضة عليه خاصة وهما من النعم لا من المنعم عليهم — .

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام تضرعاته وابتهالاته إلى الله عز وجل فيقول — رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى — فيفتتح بالنداء ويكرر لفظ الرب زيادة فى الالتجاء إلى الله تعالى وسوقاً للأدعية على وتيرة واحدة .

وقد وحد لفظ — رب — مع شمول دعوته لذريته حيث قال — ومن ذريتى — للإشعار بأنه القدوة وأنه المتكلم الأول وهو الذى يطلب من ربه عز وجل أن يجعله من المديمين عليها والمعدلين لها فالطلب معناه الثبات على ذلك وليس استحداثاً لفعل لم يكن وكيف ذلك وهو خليل الرحمان .

وأما ذريته فتدخل فى ذلك الطلب بطريق التبعية له وقد ذكرهم على طريق الاستطراد .

ومن فى — ومن ذريتى — للتبعيض وإنما خص هذا الدعاء ببعض ذريته لعلمه من جهته تعالى أن بعضاً منهم لا يقيمون الصلاة بأن يكون

---

(١) روح المعانى ٢٤٢/١٣

كافراً أو مؤمناً لا يصلى كما فى قوله — ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك —

وقوله — ومن ذريتى — صفة لموصوف محذوف معطوف على ياء المتكلم ، والتقدير : واجعل مقيمين للصلاة من ذريتى — ثم تضرع إلى ربه أن يتقبل دعاءه فقال — ربنا وتقبل دعاء — وجىء بضمير الجماعة فى — ربنا — لأنه جمع فى دعائه بينه وبين ذريته أى اجعلنى واجعل بعض ذريتى مقيمى الصلاة .

وقرأ الجمهور — دعاء — بحذف ياء المتكلم تخفيفاً وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة — دعائى — بإثبات الياء ساكنة .

وكان مسك الختام مع دعاء طلب المغفرة لنفسه ولوالديه وللمؤمنين وذلك على طريق الانتقال من القريب للبعيد وأقرب شىء له نفسه التى بين جنبيه وكما قيل — إبدأ بنفسك ثم بمن تعول — فقال — ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

وقال — ربنا — بضمير الجمع لأن طلب المغفرة كان لجمع ، وطلب المغفرة له يقتضى أن هناك ذنباً ولكنه المعصوم عن ذلك فما توجيه هذا الطلب ؟ قال الرازى معناه الالتجاء إلى الله تعالى وقطع الطمع إلا فى فضله وبركته ورحمته .

وقيل إنه طلب مغفرة ما فرط منه مما يعده ذنباً وذلك من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين كما قال تعالى فى شأن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام — ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر —

ثم كان الأقرب إليه بعد نفسه والديه ولذلك ثنى بهما فقال — ولوالدى — أى أبى وأمى .

وإذا كانت أمه مؤمنة كما روى عن الحسن فلا إشكال بطلب المغفرة لها .

وأما الإشكال فى طلبها لأبيه وقد كان كافراً . فقيل إنه طلبها له قبل أن يتبين أنه عدو لله كما قال تعالى — وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم — التوبة ١١٤ —

وقيل أراد بوالديه — آدم وحواء — أو أراد بوالده — نوحا — عليه السلام .

وقيل إن والديه كانا مسلمين ولذا دعا لهما وأما الكافر أبوه فالمراد به عمه أو جده لأمه (١) .

وقرىء — ولولدى — أى إسماعيل وإسحاق . وفى بعض المصاحف — ولأبوى — ولذريتى — ولولدى — بضم الواو وسكون اللام، فيحتمل أن تكون جمع ولد مثل أسد فى أسد أو لغة فى الولد كما قاله الشاعر :

فليت زياداً كان فى بطن أمه   وليت زياداً كان ولد حمار

وقرىء — ولوالدى — بإسكان الياء على الافراد كقوله — واغفر لأبى ثم ترقى فى دعوته إلى المؤمنين — وللمؤمنين — من ذريته وغيرهم — يوم يقوم الحساب — وفى — يقوم — استعارة تبعية فى الفعل لأن المراد به — يثبت ويتحقق — أو الاستعارة فى الفاعل — الحساب —

---

(١) روح المعانى ٢٤٣/١٣

على تشبيهه بإنسان يقوم وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو القيام وإسناد القيام له استعارة تخييلية وهى قرينة المكنية .

أو المراد يقوم أهل الحساب فحذف المضاف أو أسند إلى الحساب ما لأهله مجازاً مرسلا .

والتعبير عن الثبات والتحقيق بالفعل — يقوم — فيه إيحاء بالحركة والانتصاب والإسراع وقبل حصول هذا القيام كان السكون والهمود فى القبور .

ونسأل الله الفوز فى هذا اليوم الموعود .

المعنى الإجمالى لهذه الآيات :

يلفتنا الحق تبارك وتعالى فى هذه الآيات إلى النعم الخاصة التى اختص بها العرب فقد بوأهم حرمه وجعل ذريتهم تنسل من هذا المعين المبارك وجعل أباهم إبراهيم وإسماعيل يرفعان قواعد البيت الحرام ويرفعان منارة التوحيد فى مركز الكرة الأرضية فقد ثبت علمياً أن بيت الله الحرام يقع فى مركز الجزء المعمور من أرض الله ولذلك يتجه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها فى شمالها وجنوبها إلى هذه الكعبة المشرفة زادها الله تشريفاً وتكريماً كما يجيئها الرواد من كل أفق والحجاج من كل فج عميق .

— إن الله عز وجل أراد أن يكرم الأمة العربية أو أراد أن يكرم الجنس العربى فلم يكرمه بدمه ولا بجلده ولا بلونه وإنما أكرمه بأن جعله صاحب دين ومن ذرية إسماعيل ومن أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ومن عشاق بيته الحرام يتجهون إليه فى صلواتهم إن لم يتمكنوا

عن معاينته بوجوههم وكان من باب هذا التشريف أن جعل الله الناس في كل شبر من أرضه في كل القارات يتجهون لهذا البيت العتيق ولذلك قال — ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ، كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ٢/١٥٠/١٥١

يعنى . أنا إشرفتكم بأن تلتقى وجوة الناس عند كعبتكم كما شرفتكم من قبل با بتعاث النبى منكم ، فعلت هذا كما فعلت ذاك(١) .

إذن فلا عجب أن يكون أول مطلوب لإبراهيم عليه السلام أن يكون هذا البلد الذى يضم هذا البيت آمنا والإبتداء بطلب نعمة الأمن فى هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع الخيرات والنعم وأنه لا يتم شىء من مصالح الدين والدنيا إلا به . وقد كان كذلك فقد قال الله تعالى — وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا — وهذا أمر تشريعى موكول أمر تنفيذه إلى العباد أى اجعلوا البيت كذلك فهم إن شاؤا فعلوا ذلك وإن لم يفعلوا تعرض البيت لما لا يجب أن يتعرض له من التخريب والتدمير وعند ذلك فالمسلمون مأمورون بقتال من يهتك حرمته ويخرج على أمنه كما قال الله تعالى : ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » ٢/١٩١.

إن الإنسان فى ظـــلال الأمن يستطيع أن يؤدى العبادات ويقوم بالنوافل ويعمر دنياه بما يحتاجه من صناعة وزراعة وتجارة وغير ذلك ولذلك كانت دعوة إبراهيم بطلب الأمن للبلد من الدعوات التى يجب

---

(١) خطب الشيخ الغزالى ٢٣٣ بتصرف .

أن يحرص كل مؤمن على تحقيقها فى بلاد المسلمين حتى يتمكنوا من آداء عبادتهم وإقامة مايحتاجون إليه من أمور حياتهم الدنيوية فتكتمل سعادتهم فى الدنيا وفى الآخرة .

ثم تأتى الدعوات الأخر متفرعة على الدعوة الأولى بطلب الأمن لنفسه ولبنيه وقد توسع الصوفية فى معنى الأصنام فرأوها النفس أو المرغوبات الدنية والمشتهيات الحسية أو الهوى المتبع وهذا إحساس منهم بأن هذه النوازع من شأنها أن تبعد العبد عن ربه ولذلك اعتبروها أصناما وهذا من شفافية نظرتهم إلى الألفاظ .

وقد بين إبراهيم العلة فى طلب المباعدة بينه وبين الأصنام فى أنها سبب ضلال كثيرين من الناس ولذلك يسارع إلى احتواء هؤلاء ويطلب إليهم أن يتبعوه بل ويجعل من يتبعه جزءاً لا ينفصل من كله وكأنه عضو من أعضائه — فمن تبعنى فإنه منى وفى كلمة — اتبعنى — ما يوحى بأن العقيدة ما هى إلا اتباع لوحى الله عز وجل وليس ابتداع لتعاليم يتلقاها البشر بعضهم من بعض ، وأما من عصاه فإن إبراهيم لحلمه وكرمه فوض أمره إلى الغفور الرحيم ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم — فذلك حنانه وعطفه على أولاده حتى على العصاة منهم وفى ذلك توجيه للآباء عليهم أن يجعلوا أولادهم يحتضون دينهم وأن يتمثلوه منهجاً وسلوكا فذلك هو داعية القرب بينهم وبين آبائهم الحقيقيين وبينهم وبين أبيهم إبراهيم عليه السلام .

وأما من من حاد عن الطريقة وشرد عن المنهج فعليهم أن يطلبوا له الهداية والمغفرة .

كما قال رسولنا ﷺ — اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ثم ذكر إبراهيم موضع سكنى اسماعيل وأمه هاجر بأنه فى هـذا الوادى الذى

لا يصلح فيه زرع ثم زاد الأمر تخصيصاً بأنه عند بيت الله المحرم وذلك من أجل إقامة الصلاة ثم طلب التأنيس لهم بأن يجعل الله الناس تسرع إليهم وأن يرزقهم من الثمرات لعلهم يكونون من الشاكرين .

وقد كانت الألفاظ معبرة أشد التعبير عن خلجات نفسه وحقيقة دعائه فى طلب ذلك فلم يرد مطلق ناس وإنما أراد أفئدة تلتاع شوقاً وحنينا وتتحرق حباً وعطفا ثم هى بهذا التحرق والحنين لا تمشى وهى مطمئنة وإنما تسرع إسراع الجسم الذى يهوى من عل لا يرده شىء ولا يثنيه عن الوصول إلى مستقره أحد وكذلك الذاهب إلى هناك، ينبغى أن لا يتعلق بشىء فى بلده من مال أو ولد أو وطن أو غير ذلك مما يحرص عليه ، ثم يجهر إبراهيم بأن الله يعلم سره وجهره وتلك حقيقة يجب أن يعرفها كل أحد بأنه لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ويعلم السر وأخفى ، فينبغى الإخلاص له فى السر والعلن ، ويعلم إبراهيم أمته كيفية مقابلة نعم الله عز وجل ذلك بحمد الله تعالى وذلك فى معرض الإمتنان عليه بنعمة الولد اسماعيل وإسحاق ويطلب ابراهيم من ربه مرة أخرى أن يثبته على عبادته تعالى هو وذريته وبخاصة عبادة الصلاة لما لها من أهمية كبرى فى حياة المسلم وأن يجعله من مقبولى الدعاء ويختم هذه الإبتهالات والمناجاة فى حضرة الربوبية بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين كافة من ذريته وغيرهم يوم يقوم الحساب.

ومن هنا قال الشعبى فيما رواه عنه ابن أبى حاتم ، ما يسرنى بنصيبى من دعوة نوح وإبراهيم عليهما السلام للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم .

وألمح فى بدايته بنفسه عليه السلام فى طلب المغفرة له ثم للآخرين ، فلسفة التدين الصادق فى حياة الإنسان وهو أن يبدأ الإنسان بنفسه أولا فإذا أراد أن يكون واعظا فليبدأ بنفسه ثم الآخرين وإذا أراد أن يكون

مصلحاً اجتماعياً فعليه أن يصلح نفسه أولا وإذا أراد أن يكون معلما صادقاً يزيل غشاوات الجهل من القلوب فعليه أن يزيل غشاوات جهله أولا وهكذا كل عمل ناجح يقبل عليه الإنسان لا بد أن تكون بذرته الحقيقة فى نفس صاحبه ولا بد أن تكون هذه النفس خصبة بكل معانى الخير حتى تؤتى الثمرة المرجوة منها عندما تريد هذه المعانى من الآخرين ، فما خرج من القلب حل بالقلب كما يقولون .

* * *

قال الله تعالى : «ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار(٤٢) مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء(٤٣).

غافلا . الغفلة سهو يعترى الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ كما قال تعالى — لقد كنت فى غفلة من هذا — ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها — وأرض غفل لامنار بها ورجل غفل لم تسمه التجارب .

تشخص ، أى تبقى مفتوحة لا تطرف — كما قال الراغب — من هول ما يرونه وفى البحر شخص البصر أحد النظر ولم يستقر مكانه والظاهر أن اعتبار عدم الإستقرار لجعل الصيغة من شخص الرجل من بلده إذا خرج منها فإنه يلزمه عدم القرار فيها أومن شخص بفلان إذا ورد عليه مايقلقه كما فى الأساس مهطعين ، أى مسرعين إلى الداعى وقيده فى البحر بقوله بذلة واستكانة كاسراع الأسير والخائف ،

وقال الأخفش مقبلين للإصغاء وأنشد .

بدجلة دارهم ولقد أراهم
بدجلة مهطعين إلى السماع

وقال مجاهد . مديمين للنظر لا يطرفون ، وكل المعانى تدور حول الإقبال والإسراع .

مقنعى . أقنع رأسه رفعه — وبه فسره ابن عباس رضى الله عنهما .

قال زهير :

هجان وحمر مقنعات رؤوسها وأصفر مشمول من الزهر فاقع

والمراد كما قال ابن عرفة والقتيبى . أى

رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء طرفهم ، طرف العين جفنه والطرف تحريك الجفن وعبر به عن النظر إذ كان تحريك الجفن لازمه النظر .

وأفئدتهم هواء — خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ومنه قيل للجبان والأحمق قلبه هواء أى لا قوة ولا رأى فيه ومن ذلك قول زهير .

كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمان جؤجوه هواء

وقيل — صفر من الخير خالية منه وقيل تمور فى أجوافهم إلى حلوقهم ليس لها مكان تستقر فيه .

وفى البحر — أن الكلام تشبيه محض لأن الأفئدة ليست بهواء حقيقة ويحتمل أن يكون التشبيه فى فراغها من الرجاء والطمع فى الرحمة فهى منخرقة مشبهة الهواء فى تفرغه من الأشياء وانخراقه — وأن يكون فى اضطراب أفئدتهم وجيشانها فى الصدور وانها تجىء وتذهب وتبلغ الحناجر فهى فى ذلك كالهواء الذى هو أبداً فى اضطراب(١).

(١) ينظر الراغب والبحر المحيط ٤٣٥/٥

نظرات حول نظم الآيتين :

بعد أن ذكر سيدنا ابراهيم عليه السلام المطالب السابقة وكان فى ضمنها طلب المغفرة فى يوم القيامة استتبع ذلك الحديث عن وجود يوم القيامة ومايحدث فيه وبخاصة للظالمين الذين تركوا ملة إبراهيم وراءهم ظهريا وحادوا عن كتاب الله عزوجل وعن اتباع رسوله ﷺ. ولذلك قال — ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون.

والآية معطوفة على الجمل السابقة وهى مردودة إلى قوله تعالى — قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار — وقوله — قل لعبادى... ولذلك كانت تسلية للمظلومين وتهديدا للظالمين على سبيل العموم.

وصيغة — ولا تحسبن — ظاهرها نهى عن حسبان ذلك. وهذا النهى كناية عن إثبات وتحقيق ضد المنهى عنه فى المقام الذى من شأنه أن يثير للناس ظن وقوع المنهى عنه لقوة الأسباب المثيرة لذلك وذلك أن إمهالهم وتأخير عقوبتهم يشبه حالة الغافل عن أعمالهم أى تحقق أن الله ليس بغافل وهو كناية ثانية عن لازم عدم الغفلة وهو المؤاخذة فهو كناية بمرتبتين. وذلك لأن النهى عن الشيء يؤذن بأن المنهى عنه بحيث يتلبس به المخاطب فنهيه عنه تحذير من التلبس به بقطع النظر عن تقدير تلبس المخاطب بذلك الحسبان. وعلى هذا الإستعمال جاءت الآية سواء جعلنا الخطاب لكل من يصلح أن يخاطب فيدخل فيه النبى — ﷺ — أم جعلناه للنبى ابتداء ويدخل فيه أمته ونفى الغفلة عن الله ليس جاريا على صريح معناه لأن ذلك لايظنه مؤمن بل هو كناية عن النهى عن استعجال العذاب للظالمين(١).

---

(١) التحرير والتنوير ١٣/٢٤٦

فمن يتطرق إليه هذا الجهل عليه أن يتحقق ويعلم أن الله عليم بما يعمل الظالمون وأنه معاقبهم على القليل والكثير ومحاسبهم على النقير والقطمير وذلك على سبيل الوعيد والتهديد بطريق الكناية.

ومن علم ذلك من منطلق إيمانه بأنه تعالى يعلم السر وأخفى وأنه تعالى قال — سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين — فيكون المراد من النهى التثبيت على ما عليه من كونه تعالى ليس غافلا عما يعمل الظالمون.

أى أن الآية صالحة لأن تكون خطابا لمن لا يتوهم ذلك ولمن يتوهمه والنهى عن ذلك فيه الاعتبارات السابقة.

وقال — يعمل — لأن العمل يشمل — الفعل وهو فعل الجوارح والقول وهو عمل اللسان فمجموع الفعل والقول عمل، أى كل مايصدر عنهم من قول وفعل ثم ذكر فاعل هذا العمل وهم الظالمون — والظلم هنا يشمل ظلم القمة وهو ظلم الله عز وجل وذلك إما بإنكار الألوهية وإما بالقول بأن معه آلهة أخرى وإما بالقول بأنه مركب من أجزاء. فالأول ملحد والآخران مشركان والأول ظلم الله فى واجبية الوجود والثانى ظلم الله فى واحدية تفرده والثالث ظلم الله فى أحدية ذاته.

وهناك ظلم للرسول ﷺ وهناك ظلم للمجتمع وكل هذا يعود إلى ظلم النفس الذى يؤدى بها إلى العذاب الأليم.

ثم علل للنهى السابق بقوله — إنما يؤخرهم ليوم — يعنى يمهلهم متمتعين بالحظوظ الدنيوية ولا يعجل عقوبتهم والجملة مستأنفة ومتصلة بما قبلها اتصالا خفيا وهو من أقوى أنواع الوصل وإيقاع التأخير عليهم مع أن المؤخر هو عذابهم قيل. لتهويل الخطب وتفظيع الحال ببيان أنهم

---

(١) من حديث الشيخ الشعراوى فى التليفزيون

متوجهون إلى العذاب مرصودون لأمر ما لا أنهم باقون باختيارهم، للدلالة على أن حقهم من العذاب هو الإستئصال بالمرة وأن لا يبقى منهم فى الوجود عين ولا أثر(١).

وقد بينت الآية خمسة أوصاف للناس يوم القيامة وهى :

الأول — تشخص فيه الأبصار .

الثانى — مهطعين .

الثالث — مقنعى رؤوسهم .

الرابع — لا يرتد اليهم طرفهم.

الخامس — وأفئدتهم هواء .

وكل هذه الأوصاف كما سبق تفسيرها تدل على فرط الحيرة والدهشة وسقوط القوة والذلة والإستكانة والخوف والخلو من التفكير والإدراك وكل ذلك يعنى شدة الهول والفزع الذى يعاينونه فى هذا اليوم الهائل .

ويلاحظ أن الأوصاف ظهرت من خلال الحواس الرئيسية للجسم والتى تدل أبلغ الدلالة على المراد. فشخوص البصر أى انفتاحه وارتفاعه يدل على ما أصاب صاحبه من الحيرة والاضطراب وقد خصت الأبصار بذلك لما للعين من أثر ظاهر فى حالتى الرضا والغضب والسرور والحزن ولذلك ورد — ولتقر عينها — قرة عينى لى ولك — ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت —

وقال النابغة :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها
نظر السقيم إلى وجوه العود

(١) الألوس ١٣/٢٤٥

وقول الآخر :

أشارت اليك بطرف العين خيفة أهلها إشارة محزون ولم تتكلم

ولعله لذلك أيضا قدمت دلالة الأبصار على غيرها فهو سيد الحواس ثم كان الوصف الثانى وهو الإهطاع والذى يدل على الاسراع والإقبال بذلة واستكانة وقد جاء الوصف الثالث وهو اقناع الرأس مبينا عن هذه الذلة وذلك على تفسيره بأنه من اقناع الرأس . طأطأته من الذل :

وأما على تفسيره بأنه من أقنع بمعنى رفع رأسه فهو يؤدى معنى مخالفتهم أيضا حتى فى مشاهدة البلاء إذ من شأن من يشاهد البلاء أنه يطرق رأسه فبين الله تعالى أن حالهم بخلاف هذا المعتاد وأنهم يرفعون رؤوسهم(١).

ولما كان التعبير عن شخوص البصر جاء بالجملة الفعلية وهى تدل على التجدد والحدوث احترس عن زواله فى شأن الظالمين بقوله تعالى فى الوصف الرابع — لا يرتد اليهم طرفهم — دلالة على أن الدهشة والحيرة دائمة فيهم . فعدم ارتداد طرفهم كناية عن بقاء الهول والشدة بحيث يظلون ناظرين اليه لا تطرف أعينهم .

وهذا لا يكون فى شأن المؤمنين — لا يحزنهم الفزع الأكبر .

ولذلك قيل — إن — أل — فى الأبصار للعموم — وقيل للعهد .

ثم كان الوصف الخامس لأصل هذه الحواس وهو هذه المضغة الداخلية . القلب وسواء كان قوله — هواء — بمعنى خالية أو على التشبيه فهو يعنى انعدام القوة المدركة من القلب الذى كان لا يهدأ من التفكير فيما يعود على النفس من أنواع الظلم السابق ولذلك أوثر التعبير عن القلب بالأفئدة إشارة إلى هذا العمل الدائب والتفكير المستمر والتخطيط الدائم

---

(١) الرازى ١٩/١٤١

فيما يضر ولا ينفع وذلك بخلاف قوله تعالى السابق — فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم — فهذه هى قلوب المخلصين من عباد الله تتحرق شوقا وحبا لتحصيل ما ينفعها . وأما قلوب الظالمين فإنها تشتعل نارا فى اتباع الهوى فتكون يوم القيامة هواء .

وبذلك تتعاون الصفات الخارجية والداخلية على رسم الصورة الكاملة لتحير وقلق وذلة هؤلاء الظالمين يوم الدين .

المعنى العام :

يخبرنا الحق تبارك وتعالى عن جزاء الظالمين بأنه حق وثابت لاريب فيه وأن إهمالهم ليس من باب الإغفال ولكنه من باب الإمهال فهو سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل . فمهما تمتع الظالمون وامتلكوا الدنيا العريضة فإن ذلك إلى زوال وأن مصيرهم إلى النار وفى ذلك تهديد ووعيد للظالمين فى القديم وفى الحديث فالكفر كله ملة واحدة وفى ذلك أيضا تسلية للرسول ﷺ ولكل من يلاقى عنتا ورهقا فى إزجاء قافلة الإسلام إلى الأمام فالعلماء ورثة الأنبياء ونصيبنا من هذا الميراث أن نكون مبلغين دعوة الحق إلى الناس أجمعين وأن نقابل العنف باللين والظلم بالعفو والإساءة بالإحسان والحرمان بالعطاء والقطع بالوصل وبذلك نصل إلى درجة المحسنين .

إن الظلم ظلمات يوم القيامة كما أن الظلم نذير بخراب العمران فى الدنيا فإذا أردنا لأنفسنا ولمجتمعنا حياة رغيدة ترفرف عليها راية العدل والحرية علينا أن يكون الإسلام مظلتنا والبعد عن الظلم هو ديدننا والتواصى بالحق هو سلوكنا وبذلك نصل إلى ما وصل إليه أسلافنا من بناء أمة عزيزة ذات كلمة فاصلة وسلطان سائد . وفى البعد عن ذلك نحس مستمر — وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد — .

إن أثواب الجوع وأردية الجفاف وبرود الخوف التى تغطى بعض الشعوب كانت بسبب ظلمها لنفسها ولرسولها ولكتابها ولربها وكفرانها بنعمه تعالى ولذلك قال — وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون — النحل ١١٢ .

ولن يترك هؤلاء الظالمون يرتعون ويلعبون وإنما هناك اليوم الهائل الذى ينتظرهم ويظهرون فيه بمظهر مغاير تماما لما كانوا عليه فى الدنيا وهذا المظهر قد جسدته الأوصاف الخمسة السابقة .

قال الله تعالى — وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ٤٤ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ٤٥ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ٤٦ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ٤٧ —

وأنذر — النذر أن توجب على نفسك ما ليس بواجب لحدوث أمر يقال نذرت لله أمرا ومنه — إنى نذرت للرحمن صوما — والإنذار إخبار فيه تخويف كما أن التبشير إخبار فيه سرور — فأنذرتكم نارا تلظى —

والنذير المنذر ويقع على كل شىء فيه إنذار إنسانا كان أو غيره — إنى لكم نذير مبين — وجمعه النذر — هذا نذير من النذر الأولى — أى من جنس ما أنذر به الذين تقدموا .

أجل ـ الأجل المدة المضروبة للشىء ـ أيما الأجلين قضيت — ويقال للمدة المضروبة لحياة الإنسان أجل فيقال دنا أجله عبارة عن دنو الموت

وأصله استيفاء الأجل أى مدة الحياة . وقوله ـ بلغنا أجلنا الذى أجلت لنا — أى حد الموت .

وقوله تعالى — ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده — فالأول هو مدة البقاء فى الدنيا والثانى هو البقاء فى الآخرة وقيل الثانى هو مدة البرزخ وقيل الأول هو النوم والثانى هو الموت .

زوال ـ زال الشىء يزول زوالا . فارق طريقته جانحا عنه . والزوال يقال فى شىء قد كان ثابتا قبل وقالوا زوال الشمس . لاعتقادهم فى الظهيرة أن لها ثباتا فى كبد السماء .

وهناك — زال ماضى يزيل فإنه تام متعد بمعنى ماز وزال ماضى يزول فإنه تام قاصر بمعنى انتقل وذهب وزال ماضى يزال وهى الناقصة ومصدر الأولى الزيل والثانية الزوال ولا مصدر للناقصة ووزن الناقصة فعل بكسر العين ووزن غيرها فعل بفتح العين (١) .

مكروا — المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة وذلك ضربان . مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قوله — والله خير الماكرين —

ومكر مذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح كما فى قوله — ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله — وقال بعضهم — من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ولذلك قال أمير المؤمنين رضى الله عنه من وسع عليه دنياه ولم يعلم أنه مكر به فهو مخدوع عن عقله — إنتقام — النقمة — العقوبة —

---

(١) ينظر الأشمونى على حاشية الصبان ٢٢٧/١ .

نظرات فى نظم الآيات :

الجملة معطوفة على قوله — ولا تحسبن الله غافلا والخطاب فى هذه الآية — وأنذر — لسيد المخاطبين سيدنا محمد ﷺ والمناسبة جلية بين هذه الآية وتلك لأن المراد إنذارهم وتكرار الدعوة لهم وعدم الملل منهم وذلك بعد التسلية التى جاءته من قبل الله عز وجل بأنه منتقم من الظالمين للمظلومين — ثم جاء المفعول الأول للإنذار وهو الناس وهو على إطلاقه يعم الظالمين وغيرهم من المكلفين فالإنذار كما يكون للكفار يكون لغيرهم كما قال تعالى — إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب —

وقيل المراد بالناس هم الكفار المعبر عنهم بالظالمين وذلك بدلالة قوله — يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا — ولكنه عدل إلى لفظ الناس للإشعار بأن المراد بالإنذار هو الزجر عما هم عليه من الظلم شفقة عليهم لا التخويف للازعاج والإيذاء فالمناسب عدم ذكرهم بعنوان الظلم (١) .

والمفعول الثانى هو — يوم يأتيهم العذاب — والمراد ما فى هذا اليوم من الهول وإنما تعدى فعل الإنذار إلى المفعولين لتضمينه معنى التحذير كما فى الحديث — ما من نبى إلا أنذر قومه الدجال —

والمراد باليوم — هو القيامة وقيل هو يوم موتهم معذبين بالسكرات وضرب الملائكة لهم على وجوههم وأدبارهم — والألف واللام فى — العذاب — للعهد أى العذاب السابق ذكره من شخوص الأبصار والاهطاع والاقناع . وذلك يرجح أن المراد باليوم هو يوم القيامة . وقيل المراد بالعذاب هو عذاب الدنيا .

(١) روح المعانى ٢٤٧/١٣ .

وإتيان العذاب مستعمل فى معنى وقوعه مجازا مرسلا .

ثم ذكر موقفهم من هـذا العذاب — فيقول الذين ظلموا — وهم الـكافرون وإنما عبر بالظالمين للاشعار بعلية ماقالهم من العذاب وهو الظلم بأنواعه السابقة . وكون الظالمين يقولون ذلك يدل على أن المؤمنين بمنأى عنه لمـا يرونه من النعيم المقيم .

ثم ذكر مقولهم — ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل — وطلب تأخير العذاب إن كان المراد به عذاب الآخرة فالتأخير بمعنى تأخير الحساب أى يقول الذين ظلموا أرجعنا إلى الدنيا لنجيب دعوتك وهذا كما فى قوله تعالى — رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت — فالتأخير مستعمل فى الاعادة إلى الحياة الدنيا مجازا مرسلا بعلاقة الأول .

والرسل جميع الرسل الذين جاءوهم بدعوة الله .

وإن حمل على عـذاب الدنيا فالمعنى أن المشركين يقولون ذلك حين يرون ابتداء العذاب فيهم فالتأخير على هذا حقيقة والرسل على هذا الحمل مستعمل فى الواحد مجازا والمراد به محمد ﷺ(١) والقريب القليل الزمن شبه الزمان بالمسافة أى أخرنا مقدار ما نجيب به دعوتك .

ولمـا كان ما قالوه طلبا من ربهم تعين أن يكون الـكلام الواقع بعدها يتضمن الجواب ولذلك كان قوله — أو لم تـكونوا — بتقدير قول محذوف أى يقال لهم والقائل إما الله وإما ملائـكته وقد عدل عن الجواب بالاجابة أو الرفض إلى التقرير والتوبيخ والتبكيت لأن ذلك يستلزم رفض ما سألوه ولذلك افتتحت الجملة بواو العطف للدلالة على معطوف عليه مقـدر هو رفض ما سألوه حذف إيجازا لأن شأن مستحق التوبيخ أن لايعطى سؤله والتقدير كلا وألم تـكونوا أقسمتم ...

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٨/١٣ .

وقدمت الهمزة على الواو لصدارتها وهذا شأنها مع حروف العطف أن تتقدم كما فى قوله — أفلا تعقلون — أفلا تسمعون — وأما غيرها من أدوات الاستفهام فإن العاطف يتقدم عليها مثل فهل أنتم شاكرون — وكيف تكفرون بالله — .

وجملة — ما لكم من زوال — بيان لجملة — أقسمتم — وليست على تقدير قول محذوف ولذلك لم يراع فيها طريق ضمير المتكلم فلم يقل — مالنا من زوال بل جيء بضمير الخطاب لمناسبة قوله — أولم تكونوا — وهو أدخل فى التوبيخ .

والزوال المراد به الإنتقال من الدنيا إلى الآخرة حيث المجازاة كما قال تعالى — وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت — وإنما قال لهم الحق تبارك وتعالى ذلك لأنهم كانوا ينكرون البعث وما يترتب عليه من الثواب والعقاب فهو يقرعهم ويوبخهم لأنهم عاينوا ما كانوا ينكرونه وهذا أقوى أنواع التقريع .

وهذا القسم قد يكون من جميع الظالمين حين كانوا فى الدنيا لأن الذى دفعهم إلى ذلك الظلم هو سبب واحد وهو عدم الإيمان باليوم الآخر ويجوز أن يكون ذلك من البعض والبعض الآخر يضمره فى نفسه ثم انتقلت الآيات من توبيخهم على ما تقاسموا عليه بألسنتهم إلى ماشاهدوه بأبصارهم من آثار الذين ظلموا أنفسهم وكان العرب يمرون على ديار ثمود فى رحلتهم إلى الشام وعلى ديار عاد فى رحلتهم إلى اليمن .

وسكنتم خطاب يعم جميع أمم الشرك عدا الأمة الأولى وهذا من تخصيص العموم بالعقل لأن الأمة الأولى لم تسكن فى مساكن المشركين — والفعل — سكنتم .

إن كان من السكون فالمعنى أنهم قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس سائرين بسيرة من قبلهم فى الظلم والفساد لا يحدثونها بما لقى الظالمون

قبلهم ، وإن كان من السكنى فإن السكنى من السكون الذى هو اللبث والأصل تعديته بفى كما يقال أقام فى الدار وقرفيها ولكنه لما أطلق على سكون خاص تصرف فيه فالسكون هو الاستقرار والثبات والسكنى هى الحلول فى دار بغير أجرة(١) .

وقد نص على ظلمهم لأنفسهم إعلاما بأن عاقبة الظلم مهما امتد إلى الغير فإنه آيل إلى صاحبه .

ثم بين المغزى من هذه السكنى بقوله — وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال — .

أى ظهر لكم بمعاينة الآثار وتواتر الأخبار ما فعل الله بهم من الإهلاك والعقوبة كالخسف وفناء الاستئصال لما فعلوه من الظلم والفساد ومناكر الأفعال .

وفاعل — تبين — دل عليه الكلام أى حالهم أو خبرهم وقرىء و — نبين — بنون العظمة ورفع الفعل على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى — نحن نبين — وقرىء كذلك ولكن بالجزم عطفا على أو لم تكونوا أى أو لم نبين لكم .

— وضربنا لكم الأمثال — صفات ما فعلوا وما فعل بهم من الأمور التى هى فى الغرابة كالأمثال المضروبة لتعتبروا وتقيسوا أعمالكم على أعمالهم وما لكم على ما لهم وتنتقلوا من حلول العذاب العاجل إلى العذاب الآجل فتر تدعوا عما كنتم فيه من الكفر والمعاصى وجوز أن يكون المراد من الأمثال ما هو جمع مثل بمعنى الشبيه أى بينا لكم أنهم مثلهم فى الكفر واستحقاق العذاب وذلك إما بالمواعظ التى جاءت على ألسنة الرسل على اعتبار العموم لجميع الظالمين .

(١) البحر المحيط ٥/٤٣٦

وإما بما جاء فى القرآن الكريم على تقدير اختصاص الخطاب بالمنذرين .

والجمل الثلاث فى موقع الحال من ضمير أقسمتم أى أقسمتم أن ليس لكم زوال والحال أنكم سكنتم فى مساكن المهلكين بظلمهم وتبين لكم فعلنا العجيب بهم ونبهناكم على جلية الحال بضرب الأمثال (١) .

وبذلك جمع الله لهم فى إقامة الحجة عليهم بين دلائل الآثار المشاهدة بالبصر وبين ما جاء على ألسنة الرسل من وحى الله عزوجل وهو مايدرك بالسمع، والبصر والسمع هما سيدا الحواس تنتفى معهما كل شبه وتنحسر كل الشكوك وتلك قوارع القرآن الكريم فى مخاطبة الظالمين ، ولتسجيل الخطاب عليهم وتخصيصه بهم كررت — لكم — ثلاث مرات — مالكم من زوال — وتبين لكم — وضربنا لكم — .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يبين طرفا من أحوالهم الماكرة فى تبييت فعل السوء بالغير وإضماره ومحاولة صرف الغير عن الهدف المحمود بحيلة خادعة ، فقال — وقد مكروا مكرهم — وهذه الجملة حالية إما من المخاطبين بقوله — أو لم تكونوا أقسمتم :— وهم الظالمون وإما من قوم محمد ﷺ لقوله تعالى — وأنذر الناس — أى يا محمد وقد مكر قومك مكرهم وهو المراد بقوله تعالى — وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين — ٨/٣٠ — .

وانتصب — مكرهم — على أنه مفعول مطلق للفعل — مكروا لبيان

---

(١) روح المعانى ١٣/٢٥٠

النوع وإضافة — مكر — إلى ضمير — هم — من إضافة المصدر إلى فاعله وهذه الإضافة إما لإفادة التعظيم على معنى أنهم قد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم العظيم الذى استفرغوا فى عمله المجهود وجاوزوا فيه كل حد معهود بحيث لا يقدر عليه غيرهم والمراد بيان تناهيهم فى استحقاق ما فعل بهم .

وإما لإفادة التحقير على معنى أنهم قد مكروا مكرهم المذكور فى ترتيب مظاهر البقاء ومدافعة أسباب الزوال فالمقصود إظهار عجزهم واضمحلال قدرتهم وحقاراتها عند قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى كل فإضافة المكر إليهم يعنى أنه مكر بشرى فمهما كان عظيما وشديدا فهو بالنسبة إلى مكر الله ضعيف وحقير .

وهذا الذى فعلوه — عند الله — والعندية إما عندية علم على معنى مكتوب عند الله مكرهم ومعلوم له سبحانه فهو تعريض بالوعيد والمؤاخذة بسوء فعلهم فالمكر مضاف إلى فاعله وإما على حذف مضاف أى جزاء مكرهم .

وجوز الزمخشرى أن يكون المصدر مضافا إلى مفعوله على معنى عنده تعالى مكرهم الذى يمكرهم به وهو عذابهم الذى يستحقونه وتعقبه أبو حيان بأن هذا لا يصح لأن مكر لازم ولم يسمع متعديا (١) .

ونسبة المكر إلى الله عز وجل من باب المشاكلة .

ثم أراد الحق أن يبين أنه مجازيهم على هذا المكر سواء كان قويا أو ضعيفا فقال — وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال — أى وإن كان

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٥٠/١٣ والبحر المحيط ٤٣٧/٥ والكشاف ٣٨٣/٢

مكرهم فى غاية الشدة والقوة وعبر عن ذلك بكونه معدا لإزالة الجبال لكونها مثلا فى الثبات والرسوخ فإن الله مجازيهم على هذا المكر وإن كان فى شدة الجبال ، و — إن — شرطية وصلية عند البعض وقرأ الجمهور — لتزول — بكسر اللام ونصب الفعل المضارع بعدها فتكون — إن — نافية واللام لام الجحود وكان تامة والمراد بالجبال آيات الله تعالى وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل — التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات والقصد إلى تحقير مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات فهو أضعف وأوهن من ذلك ويجوز أن تكون — كان — ناقصة وخبرها الفعل الذى دخلت عليه اللام وقرأ الكسائى وحده — لتزول — بفتح اللام الأولى ورفع الفعل وتكون — إن — مخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية عند البصريين وعند الكوفيين نافية واللام بمعنى إلا ويكون الكلام إثباتا لزوال الجبال من مكرهم والمقصود من ذلك هو تعظيم مكرهم فهو مكر عظيم تزول منه الجبال لو كان لها أن تزول وهذا من المبالغة فى حصول أمر شنيع وشديد من نوعه كما فى قوله تعالى — تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا — ثم فرع على ذكر ما تقدم من قوله — ولا تحسبن الله غافلا — قوله — فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله — والخطاب للرسول ﷺ وهو تسلية أخرى له عليه الصلاة والسلام وتثبيت له على ما هو عليه من الثقة بالله والتيقن بانجاز وعده تعالى بتعذيب الظالمين فالنهى عن حسبان كونه مخلف وعده رسله ، المراد به التثبيت على ذلك لأن تأخير إنزال العقاب بأعدائه صلى الله عليه وسلم يشبه حال المخلف وعده .

وقد أطلق الحسبان على الأمر المتحقق هنا كما قال الشاعر :

فلا تحسبن إنى أضل منيتى
فكل امرىء كأس الحمام يذوق (١)

وإضافه — مخلف — إلى — الوعد — من إضافة اسم الفاعل إلى مفعوله الثانى كما فى قولهم — هذا معطى درهم زيداً — ولما كان — مخلف — يتعدى إلى مفعولين جازت إضافته إلى كل منهما وينصب المتأخر منهما كما قال الشاعر :

ترى الثور فيها مدخل الظل رأسه
وسائره باد إلى الشمس أجمع

وتقديم المفعول الثانى — وعده — على الأول — رسله — ليعلم أنه تعالى لا يخلف الوعد أصلا كما فى قوله — إن الله لا يخلف الميعاد — ثم قال — رسله — ليؤذن بأنه إذا لم يخاف الوعد مع أحد فمع الرسل أولى لأنهم هم خيرته وصفوته .

ورأى ابن المنير بأن الفعل إذا تقيد بمفعول انقطع احتمال اطلاقه وهو هنا كذلك فليس تقديم الوعد دالا على إطلاق الوعد بل على العناية والإهتمام لأن الآية سيقت لتهديد الظالمين بما وعد سبحانه على ألسنة الرسل فالمهم ذكر الوعد وكونه على ألسنة الرسل لا يتوقف عليه التهديد والتخويف — (٢) .

و — رسله — جمع مستعمل فى الواحد مجازا وهو محمد ﷺ أى أن الله منجز له ما وعده من نصره على الكافرين وأما الرسل السابقون فقد تحقق وعده فيهم .

وجملة — إن الله عزيز ذو انتقام — تعليل للنهى عن حسبانه مخلف وعده .

---

(١) البحر المحيط ٤٣٨/٥ (٢) ينظر روح المعانى ٢٥٣/١٣

والعزة . القدرة والمعنى أن موجب إخلاف الوعد منتف عن الله تعالى لأن إخلاف الوعد يكون إما عن عجز وإما عن عدم اعتياد الموعود به فالعزة تنفي الأول وكونه صاحب انتقام ينفي الثاني وهذه الجملة تذييل وتعليل للنهي المذكور .

وحيث كان الوعد عبارة عن تعذيبهم خاصة كما مرت إليه الإشارة لم يذيل كما قال بعض المحققين بأن يقال — إن الله لا يخلف الميعاد، بل تعرض لوصف العز والإنتقام المشعرين بذلك(١) .

المعنى الإجمالي للآيات :

يخبرنا الحق تبارك وتعالى بأنه لا عذر لأحد بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن ينذر الناس تحقيقاً لقوله تعالى — وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا — وقوله — رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما — وإذا كان الرسول قد قام بالانذار والتبليغ فانى تقبل معذرة أحد من هؤلاء الظالمين الذين يتمنون الرجوع إلى الدنيا وتأخير العذاب لإجابة دعوة الرسل عليهم السلام .

وقولهم — ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل — قد دل دلالة قاطعة على أنهم ما أكرهوا على العصيان ولا اقتيدوا إلى الظلم اقتياداً وإنما فعلوا ذلك بمحض إرادتهم واختيارهم ولذلك قال أحد العلماء المجتهدين لا حظت وأنا أقرأ القرآن الكريم في سور كثيرة أن العصاة يوم القيامة يتمنون لو يعادون إلى الدنيا لتكون لهم حياة أرشد ومنهج أسلم وتقوى أظهر ولكن ما يقبل منهم هذا قلت ، لو كان هؤلاء أحسوا أدنى إحساس بأنهم غلبوا على إرادتهم ودفعوا إلى المعصية برغم أنوفهم لقالوا

---

(١) المصدر السابق والتحرير والتنوير ٢٥١/١٣

لله ، إنك أنت السبب ولكنهم ما يجرؤن على هذا مع جرأتهم على الكثير تأملوا معى قول الله فى سورة الأنعام،ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ٢٧ ياليتنا تمنى هل التمنى يجاب؟ لا — ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ٢٨ هل هذا التمنى يقال ويمكن أن يقول هؤلاء،إن الله هو الذى سبب لنا ما وقعنا فيه ؟ لا .

فى سورة الحجر نقرأ قوله تعالى : « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ٢ .

وفى سورة إبراهيم قبلها : « وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب » الآية.

والجواب ... أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال(١) .

وبذلك أكملت هذه الآية قضية إضلال الله للظالمين التى بدأت فى أول السورة فقد بدأت تلك القضية بقوله تعالى — فيضل الله من يشاء — ثم خصصت من يدخل فى هـــذه المشيئة وهم الظالمون بقوله — ويضل الله الله الظالمين — ثم وضحت هذه الآية أنهم وقعوا فى الظلم باختيارهم أى أن الظلم لم يكن مكتوبا عليهم حتى يتعللوا بالقدر وإنما هو شىء فعلوه بأنفسهم لأنفسهم وتعالى الله عن الظلم علواً كبيراً ،

وتلك سمة من سمات الاعجاز القرآنى حيث تبدأ القضية بخيوطها الأولى ثم تتوالى الآيات فى شرحها وتوضيحها حتى تستكمل معالمها وبنيانها فيما يتلوها من الآيات .

ثم توالت الآيات توبخ هؤلاء الظالمين وتسخر منهم حيث كانوا قد

---

(١) خطب الشيخ الغزالى ٣٠٩

أقسموا قسما عظيما بأن الله لا يبعث من يموت وأنهم لم ينتقلوا عما هم فيه من الحظوظ الدنيوية وإن انتقلوا فسوف يجدون خيراً منها كما قال صاحب الجنة — ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً — ولم تغنهم آثار الذين ظلموا أنفسهم ولم يتعظوا بإنزال الله العقوبات والهلاك عليهم وكان فى ذلك مضرب الأمثال لهم ومهما فعلوا من المكر والخداع فإن الله لهم بالمرصاد ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله — ولن تزول بعتوهم وفسادهم الآيات البينات ولا من جاء بها وتمسك لأنهم فى ثباتهم ورسوخهم كالجبال الراسيات ينبو عنها كل معول ويرتد عنها كل ناطح وما مثلهم فى المكر والظلم إلا كما قال الشاعر :

كناطح صخرة يوما ليوهنها　　فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

ووعد الله لن يتخلف عن المؤمنين ـ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ـ إنا لننصر رسلنا ـ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى .

هذا وقد ذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى أنه قال . لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله فى أربع منها فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون — ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل .

فيجيبهم الله عز وجل — ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير .

ثم يقولون — ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون.

فيجيبهم جل شأنه — فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا .

ثم يقولون — ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجيب دعوتك ونتبع الرسل.

فيجيبهم تبارك وتعالى — أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال .

ثم يقولون — ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل .

فيجيبهم جل جلاله — أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير .

فيقولون — ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين .

فيجيبهم جل وعلا — اخسأوا فيها ولا تكلمون — فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وعند ذلك انقطع رجاؤهم وأقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وأطبقت عليهم جهنم .

اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بكنفك من عذابك ونسألك التوفيق للعمل الصالح فى يومنا لغدنا والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن يخرج الأمر من يدنا(١) .

قال تعالى — يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ٤٨ وترى المجرمين يومئـــذ مقرنين فى الأصفاد ٤٩ سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ٥٠ ليجزى الله كل نفس ماكسبت ان الله سريع الحساب ٥١ .

تبدل — الإبدال والتبديل والتبدل والاستبدال جعل شىء مكان آخر والتبديل قد يكون فى الذات كما بدلت الدراهم دنانير ومنه قوله تعالى : — بدلنا هم جلودا غيرها — وقد يكون فى الصفات كما فى قولك بدلت الحلقة خاتماً إذا غيرت شكلها ومنه قوله تعالى — فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات .

الواحد — الوحدة الإنفراد والواحد فى الحقيقة هو الشىء الذى

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٤٩/١٣

لا جزء له ألبتة وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذى لايصح عليه التجزى ولا التكثر .

وأحد مطلقاً لا يوصف بة غير الله تعالى — قل هو الله أحد — وأصله وحد ولكن وحد يستعمل فى غيره نحو قول النابغة :

كأن رحلى وقد زال النهار بنا   بذى الجليل على مستأنس وحد

والفرق بينهما أن الواحد لنفى الشريك والأحد لنفى تعدد الذات القهار — القهر الغلبة والتذليل معاً .

المجرمين — أصل الجرم قطع الثمرة عن الشجرة ويقال رجل جارم وقوم جرام والجرامة . ردىء التمر وأجرم صار ذا جرم نحو أتمر وألبن واستعير ذلك لكل اكتساب مكروه .

وقال الشاعر فى صفة عقاب :

جريمة ناهض فى رأس نيق

سمى اكتسابها لأولادها جرماً من حيث إنها تقتل الطيور أو لأنه تصورها بصورة مرتكب الجرائم لأجل أولادها كما قال بعضهم ما ذو ولد وإن كان بهيمة إلا ويذنب لأجل أولاده :

واستعير من الجرم أى القطع جرمت صوف الشاة وتجرم الليل ومنه قولهم — لا جرم — وهى بمعنى حق وثبت أو بمعنى كسب ومابعدها مرفوع على الفاعلية على المعنى الأول أو منصوب على المفعولية على المعنى الثانى وذلك على اعتبار كونها — فعلا ماضياً و — لا — إما مركبة معها أو نافية لكلام مقدر أومابعدها مرفوع على الخبرية وجرم اسم — لا —

وقيل إن المعنى لاجريمة فى عقابهم لأن العقاب على الجريمة ليس

بجريمة . فالقتل الذى هو اعتداء جريمة ولكن القتل الذى هو قصاص ليس بجريمة .

مقرنين . الاقتران كالازدواج فى كونه اجتماع شيئين أو أشياء فى معنى من المعانى — كما قال تعالى — أو جاء معه الملائكة مقترنين — ويقال — قرنت البعير بالبعير جمعت بينهما ويسمى الحبل الذى يشد به قرنا وقرنته على التكثير — وفلان قرن فلان فى الولادة وقرينه وقرنه فى الجلادة وفى القوة وفى غيرهما من الأحوال .

والقرن القوم المقترنون فى زمن واحد وجمعه قرون والقرون النفس لكونها مقترنة بالجسم .

والقران الجمع بين الحج والعمرة والقرن عظم القرن — وقرن الجبل الناتىء منه وقرن المرأة ذؤابتها وقرن المرآة حافتها وقرن الفلاة حرفها وقرن الشمس وقرن الشيطان كل ذلك تشبيهاً بالقرن .

الأصفاد :

الأصفاد — جمع صفد وهو القيد الذى يوضع فى الرجل أو الغل الذى يكون فى اليد والعنق أو مايضم به اليد والرجل إلى العنق . والصفد العطية اعتباراً بما قيل أنا مغلول أياديك وأسير نعمتك . ويقال . صفد وأصفد معاً فى القيد والإعطاء ويسمى العطاء صفداً لأنه كما قيل — ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً — .

سرابيلهم جمع سربال وهو القميص من أى جنس كان .

قطران : القطران . دهن من تركيب كيماوى قديم عند البشر يصنعونه من إغلاء شجر الأرز وشجر السرو وشجر الأبهل — وهو شجر من فصيلة العرعر وذلك بأن تقطع الأخشاب وتجعل فى قبة مبنية على بلاط

سوى وفى القبة قناة إلى الخارج وتوقد النار حول تلك الأخشاب فتصعد الأبخرة منها ويسرى ماء البخار فى القناة فتصب فى إناء آخر موضوع تحت القناة فيجتمع منه ماء أسود يعلوه زبد خاثر أسود فالماء يعرف بالسائل والزبد يعرف بالبرقى ويتخذ للتداوى من الجرب للإبل ولغير ذلك مما هو معروف فى كتب الطب(١)

وتغشى : غشيه غشاوة وغشاه أتاه إتيان ماقدغشيه أى ستره والغشاوة مايغطى به الشىء كما قال — وعلى أبصارهم غشاوة — وغشيت موضع كذا أى أتيته وكنى بذلك عن الجماع — فلما تغشاها حملت — وقوله — هل أتاك حديث الغاشية — كناية عن القيامة .

وقوله — واستغشوا ثيابهم — جعلوها غشاوة على أسماعهم وذلك عبارة أو كناية عن الإمتناع من الإصغاء والرؤية وقيل كناية عن العدو كقولهم — شمر ذيلا وألقى ثوبا .

وجوههم : أصل الوجه الجارحة كما قال . فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق — ولما كان الوجه أول مايستقبلك ، وأشرف مافى ظاهر البدن استعمل فى مستقبل كل شىء وفى أشرفه ومبدئه فقيل وجه كذا . ووجه النهار وربما عبر عن الذات بالوجه كما فى قوله تعالى — ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام — كل شىء هالك إلا وجهه — وقيل أراد بالوجه مايتوجه به إلى الله من الأعمال الصالحة أى مايراد به وجهه تعالى .

ليجزى — الجزاء الغناء والكفاية من المقابلة إن خيرا فخير وإن شرا

---

(١) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٥٣

فشر والجزية مايؤخذ من أهل الذمة وتسميتها بذلك للإجتزاء بها فى حقن دمهم — حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

حول نظم الآيات :

بعد أن ذكر الحق تبارك وتعالى صفات الظالمين يوم القيامة ومايصدر عنهم من طلب الرجوع إلى الدنيا لعمل الصالحات ذكر فى هذه الآيات صفات الكون ومايحدث للأرض والسموات فى ذلك اليوم كما ذكر صفات أخرى للمجرمين . فقال — يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .

و — يوم — منصوب على الظرفية إما للإنتقام وإما على البدلية من — يوم يأتيهم العذاب — بدل كل من كل .

وإما ظرف لمضمر مستأنف ينسحب عليه النهى المذكور — أى ينجزه — يوم ...

وإما أن يكون متعلقاً بفعل محذوف تقديره اذكر يوم تبدل الأرض أو بفعل محذوف دل عليه قوله — ليجزى الله كل نفس أى يجزى الله كل نفس يوم تبدل الأرض .

ولك أن تجعله متعلقاً بقوله — سريع الحساب — قدم عليه للاهتمام بوصف مايحصل فيه فجاء على هذا النظم ليحصل التشويق إلى وصف هذا اليوم لما فيه من التهويل(١)

وبعد ذكر الزمن ذكر مايقع فيه من صفات الكون وهو التبديل ثم

---

(١) ينظر المصدر السابق

ذكر المبدل وهو الأرض والسموات وقدم الأرض على السموات لأن المخاطب بذلك هو الإنسان الذى يعيش على هذه الأرض ولأن تبديلها أعجب وأعظم لقربها منا .

وفى الآية حذف من الثانى لدلالة الأول عليه أى السموات غير السموات وتبديليهما يوم القيامة إما بتغيير الأوصاف التى كانت لهما وإبطال النظم المعروفة لهما فى الدنيا وإما بتغيير فى الذات بمعنى إزالتهما وإيجاد أرض وسماء جديدتان .

والآية الكريمة ليست بنص فى أحد الوجهين فقد نص ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال تبدل الأرض يزاد فيها وينقص منها وتذهب آكامها وجبالها وأوديتها وشجرها وتمد مد الأديم العكاظى وتصير مستوية لاترى فيها عوجاً ولا أمتا وتبدل السموات بذهاب شمسها وقمرها ونجومها وحاصله يغير كل عما هو عليه فى الدنيا وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتم
ولا الدار بالدار التى كنت أعلم

وقال ابن الأنبارى . تبدل السموات بطيها وجعلها مرة كالمهل ومرة كالدهان .

وقيل تكون الأرض كالفضة والسموات كذلك أو تبدل الأرض أرضاً بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك فيها دم حرام ولم يعمل فيها خطيئة أو تكون الأرض جهنم والسموات الجنان وغير ذلك من الأقوال التى تدل على أن هذا العالم سيزول ويظهر عالم جديد يتناسب مع وضع الخلق الجديد .

وقد ذكرت الجملة مبنية للمفعول لأن الغرض إثبات الفعل واقعا على

المفعول وهو التبديل واقعا على الأرض والسموات وأما الفاعل فإن مبدأ العظمة يدل على أنه لا يقدر على هـــذا التبديل الهائل إلا العظيم سبحانه وتعالى فالفاعل معلوم بالعقل .

وبعد هـــذا التبديل يبرز الخلق وفيهم هؤلاء الظالمون من قبورهم والفعل — وبرزوا — معطوفا على الفعل — تبدل — وجاء الفعل — تبدل — مضارعا وفقا لاقتضاء المقام لأن التبديل سيكون يوم القيامة وأما هذا الفعل برزوا — فقد جاء ماضياً لتحقق الوقوع — وقد مضى تحقيق معنى — برز .

ثم ذكر علة هذا البروز وهو كونه — لله أى لحسابه ومجازاته وهذا يمثل المفاجأة والفجيعة للظالمين الذين كانوا لا يؤمنون بهذا الإله ثم وصفه بأنه — الواحد — وهو تقريع للذين أشركوا معه غيره فهو واحد أى لا شريك له فهذا الوصف يعنى نفى الشريك ثم زاد الأمر تهويلا بالوصف الثانى — القهار — أى الغالب الذى كل شىء له مقهور بذلة واستكانة .

— والتعرض للوصفين لتهويل الخطب وتربية المهابة لأنهم إذا كانوا واقفين عند ملك عظيم قهار لا يشاركه غيره كانوا على خطر إذ لا مقاوم له ولا مغيث سواه وفى ذلك أيضاً تحقيق إتيان العذاب الموعود(١) .

وبعد أن وصف نفسه تعالى بالعزة وصفهم بالذلة وبين مظاهر ذلتهم بقوله — وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار .

وصدرت الآية بالفعل الدال على الرؤية — وترى — وسواء كانت بصرية مفعولها الأول — المجرمين ومقرنين حال منه أو علمية والمفعول

---

(١) روح المعانى ١٣/٢٥٤

الأول — المجرمين — والثانى — مقرنين — فإن هـذا الفعل يدل على أن أخبار الله عز وجل فى حكم ما يرى بالعين التى يزول معها كل شك وهل يشك الإنسان فيما تراه عيناه ؟ ولذلك قال الله لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام — ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل — يقرره بالرؤية مع أن هذه الحادثة وقعت عام مولده وهو عليه الصلاة والسلام لم يرها وإنما سمع أخبارها وإنما هذا من منطلق أن أخبار الله لصدقها وحقيقتها كانت كأنها أفعال وقعت عليها رؤية العين .

وجىء بفعل الرؤية — ترى — مضارعا لاستحضار الصورة أو للدلالة على استمرارها وأما البروز فهو دفعى لا استمرار فيه وكأن هذا الفعل يدل على يقين ومثول تلك الصور التى ترسمها الآية للمجرمين فى مرأى العين وذلك للتنفير منها والبعد عنها .

وأول تلك الصفات كونهم — مجرمين — فأفعالهم السيئة قد وصلت إلى درجـة الإجرام . الإجرام فى حق الله ورسوله والمجتمع ونفوسهم فاستحقوا بذلك العقوبة إذ لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

والوصف بالإجرام يوم القيامة باعتبار ما كانوا عليه فى الدنيا ولذلك وصفوا به أولا .

والوصف الثانى — مقرنين فى الأصفاد — والتقرين كاسبق الإزدواج والمراد به ضم بعضهم إلى قرنائهم بالقيود والقرناء هم الشركاء فى الكفر كما فى قوله تعالى — وإذا النفوس زوجت — أو الشياطين أو العقائد الزائفة والأعمال السيئة أو قرنت أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم وكلها تدل على التبعية والإنقياد لغير منهج الله عز وجل ولذلك استحقوا هـذا الوصف الذى يظهرهم بمظهر الحيوانات المقيدة بالحبال — كل حيوان إلى مثيله .

والوصف الثالث — سرابيلهم من قطران — ومعلوم أنه لا قمصان هناك

وإنما المقصود أنه تطلى جلودهم بالقطرن حتى يعود كالسرابيل عليهم فالجملة من باب التشبيه البليغ وجوز أن تكون من باب الاستعارة التمثيلية بأن تشبه النفس المتلبسة بالملكات الرديئة كالكفر والجهل والعناد والغباوة بشخص لبس ثيابا من قطران وزفت ووجه الشبه تحلى كل منهما بأمر قبيح مؤذ لصاحبه يستكره عند مشاهدته واستعيرت هيئة المشبه به لهيئة المشبه.

وأيمـــا كانت وسيلة البيان فإن الصورة تدل على أربعة أنواع من العذاب لذع القطران وحرقته وإسراع النار فى جلودهم واللون الموحش ونتن الريح .

والوصف الرابع — وتغشى وجوههم النار — وتدور مادة الفعل — تغشى — حول الستر والإتيان أى أن النار تعلوها حتى تسترها وقرىء برفع الوجوه ونصب النار كأنه جعل ورود الوجوه على النار غشيانا لها مجازا وأوثر الفعل المضارع — تغشى — لتجديد الاستحضار المقصود فى قوله — وترى — وكأن الغشيان يتجدد حالا فحالا .

وخص الوجه بالذات مع عموم الحكم لسائر الأعضاء لكونه أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها كما قال تعالى — أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة — ولكونها مجمع الحواس والمشاعر التى لم يستعملوها فيما خلقت له من إدراك الحق وتدبره وهذا كما تطلع على الأفئدة كما قال نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة . لأنهـــا أشرف الأعضاء الباطنة ومحل المعرفة وقد ملؤها بالجهالات .

فإذا عذبوا بأشرف شىء وأظهره كان عذابهم أخزى وأشد تنكيلا ويتضاعف ألمهم لأنه على رؤوس الإشهاد .

والملاحظ على ترتيب هـذه الأوصاف ظاهرة الترقى من الفظيع إلى الأفظع فقد بدأت بالإجرام الذى يدل على فظاعة فعلهم ثم ثنت بالجزاء

وهو من جنس عملهم وقد ترقى الجزاء من كونهم مونقين بالأصفاد إلى سربلتهم بالقطران إلى غشيان وجوههم النار .

وكان الوصفان الآخران أفظع من الأولين لأنهما فى بيان حالهم بعد دخولهم النار وأما الأولان فكانا قبل دخولهم النار .

وكان هذا الجزاء الذى ينتظرهم ولذلك قال — ليجزى الله كل نفس ما كسبت — أى يفعل بهم ذلك ليجزى — فالفعل — ليجزى — متعلق بمضمر أو متعلق بالفعل — برزوا لله الحساب ليجزى الله كل نفس وقيل إن المراد بالنفس المجرمة بقرينة المقام ولكن الظاهر إجراء الآية على عمومها لينسجم هذا العموم مع العموم فى قوله — وبرزوا — أى ويبرز الخلق ليجزى الله كل نفس مطيعة أو عاصية ما كسبت من خير أو شر وإذا كانت الآية قد نصت على عقاب المجرمين فإنه يعلم منه ثواب المطيعين ثم إن عقاب المجرمين وهم أعداء المؤمنين يعتبر جزاء لهم كذلك .

وختمت الآية بهذا التذييل المعلل على طريق الإستئناف البيانى — إن الله سريع الحساب — لتحقيق أن ذلك واقع لا محالة كما فى قوله تعالى إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع — وإما استئناف إبتدائى وقدم معمولها وهو — يوم تبدل الأرض — عليها لما ذكرناه سابقاً(١) .

وقوله — مقرنين — سرابيلهم من قطران — تغشى وجوههم النار — أحوال من مفعول — ترى .

والقطران فيه ثلاث لغات — قطران قطران قطران — بفتح فسكون وكسر وسكون وفتح وكسر .

---

(١) ينظر التحرير والتنوير ٢٥٩/١٣

وقـــرأ علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه وابن عباس وأبو هريرة وعكرمة وقتادة وغيرهم — من قطر آن — على أنهما كلمتان منونتان أولاهما — قطر — بفتح وكسر وهو النحاس مطلقاً أو المذاب منه و— آن — المتناهي حره .

المعنى الإجمالي للآيات :

تدل الآيات على أن هذا الكون الذي أرضه مدحوة وسماؤه مرفوعة ونجومه مضيئة وجباله ثابتة وأنهاره جارية سوف يتبدل ويتغير وتكفلت آيات أخر في شرح هذا المعنى الموجز الذي ينسجم مع عمومية الأسلوب في هـــذه السورة المكية فقال الله تعالى في سورة الحاقة — فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ١٣ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ١٤ فيومئذ وقعت الواقعة ١٥ وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ١٦ والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ١٧ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ١٨ .

وقال في سورة القيامة — فإذا برق البصر ٧ وخسف القمر ٥ وجمع الشمس والقمر ٩ يقول الإنسان يومئذ أين المفر ١٠

وقال في ســـورة التكوير — إذا الشمس كورت ١ وإذا النجوم انكدرت ٢ وإذا الجبال سيرت ٣ وإذا العشار عطلت ٤ وإذا الوحوش حشرت ٥ وإذا البحار سجرت ٦ وإذا النفوس زوجت ٧ وإذا الموءودة سئلت ٨ بأي ذنب قتلت ٩ وإذا الصحف نشرت ١٠ وإذا السماء كشطت ١١ وإذا الجحيم سعرت ١٢ وإذا الجنة أزلفت ١٣ علمت نفس ما أحضرت ١٤ وغير ذلك من الآيات المنثورة في القرآن الكريم التي تتحدث عن هذا التغيير كما في سورة طه — ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ١٠٦ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ١٠٧

وكل ذلك يدل على أن عالما جديدا ستكون فيه الحياة السرمدية الجديدة ثم توالت الآيات بجسدة الخزى والعذاب الذى ينتظر هؤلاء المجرمين يوم الدين وهذا يريح أنفس المظلومين إذا علموا أن وعد الله حق وأنه سريع الحساب .

ومع توالى أوصاف الكفرة فى الآيات السابقة واللاحقة فليست هناك أوصاف متكررة ولكن تلك خلاف هذه وكلها تتكامل وتتآزر فى رسم الصورة القبيحة والمخزية بشكلها ولونها وريحها لهؤلاء الظالمين .

ونسأل الله النجاه .

قال تعالى — هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ٥٢

صدق الله العظيم

هذا — الهاء حرف تنبيه وذا اسم إشارة موضوع للمحسوس المشاهد بالبصر .

بلاغ — البلوغ الإنتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانا أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدرة .

والبلاغ فى هذه الآية بمعنى التبليغ كما قال الراغب وبمعنى الكفاية فى قوله تعالى — إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين .

حول نظم الآية :

هذه الآية ختام السورة وقد صدرت باسم الإشارة وهو يعود قيل إلى القرآن أو إلى ما ذكر من قوله — ولا تحسبن الله غافلا ... إلى قوله — إن الله سريع الحساب — والأصح أن الإشارة تعود إلى كل المعانى التى ذكرت فى السورة كلها .

وإذا كان إسم الإشارة موضوعا للمحسوس المشاهد بالبصر فإن استخدامه فى هذه المعانى يعتبر من باب المجاز على طريق الإستعارة التبعية وكأنه يجسد ويعين ويميز هذه المعانى السابقة ويبرز هذه المعنويات المعقولة فى صورة المحسوس المدرك بالبصر وعندئذ لا معذرة لأحد بعد وضوح الأمر وإنكشافه .

وهذا الذى تقدم فى الكلام السابق بلاغ للناس والبلاغ اسم مصدر بمعنى التبليغ وتدور مادته حول الوصول والإنتهاء وكأن هذه المعانى التى ذكرت فى هذه السورة قد رتبت حتى وصل صرحها إلى هذه النهاية فى ختام السورة ففيها الكفاية فى الموعظة والتذكير والاعتبار والإخبار عن هذه المعانى بأنها بلاغ أى باسم المصدر فيه من المبالغـــة ما فيه إذ يدل على أنها تجسدت بهذا التبليغ كما تقول هذا عدل فهو أبلغ من قولك هذا عادل .

ثم ذكر المبلغ له وهو — للناس — قيل المراد به الكفار أو الظالمون والأولى أن يبقى على عمومه لمناسبة هذا الختام لأول السورة واللام فى — للناس — هى المعروفة بلام التبليغ وهى التى تدخل على اسم من يسمع قولا أو ما فى معناه .

ثم ذكر لهـذا البلاغ ثلاث فوائد هى الغاية والحكمة فى إنزال الكتب .

الأولى : تكميل الرسل عليهم السلام للناس المشار إليه بالإنذار — ولينذروا به .

الثانية : استكمالهم القوة النظرية التى منتهى كمالها ما يتعلق بمعرفة الله تعالى المشار إليه بالعلم — وليعلموا أنما هو إله واحد .

الثالثة : استصلاح القـــوة العملية التى هى التذرع بلباس التقوى المشار إليه بالتذكر — وليذكر أولوا الألباب .

والملاحظة أن هذه الفوائد مرتبة ترتيباً دقيقاً إذ بعد حصول الصفة العامة وهى حصول التبليغ للناس كافة يترتب على ذلك حصول الاستيقاظ والنصح والإنذار وذلك داعى إلى التأمل المستتبع للعلم وأول ما يجب علمه هو أنه إله واحد لا شريك له أصلا أى الإقرار بوحدانية الله عز وجل. وذلك يفضى إلى التذكير بما جاء فى هذا البلاغ من تفاصيل العلم والعمل بشرع الله عز وجل .

وقوله — ولينذروا — معطوف على محذوف والتقدير — هذا بلاغ للناس لينتصحوا أو ليستيقظوا من غفلتهم ولينذروا به واللام متعلقة بالبلاغ :

وذهب ابن عطية إلى أنه خبر لمبتدأ محذوف أى وهو لينذروا به .

وذهب المبرد إلى أنه من باب عطف المفرد على المفرد أى هذا بلاغ وإنذار ورد بأنه تفسير معنى لا إعراب .

وفى جانب التعبير عن وحدة الألوهية جاء الأسلوب بالقصر بطريق — أنما — أى قصر — هو — أى — الله — على — إله واحد — أى الألوهية الموحدة وهو قصر موصوف على صفـــة قصراً إضافياً أى أنه تعالى لا يتجاوز تلك الصفة إلى صفة التعدد بالكثرة أو التثليث .

وفى جانب التذكر أسنده إلى أولى الألباب وهم أصحاب العقول إعلاء لشأنهم فهم الجديرون بهذا التذكر أما غيرهم فليسوا من أهـــل التذكر لأنهم لا عقول لهم فهم كالأنعام بل أضل سبيلا .

وهذه المواعظ والعلم بوحدانية الله وتذكر ما جاء به محمد بن عبد الله إنما تكون ممن وفقه الله وييسر له طريق الخروج من الظلمات إلى النور ولذلك نجد أن هذه الآية وهى ختام السورة تصديق لأولها ونتيجة حتمية لما تقدم فيها .

ففى أولها كان الكتاب الذى أنزله الله على محمد ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ...

وقد قام محمد عليه الصلاة والسلام بتبليغ هذا الكتاب للناس وقد انتصح من انتصح واستيقظ به من غفلته من استيقظ وعلم وحدة الألوهية من علم وتذكر أصحاب العقول هذه المعانى الإيمانية وخرجوا بها من الظلمات إلى النور ولذلك كان آخر السورة مرتبطاً بأولها تمام الإرتباط مما يدل دلالة قاطعة على أن السورة وحدة متماسكة مرتبطة بخيوط خفية جعلت أولها تمهيداً لآخرها وآخرها تصديقاً لأولها وسنعرض للحديث عن هذه الوحدة طبقاً لمنهجنا فى هذا الكتاب .

المعنى العام لهذه الآية :

يخبرنا الحق تبارك وتعالى أن هذا الكتاب الذى أنزله على محمـــد ﷺ إنما نزل للتبليغ وقد أمر نبيه بذلك — يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ... — وهذا التبليغ فيه الموعظة والإنذار والعلم بأن الله إله واحد قهار وأن أصحاب العقول هم الذين يحرصون على تذكر هذه المعانى وتحقيقها فى أنفسهم وترجمتها فى سلوكياتهم ومفهوم ذلك أن من

يعزف عن ذلك فليس من أصحاب العقول وإنما قد أدخل نفسه فى زمرة الحيوانات بل هو أضل سبيلا — كما قال الله تعالى . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضـــل أولئك هم الغافلون — ١٧٩ — الأعراف — وقد شرحت آيات سورة آل عمران حقيقة أولى الألباب بقوله تعالى — إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ١٩٠ الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ١٩١ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ١٩٢ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيآتنا وتوفنا مع الأبرار ١٩٣ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسولك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ١٩٤

جعلنا الله منهم .

— وحدة السورة وتماسك لبناتها —

لقد بدئت السورة الكريمة بثلاثة حروف مقطعة لا عهد للعرب بها من قبل لا فى الشعر ولا فى النثر وإنما عهدوها من القراء الكاتبين يعلمونها الصبية الناشئين فى بداية رحلة التعليم — ا — ل — ر — وقد عرضنا سلفا لما قيل حول هذه الحروف ودلالتها الإعجازية على نبوة محمد ﷺ — وعلى كل فإن تقديمها بين يدى الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها من شأنه أن يصيخ السمع ويوقظ القلب ويوجه الأفئدة لما بعدها .

ثم تلت هذه الحروف جملة مصدرة بالكتاب المؤلف نظمه من هذه الحروف وتوالت أوصافه وغاياته بكونه منزلا من عند الله على رسوله

ليخرج الناس من الظلمات إلى النور وكانت المعبرة السرية إلى ذلك توفيق الله وتيسيره — بإذن ربهم — فهو الغاية وهو المقصود فى كل أمر وقد أحيط ذلك بصفات الجلال الدالة على قدرته تعالى وبصفات الجمال الدالة على رحمته ولطفه — العزيز الحميد — وترقت الآية الثانية إلى أنه تعالى يملك ما فى السموات وما فى الأرض مؤكدة ذلك بجملة الصلة وبأسلوب القصر وإذا كان كذلك فمن حقه أن يأمر ومن واجب البشرية أن تذعن وتنقاد كما هو شأن السيد مع عبده ومن باب الالتزام بالطاعة وإسلام الوجه بالكلية له تعالى توعد الشاردين عن منهجه والإقرار بألوهيته — وويل للكافرين من عذاب شديد — وجاءت الآية الثالثة تصف هؤلاء الكافرين وتذكر مسالكهم فى الحياة إعلاما بطرقهم للتبعيد من ضلالهم فوصفتهم بأنهم الذين آثروا الدنيا على الآخرة وضلوا وأضلوا ماديا ومعنويا حتى بلغوا قمة الضلال وهو صد الناس عن منهج السماء وكان التشخيص الذى بلغ مداه بوساطة اسم الإشارة مع ذكر الأثر الذى انحدروا إليه — أولئك فى ضلال بعيد — وإذا كان هذا شأن الكافرين فإنه يفهم منه أحوال المؤمنين، وهم الذين ينأون بأنفسهم عن الضلال والإضلال بكل صوره ويؤثرون وجـــه الله بأعمالهم أى ينتفعون بالكتاب الذى نزل لإخراج الناس من الظلمات بأنواعها إلى نور الحق المبين وهذا فى حقيقته ثناء على هذا الكتاب لأنه إذا كان متبعه فائزا والمعرض عنه ضالا فلا مرية فى أنه حق وأنه نزل من عند الحق على أفضل الخلق وقد بينت الآية الرابعة لغة هذا الكتاب بأنها لغة القوم الواضحة اللائحة التى يتحدثون بها فى مجتمعاتهم ومنتدياتهم وأسواقهم فى إقامتهم وظعنهم فهى اللغة المشهورة والمعروفة وهذا شأن كل رسول مع قومه لئلا يكون للناس عليه حجة وبذلك تستبين الرشد من الغى فمن شـــاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ويحكم الله بهداية من اهتدى ويحكم بضلال من ضل وتلك سنة الله فى إرسال رسله وتنزيل كتبه ولغتها فلا مجال للاحتجاج وللاعوجاج بعد هذا

البيان الواضح وكان الحديث عن لغه القرآن هو حلقة الإتصال التى وصلت بين الحديث عن لغته ولغة المرسلين السابقين وتفرع من هذا الحديث العام حديث خاص عن سيدنا موسى عليه السلام مع بنى إسرائيل إعلاما بأن الذى أرسل موسى هو الذى أرسل محمد لنعلم أن نبوة محمد ليست بدعا من الرسل وأن أمر التشريع والنبوات إنما هو بأمر الله ووحيه وأنهم عليهم السلام جاؤا لإنقاذ الناس من الضلال إلى الرشد ومن الجهل إلى العلم ومن الفوضى إلى النظام ومن الانحلال إلى التماسك . ومن الظلمات إلى النور وتلك جوهر دعوة الأنبياء والمرسلين .

وساقت الآيات — ٥ — ٦ — ٧ — ٨ — ما أمر الله به موسى أن يذكرهم به من النعم والنقم وأن الصابرين والشاكرين هم الذين ينتفعون بتلك الآيات وفصل بعض المنن التى امتن الله بها عليهم مرة بعد مرة مثل نعمة الإنجاء من آل فرعون وأن ذلك كان اختباراً عظيما من ربهم .

ثم أرسل القاعدة العامة التى تنتظمهم وغيرهم فى مسيرة الأنبياء وهى ميزان الشكر والكفران فبه تزاد النعم وتمحق وسواء كان منهم هذه أو تلك فإن الله غنى حميد ثم تدرج فى التحذير والإنذار إلى تاريخ أعمق — قوم نوح وعاد وثمود — حيث دلت عليهم الآثار وتجسدت فيهم نقمة الواحد القهار والتقط من هذا التاريخ ما هو من مقتضى الحال وهو موقفهم من الرسول والرسالة ليتعظ اللاحق بالسابق والحديث بالقديم وبين رفضهم وامتناعهم عن الحق المبين — فردوا أيديهم فى أفواههم — ثم تطور الأمر إلى الحوار الجدال وتمسك رسل الله بالبراهين التى تقنع العقل وتمتع العاطفة معا وتمسك المعاندون بالقشرة والمظهر وتركوا اللب والجوهر وقالوا بحديث البشرية — إن أنتم إلا بشر مثلنا — وتعصبوا لمواريث الآباء والأجداد ولكن الرسل الكرماء من شأنهم التواضع والاعتراف بنعم الله فقد ردوا الإصطفاء إلى فضل الله عليهم

وما كان لهم أن يخطوا خطوة إلا بإذنه تعالى ثم أعلنوا الصبر على الإيذاء والتوكل على الله ثم ترقى الحوار إلى مرحلة قاسية وهدد الكفار رسل الله بالإخراج من الأرض أو بالعود إلى ملتهم فتختم الآية هـذا التهديد بالوعيد فأوحى إليهم لنهلكن الظالمين — ويتلو هذا الوعيد وعد الله لرسله بإسكان الأرض من بعدهم ويجعل هذا حكما عاما لمن خاف مقامه وخاف عيده تعالى فى الغاير والحاضر وبعد الوصول إلى هذه النهاية طلب كل فريق القضاء بينه وبين مناوئه — واستفتحوا — وكانت النتيجة — وخاب كل جبار عنيد — وتلتقط الآيات طرف هذه الخيبة لتقرر امتدادها إلى جهنم وتشرح حيثياتها فى هذا المصير الذى لا يموت فيه ولا يحيا وتوضح أن أعمالهم الخيرية لم تغن عنهم شيئا لأنها فقدت أساسها وهو الإيمان بالله تعالى الذى كان يجب أن تعنو له الجباه وتؤمن به القلوب للدلائل المبثوثة فى خلق السموات والأرض فكما أوجدهما من عدم فقدرته على الإعدام أولى وأدخل فى ذلك الإنسان لأنه أضعف من هذه الأكوان — وما ذلك على الله بعزيز — .

وقد اتصل بهذا الحديث عن الجبارين والمعاندين فى الآخرة صورة أخرى من صور الحوار والجدال فى يوم القيامة وذلك بين المستكبرين وأتباعهم وترقى الجدال إلى رئيسهم وهو الشيطان وانتهت الآيات بأن الظالمين لهم عذاب أليم والمؤمنين فى النعيم المقيم لتحصيل أساس العمل وهو الإيمان بالله الذى افتقده الكافرون . ثم ضربت الآيات مثلين للمؤمنين والكافرين .

وقد تنوعت الآيات بين تفريق الجماعتين وجمعهما ثم جمعهما ثم تفريقهما وذلك واضح قبل قوله — واستفتحوا — وقوله — وبرزوا — وبعده .

ثم عادت الآيات ٢٨ — ٣٠ — تؤكد وتحقق أمر الذين بدلوا نعمة الله كفرا وجعلوا لله مالا ينبغى له أن يكون من الشركاء وغيرهم تأكيدا

لأمر الألوهية ووحدتها وأن المخالف إلى جهنم وبئس القرار ثم تقابلت تلك الصورة الكالحة بصورة جميلة للعباد المخلصين الذين أقروا بوحدة الإله الحكيم وتحول الخطاب إليهم طالبا منهم تحقيق الجانب العملى من الإيمان بعد ثبات الجانب النظرى فى قلوبهم فالإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل فطالبهم بكبريات الأعمال وأمهات الفضائل التى تتصل بذواتهم أو تمتد إلى غيرهم كالصلاة والإنفاق سرا وعلانيه ودفعهم إلى ذلك دفعا وحثهم عليه حثا — من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال — وهكذا يظهر جمال التقابل والتعادل .

ثم تسوق الآيات المواعظ الهادية التى تفتح الأبصار والبصائر وتوقظ القلوب والمشاعر وتشرح الصدور وتؤنس النفوس وتنحنى لها الرؤوس إجلالا وإكباراً وذلك بذكر النعم الكونية العامة وذكر النعم الخاصة وهنا تستجم القلوب وتهدأ النفوس بعد ذكر الجدال والحوار بين الفريقين فتوقن بالألوهية ووحدتها وتؤمن بالرسالة ورسولها .

وفى معرض النعم الخاصة يلفتهم إلى طريق السلف الصلح ويختار من الشجرة أصلها الثابت وفرعها الباسق . إبراهيم عليه السلام ويسوق الحديث عنه بأسلوب قصصى جذاب يعرض فيه للتاريخ المجيد لإبراهيم عليه السلام وأبنائه وأحفاده فى العصور الذهبية التى لا يختلف أحد من أهل الكتاب ولا المشركين على تعظيمها ومحبتها ومحبة الإنتساب إليها مستظهرا دعاءه بجعل البلد آمنا وأن يباعد بين بنيه وعبادة الأصنام مكررا إضلالها لكثير من الناس ويركز على الحم الواصلة بين الآباء والأبناء وهى صلة المبدأ ورابطة الوحدة الدينيه لاصلة البنوة والنسب فمن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه — فمن اتبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم — .

كما تحكى الآيات تضرعاته وابتهالاته عطفاً على أولاده وحنوا على أحفاده طالباً من الله أن يجعلهم مقيمى عماد الدين وهو الصلاة وطالباً المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم يقوم الناس لرب العالمين . ثم يمتد خيط هذا اليوم إلى وصف الظالمين وما يقعوا فيه من العذاب المهين فتجسد الآيات أحوالهم فى هذا اليوم وما يكون منهم عند مشاهدة العذاب من طلب الرجوع إلى الدنيا لعمل الصالحات وتمتد الآيات من وصف أحوال الظالمين وبيان أوصافهم من رؤوسهم حتى أقدامهم إلى بيان أحوال الكون — أرضه وسمائه — حتى يصل الأمر إلى نهايته وهو الجزاء — ليجزى الله كل نفس ما كسبت — وهذه هى النتيجة التى ينتظرها من آمن ومن كفر. ثم تعود الخاتمة — هذا بلاغ للناس — إلى الفاتحة — كتاب أنزلناه إليك —

ويتعانق الطرفان ليلتحم من قوسيهما سور محكم يحيط بهذه السورة فإذا هى بنية محبوكة مسورة .

وهكذا بدأت السورة وحدة واحدة مع كثرة معانيها ومبانيها وهذا هو جمال البيان القرآنى الذى يتجاور ويتشاكل ويترابط حتى يبدو كالجسد الواحد المنسق فى خلقه المهذب وفى خلقه وهذه الفضيلة البيانية الشريفة خاصة من خصائص الإعجاز القرآنى وقد رأيناها ماثلة فى نظم هذه السورة التى جمعت بين الوحدة والكثرة وبدت فى أجمل صورة حية كل ذرة فى خليتها وكل خلية فى عضوها وكل عضو فى جهازه وكل جهاز فى جسمه ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم وفقاً لخط جامع مرسوم رسمه مربى النفوس ومزكيها ومنور القلوب وهاديها ومرشد الأرواح وحاديها .

وتالله لنظم على هذا الجمال لهو معجزة المعجزات .

(١٩ — سورة إبراهيم)

الخاتمـــة

لعلى بعد هذه الرحلة مع هذه السورة المباركة أكون قد وفيت ببعض ما أجملته فى المقدمة وبقى أن أشير إلى جملة أمور :

الأول : أن السورة مكية ولذلك كان الخطاب فيها عاما .

ـ لتخرج الناس ـ وأنذر الناس ـ وغير ذلك مما تقدم وهذا يدل على عمومية الرسالة وعالمية الدعوة وخاتمية الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك لأن العهد المكى ـ كان عهد اختناق الدعوة وعهد سجن من يؤمن بها واضطهاده ومنعه من الحركة والتنقل فى هذا العهد الذى كان الإسلام يعانى فيه من جبروت الوثنيين وضغطهم البلاء الشديد كان القرآن يتنزل أن هذه الرسالة ليست لقطر بعينه ولكنها لأقطار الخلق جميعا ولو أن عموم الرسالة تنزلت به آيات فى العهد المدنى أو فى أواخر أيام الرسالة لقال الناس : نبى نجح فى أن يفرض نفسه على الجزيرة العربية فأغراه النصر على قومه بأن ينتصر على الآخرين وأن يوسع دائرة التبليغ بعد أن ضمن المجتمع القرى أرسل فيه (١) .

الثانى : لكون السورة مكية نراها قد ركزت على الإقرار بوجود الله وبوحدة الألوهية وتقرير مبــدأ النبوة والرسالة وتأييد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك تقرير مبدأ البعث والثواب والعقاب وذلك بأسلوب اتسم بالشدة والقسوة فى اقتلاع الرذائل لأنها متأصلة فيهم وموروثة عندهم كالظلم وعبادة الأصنام .

---

(١) خطب الشيخ محمد الغزالى ٥٤

الثالث : أن التوجيه والإرشاد كان لأمهات الفضائل وكبريات الأفعال كشكر النعم العامة والخاصة والصلاة والإنفاق والكلمة الطيبة .

ـــ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

دكتور
صلاح محمد غراب

أهم المراجع

١ — القرآن الكريم
٢ — أسرار البلاغة / للإمام عبد القاهر الجرجانى
٣ — أسرار التكرار فى القرآن / للكرمانى ت عبد القادر عطا
٤ — أباطيل وأسمار / للإستاذ محمود محمد شاكر
٥ — البرهان فى علوم القرآن / للزركشى
٦ — تفسير روح المعانى / للألوسى
٧ — تفسير الكشاف / للزمخشرى
٨ — تفسير الرازى
٩ — تفسير الطبرى
١٠ — تفسير القرطبى
١١ — تفسير البحر المحيط / لأبى حيان
١٢ — تفسير النيسابورى على هامش / الطبرى
١٣ — تفسير سورة الأحزاب / د / محمد أبو موسى
١٤ — تفسير التحرير والتنوير / للطاهر بن عاشور — تونس
١٥ — حاشية الصبان على شرح الأشمونى / ط الحلبى
١٦ — خطب الشيخ محمد الغزالى
١٧ — درة التنزيل وغرة التأويل / للخطيب الإسكافى
١٨ — دلالات التراكيب / د/ محمد أبو موسى
١٩ — شرح ابن عقيل ت محمد محى الدين ط ٢٠ دار التراث
٢٠ — عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى
٢١ — المفردات للراغب
٢٢ — من توجيهات الإسلام / للإمام محمود شلتوت
٢٣ — النبأ العظم / د / المرحوم محمد عبد الله دراز
٢٤ — الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم / د/ محمد محمود حجازى

محتويات الكتاب

المقدمة ومنهج الدراسة ٣ — ٧

وجه ارتباط السورة بما قبلها ٨ — ١٠

مصطلحات قرآنية ١١ — ١٤

من جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم عليه السلام

الدلالة الإعجازية والصوتية للحروف المقطعة وبيان الغاية من إنزال القرآن الكريم ووعيد الكافرين وبيان خصائصهم السلوكية والنفسية . وتوضيح أن بناء الجملة القرآنية امرآة للمعنى المقصود ١٤ — ٣٢

انكار الكافرين للغة القرآن والرد عليهم وبيان كيفية نشره للناس على اختلاف ألسنتهم وتوضيح معنى إسناد الهداية والضلال إلى الله تعالى وبيان أن اللغة العربية هى الرباط الوثيق بين المسلم ودينه والرأى فى نشأة اللغة . ٣٢ — ٤٢

بيان أن هدف الرسل واحد وهو الإخراج من الظلمات إلى النور وذكر طرف من مواقف سيدنا موسى عليه السلام مع قومه وبيان دقائق فى دلالات الألفاظ وفى ظاهرة ترقى الأسلوب وتطورة مع سير الدعوة وبيان معنى كلمة « إسلام » فى القرآن الكريم ٤٣ — ٥١

تذكير موسى لقومه بالنعم والنقم وحديث مع ذكر — الواو — وحذفها فى الآيات المتشابهات ٥١ — ٥٧

قانون زيادة النعم ومحقها وتحقيقات لغوية حول كلمة — الشكر والكفر والحمد والمدح ٥٨ — ٦٤

مواقف حاسمة فى الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم وبيان دقائق بلاغية فى الإستفهام والكتابة وأساليب القصر وبيان حيثيات خيبة الكافرين . ٦٧ — ١٠٣

تصوير القرآن لأعمال الكافرين وبيان الدقة فى اختيار عناصر المشبه به — الرماد — السراب — الظلمات — مع مقارنة بتصوير أعمال المؤمنين ١٠٣ — ١١٤

حوار وجدل بين الضعفاء والمستكبرين فى الآخرة وترقى الحوار إلى الشيطان وأتباعه وبيان ظاهرة الجمع والتفريق والاستعارة الزمنية والإيجاز المعجز فى قوله — إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وبيان معنى من معانى القصر النادرة فى قوله — فلا تلومونى ولوموا أنفسكم وبيان أثر العطف بالواو فى بعد المؤمنين عن الجدال وحديث حول تنكير كلمة — سلام — ١١٤ — ١٢٧

تصوير الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة وبيان أثر التمثيل فى تجسيد المعانى وتأنيس النفوس بها وتحليل عناصر صورة التمثيل وبيان تواصل الجمل عن طريق الإستئناف البيانى تسلسل بنائها ١٣٢ — ١٦٤

التعجيب من أعمال الكافرين بوساطة الإستفهام وذكر أفعالهم القبيحة وتحليل هذه الأحداث ١٦٥ — ١٧٧

الحديث عن المؤمنين والأمر لهم بالثبات على الطاعة وتحقيقات لغوية وبيانية حول — إقامة الصلاة والإنفاق من رزق الله وبيان سر الجمع بين الصلاة والزكاة وتقديم الصلاة عليها فى آيات القرآن الكريم وحديث عن متشابه — لابيع فيه ولا خلال ١٧٨ — ٢٠١

لفت أنظار المؤمنين والكافرين إلى نعم الله العامة وبيان جمال النظم فى ترتيب النعم والدقائق الأسلوبية فى بناء الجمل وبيان عموم الإعجاز فى قوله — وسخر لكم الفلك — قديما وحديثا وبيان متشابه قوله — وإن تعدوا نعمت الله لاتحصوها — تركيبا وخطا ٢٠٥ — ٢٢٠

لفت أنظار الفريقين إلى النعم الخاصة وبيان متشابه قوله — رب اجعل هذا البلد آمنا — وتحليل جمل الدعاء وبيان أسرارها البلاغية وبنائها اللغوى وبيان القصر الضمنى فى قوله — ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ٢٢٥ — ٢٤٩

امتداد الحديث إلى يوم القيامة وبيان أوصاف الناس وتحليل جمل الوصف وبيان الكناية المبنية على كناية فى قوله — ولا تحسبن الله غافـــلا ٢٥١ — ٢٥٦

تمنى الظالمين الرجوع إلى الدنيا والرد عليهم وبيان القراءات فى قوله تعالى — وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال — والأسرار البلاغية المترتبة على كل قراءة وبيان أن الظلم ليس مكتوبا على الإنسان وإنما يفعله باختياره ٢٥٨ — ٢٦٩

تبديل السموات والأرض وتحليل أوصاف المجرمين وبيان بلاغتها وظاهرة الترقى فيها ٢٦٩ — ٢٨٠

عود على بدء — هذا بلاغ للناس — البلاغ القرآنى وغاياته وبيان أن ختام السور تصديق لأولها ونتيجة حتمية لما تقدم فيها ٢٨٠ — ٢٨٤

يبين وحدة السورة وتماسك لبناتها ٢٨٤ — ٢٨٩

الخاتمة ٢٩٠ — ٢٩١

المراجع ٢٩٢

محتويات الكتاب ٢٩٣

رقم الإيداع بدار الكتب
٨٦٤٢/ ١٩٨٩ م